

T
68A

خليل مطران الشاعر

بقلم

ميشال جحا

[1957]

فهرس

<u>صفحة</u>	
٢ - ١	١ - مقدمــــــــــــــــة .
٥٢ - ٣	٢ - تمهــــــــــــــــيد :
	حالة الشعر المصري قبل العهد بالمطران :
٦٧ - ٥٣	٣ - حياة مطران وشخصيته .
	حياته ، شخصيته واثار ذلك في شعره .
٨٥ - ٦٨	٤ - مطران الشاعر .
	مطران بين التقليد والتجديد :
٨٦٨ - ١١٢	٥ - الملامح الرومانتيكية في شعر مطران .
١٩٣ - ١١٣	٦ - اغراض شعره
١٢٢ - ١١٣	أ - شعر القصص
١٤١ - ١٢٣	ب - شعر الثورة والحريــــــــة .
١٥٥ - ١٤٢	ج - مرويته واخلاصه لمصر .
١٩٣ - ١٥٦	د - شعر المناسبات :
	(١) الرثاء .
	(٢) التهاني والحفلات :
٢٠٠ - ١٩٤	٧ - الخلاصة
٢٤٣ - ٢٠١	٨ - ملحق : مختارات من شعر مطران .
٢٤٧ - ٢٤٤	٩ - فهرس المراجع

المقدمة

لا شك في ان خليل مطران يعد بحق احد شعرائنا المعاصرين الكبار . وقد اخترته موضوعا لاطروحتي لانه اول حداة قافلة التجديد في شعرنا العربي المعاصر . وهو كما حدثنا الدكتور طه حسين شبيه بابي تمام من حيث ان كليهما زعيم مدرسة في الادب العربي ومن حيث ان تأثير ابي تمام لم يظهر قويا في جيله المباشر بل ازداد في الاجيال التي تلته ، كذلك اثر مطران سوف يقوى ويزداد في الاجيال التي سوف تأتي .

وقد شجعني الدكتور محمد نجم على العمل على هذا الموضوع وزين لي فائدته فالموضوع يشمل الحياة السياسية والاجتماعية في القرن التاسع عشر واسباب النهضة الحديثة واثر ذلك في شعر العصر ، ثم انه يشمل ايضا فهم المدرسة الرومانتيكية الغربية بالاضافة الى دراسة شعر مطران وآراء الكتاب فيه وفي الشعراء الذين عاصروه وجاؤوا بعده في مصر . وتلمس مدى تأثير مطران في الشعر العربي المعاصر .

فقد صحبتني مطران وصحبته طيلة سنتين ونصف . عاش معي في المكتبة وفي البيت وفي السوق . وكنت اسأل الادباء والشعراء عنه اينما اجتمعت بهم . اوقف بدوى الجبل في الشارع واساله عن تأثره بمطران . واكتب الى وديع فلمطين فيفيدني عن حياة مطران . واجتمع بالاستاذ امين نخله في دور الحديث على مطران . واصادف الاستاذ فؤاد صروف في الجامعة فارافقه الى منزله ويكون مطران ثالثنا في المسير .

وقد اتصلت بغير هؤلاء من ادباء وشعراء واستفدت من آرائهم وملاحظاتهم وان يكن اكثرها لم يزيد على ما كتبت قد جمعته من معلومات .

اردت اول الامران امهد للموضوع بدراسة عوامل النهضة الحديثة التي رافقت مجيء نابوليون الى مصر ، واثر ذلك على الشعر المصري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ودراسة الشعراء المصريين الذين عاصروا خليل مطران لكي تتم المقارنة بينهم وبينه ويسهل وضعه في المنزلة الادبية التي يستحقها .

واطلعت على مقومات المدرسة الرومانتيكية الغربية لان ملامحها واضحة في شعره . وقد اوجزت الكلام على حياة الشاعر واكتفيت بالحوادث الرئيسية التي تلقي ضوءا على فهم شعره .

ثم اظهرت الملامح الرومانتيكية التي تصف شعره ، وعرضت لمعالجة فنون شعره من قصص ومدىح وورثاء وغير ذلك من شعر المناسبات .

وحاولت تقييم هذا الشعر على ضوء النقد الحديث وفهم الشعر انه احد الفنون الراقية الذي يعبر عن مشاكل الحياة الفكرية والجمالية .

وحاولت ايضا ان انصف مطران من حيث هو مجدد وارى تجديده واهمية هذا التجديد على الشعر العربي المعاصر .

وامر آخر عرضت اليه هو وطنية مطران : اخلاصه لمصر وللعروبة ودفاعه عن الحرية .

واني اعترف بانني لم اجيء بجديد في هذه الرسالة ، وانما قصدت الى التوكيد على اشياء

اهمها : ان مطران هو وسط بين التجديد والتقليد ، وانه لم يتأثر بالادب الافرنسي تأثرا صحيحا على الرغم من انه قد درسه وعاش مدة سنتين في باريس ، وان تجديده لم يكن تجديدا أساس للشعر العربي الحديث ، وانه شاعر رومانتيكي واول من استوت عنده مفاهيم الرومانتيكية ، من شعرائنا المعاصرين وتبلورت . وان شعره مليء بشعر المناسبات الذي ، وان كان في بعضه يرتفع عن المناسبة التافهة ، فهو شعر لا يجد ريشاعر كبير دخل حرم الشعر من الباب الواسع .

واود ان اشكر الادباء والشعراء الذين افادوني في دراستي لخليل مطران وهدوني الى

بعض المصادر . واخص بالشكر الاستاذ الكريم الدكتور محمد نجم الذي اشرف على تهيئة هذه

الرسالة فكان لارشاداته الحكيمة اعظم الاثر في نفسي .

واوجه الشكر ايضا الى المكتبة الشرقية في الجامعة اليسوعية في بيروت لوضعها بين يدي

طائفة من المصادر النادرة .

هذا وانا اسأل الله ان يوفقني الى انصاف مطران واقامة الحق في تقدير شعره .

تمهيد

يهيمن ان نلم بصفات الشعر المصرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لان في ذلك ما يمهّد لمطران وعلى هذا الضوء ينجلي تقييمه .

مما لا شك فيه ان حالة الشعر المصرى في تلك الفترة كانت على خلاف ما يشتمى لها ان تكون ، فالملكة الشعرية قد فسدت حتى كاد الشعر يضل طريقه بين المحسنات اللفظية والبديع والتوشية والتعميق وحساب الجمل وما الى ذلك من ثثرة وحشو وتطريز .

ولم يكن جميع الشعراء المصريين متشابهين من حيث النشأة والثقافة ، فمنهم من نشأ نشأة دينية ازهرية ومنهم من سافر الى اوربا ودرس هناك ، ومنهم من نشأ وعاش في البادية ، ومنهم من عاش في الحاضرة على احسن ما يكون التحضر ، ومنهم من كانت ثقافته العربية متينة قوية درس اللغة والشعر القديم وتأثر فحول الشعراء المقدمي ومنهم من كانت لغته ضعيفة ركيكة تكاد تكون عامية . (١)

ولكن على الرغم من هذه الخلافات جميعها فان الشعراء الذين درسوا في الغرب لم يستفيدوا شيئا يذكر ، فلم يؤثر الشعر الغربي فيهم على الاطلاق ، ذلك ، لان طابع الشعر العربي باطاره ، وعموده وارتكازه على وحدة البيت ، لا وحدة القصيدة ، ظل مسيطرا على الشاعر المصرى الذى ظلت عينه على الشاعر العربي القديم يتأثر الجاهلي والاموي والعباسي ويحاول ان ينسج على منوالهم معارضا تارة ومقلدا اخرى ، ومقصرا على كل حال .

واكثر هؤلاء الشعراء نظروا الى الشعر من حيث هو كلام موزون مقفى فاذا استقام الوزن وانقادت القافية تم لهم الشعر . والشعر عند هؤلاء يصلح لاي موضوع فهو للتطريز والتعميق ، والمناسبات ، والاراجيز ، والتواريخ ، وما شابه ذلك خلا العاطفة والشعور والاحساس الصادق .

وارى تسهيلا للبحث ان اقسام هذا الشعر الى ثلاثة اطوار :

الطور الاول : (١٨٠٥ - ١٨٦٣) ويشمل الشعراء الذين عاشوا في ظل محمد علي

وعباس وسعيد ويتناول منهم :

١ - علي الدرويش .

٢ - محمد شهاب الدين .

(١) العقاد ، عباس محمود - شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي .

الطور الثاني : (١٨٦٣ - ١٨٨٢) يشتمل على عهد اسماعيل الى اوائل الاحتلال ويتناول :

• الساعاتي

الطور الثالث : (١٨٨٢ - ١٩٠٠) من اول الاحتلال الى اواخر القرن التاسع عشر . ويتناول :

١ - عبد الله فكسرى

٢ - علي الليثي

٣ - عبد الله نديم

٤ - محمد عثمان جلال

٥ - عائشة التيمورية

٦ - محمود سامي البارودي :

وعلى كل حال فهذا تقسيم اصطلاحي ، ذلك لان العصور الادبية متداخلة فقد يعيش شاعر في القرن العشرين ويمكن تصنيفه في العصر العباسي لانه ينحدر منحنى الشعراء القدامي ويتناول مواضيعهم وينسج على منوالهم .

اسباب النهضة وموانعها :

كان لمجيء نابوليون الى مصر اثر بالغ في تشييط الحياة الفكرية والاجتماعية ذلك لان نابوليون ، وهو ابن الثورة الافرنسية ، كان قد حمل معه بذور تلك الثورة وتعاليمها . فاصطحب بعثة علمية ضمت خيرة علماء فرنسا . وانشأ اول مطبعة ساعدت على احيا التراث العربي القديم ووضعه بين ايدي القراء . وانشأ المجمع العلمي . واقام نظام الشورى .

وكان لاكتشاف آثار مصر ، وخاصة حجر رشيد ، اثر بارز في احيا الروح القومية .

ثم جاء محمد علي الكبير ووزع الاراضي على الفلاحين وانشأ الدواوين وجلب نبات القطن من اميركا ، واقام السدود ، ونظم الجند ، وانشأ المدرسة الحربية ، ومدرسة الطب ، ومدرسة اللسان وارسل البعثات الى فرنسا :

على ان الصفة العامة لنهضة محمد علي كانت علمية اجتماعية ولم تكن ادبية ، ذلك لان هدفه الاول كان تقوية الجيش فكان يرسل البعثات الى فرنسا للتخصص في فنون الحرب والطب والعلوم وقد انشأ المدرسة الطبية لتجهز الجيش بالطباء .

فلم تصل نهضة فرنسا الادبية الى مصر في ذلك العهد عن ذلك الطريق ، فكان الشاعر المصرى يتغذى على ما وصله من شعر عصر الانحطاط وهو شعر ردى لا يصلح غذاء لشيء .
وكانت موانع النهضة في مصر ، قبل ذاك كثيرة تتلخص في مانع واحد كبير هو فتور الحياة القومية في عهد من الزمن طويل .

ويدخل في هذا المانع الكبير سائر الموانع الاخرى :

اولا - سلطان الاجنبي

ثانيا - غلبة الاعاجم على البلاد

ثالثا - قلة العلم بالاساليب الفصيحة .

رابعا - ندائة الكتب القيمة بين ايدى المتعلمين على نزاره عدد هم .

خامسا - انقطاع الصلة النفسية بينهم وبين شعبهم . (١)

الصفات العامة لشعر الطور الاول :

هو شعر انحطاط وتد هور . جاء بعد زمن مديد من التحكم والاضطهاد ، فمن حكم اجنبي دخيل الى حكم اجنبي دخيل آخر حتى انتهت السلسلة بحكم الاتراك العثمانيين الذين قضوا على كل معالم التحضر . فلم يبق امام الشاعر المصرى سوى هذه النماذج من شعر الانحطاط يقلدها ويتأثرها ويقبس عليها ، ذلك لانه كان قد انقطع عن تاريخ الادب العربى الصحيح بسبب فقدان الكتب وطغيان الجهل وضعف الهمة وانكسار النفس بسبب الظلم الطويل فلجأ الى التقليد والمحاكاة وماتت فيه ملكة الخلق والابتكار بسبب الرق والجهل وفقدان الطريق الصحيح . ومسخ الشعر واصبح صناعة لفظية تتعمد البديع والتضمين والتشطير والمعارضة وحساب الجمل . وكان الشاعر يقوم بهذه العملية وكأنه خارج عنها فلا تظهر شخصيته ولا تتكشف نفسيته ولا تبد وملاحمه وخير

شاهد على ما نقول علي الدرويش المتوفى سنة ١٨٥٢ صاحب ديوان "الإشعار بحميد الأشعار"
فالسجع حتى في اسم الديوان وكذلك حساب الجمل يؤرخ به سنة ١٢٧٠ للهجرة :

يبدأ الدرويش ديوانه بمدح النبي بهذين البيتين ويودعهما ثمانية وعشرين تاريخا :

خير البرايا احمد سما له بيت رقي في المعالي مورد
اتقى نبي نور طهر عاصم هو خير اى الرسل بل واحمد

فانظر الى هذا النسخ المهمل ، والى السداة واللحمة فيه واخذ الحرف للحرف

والكلم . للكلم .

فالشعر - وهو في عرف الدرويش صناعة - فلا بأس ان يكون اعجازا يلفت الناظر ويدهش

القارىء فيأتي بالبيت وكل حرف فيه منفصل فيقول :

أراك ودى ان اراك وان ارى آرام ودى زاده ودى روى
ثم كل حرفين معا :

كم كوكب لي طالع في حاجر يزهو بوجه ضاه يا له جأى
ثم كل ثلاثة معا :

قمر بهي فيه همت فما شفا ضني فتى يظل منه على شفا
ثم كل اربعة معا :

قلبي يهيم لطيب طيبة مقمر بظبا تجنت لظبا تنقي
ويتبع ذلك بيت كله مهمل :

وهو رسول الله طه احمد ومحمد روح المكارم والملا
الى آخر كله معجم :

ينغيث في ضيق فتى ذى خيفة نبي فيض يتقي غيث غنى
وهذا شطر معجم وشطر مهمل :

ثبت يتقي ثقة بقي ببغية وكما لله سما السماك والمهى
وآخر شطر مهمل وشطر معجم ، فليس من الصعب على الذى يستطيع ان يركب شطرا معجما وآخر

مهملا ان يركب شطرا مهملا وآخر معجما :

مولاه ارسله اماما عادلا يقضي يثيب يزين يشفي يقضي

الرحلة طويلة شاقسة فلاختصر لك الطريقى .

وهكذا ينتقل من بيت (كلماته من المقلوب المستوى) الى آخر فيه (حرف مهمل وحرف معجم) وآخر (حرفان مهملان وحرفان معجمان) وآخر (كل كلمة مطلوب ما قبلها) وآخر (ثلاثة احرف مهملة وثلاثة معجمة) وآخر (اربعة احرف معجمة واربعة مهملة) وآخر (حرف منفصل وحرفان متصلان) وآخر (حرفان متصلان وحرفان منفصلان) . فلا شك في انك معجب بهذه الفسيفسا ١ او ليس هذا اشبه ما يكون بلعب الصغير يعبت بقطع الخشب الملون ينقلها ويبدلها فالاحمر هنا والازرق هناك والازرق هنا والاحمر هناك وزد الى ذلك الاصفر والاخضر ولون الدجفة ولون قوس قزح .

ولن انسى ان اذكر لك الكلام المقلوب - مقلوب ما قبله ومقلوب ما بعده - والبيت الذى يرد آخره الى اوله واوله الى آخره ، وحساب الجمل . فصاحبنا - صانع المعجزات - لا يكتفي بكل ما سبق فاذا به شأن البهلوان الذى ييدا ١ بالالعاب متدرجا من السهل الى الصعب ويبقى اللعبة الخطرة ٢ الى نهاية المشهد فينتزع التصفيق وتقوم قيامة الاحباب .

فشاعرنا الدرويش يكتب رسالة نثرية مطعمة بالسجع ثم يختار منها مفردات يعينها ويعود فيجمعها شعرا فما رأيك بهذا النثر المشعور والشعر المنشور ؟ ! او ليست هذه "قفزة الموت" وقد نجا صاحبنا فهات كلك فلن ندخر التصفيق ؟ ! :

والغزل عند الدرويش نظم وصناعة فاستمع اليه وقد لبي طلب احد هم في نظم بيتين من الغزل اول كل كلمة منهما عين :

علي على عينيك عدل عواند لي عذاب عليها عند عاشقها عذب
مذارك عذرى عجب عطفك عذتى عيونك عضبي عاد عاشقها عضب

وتستغفر الله بعد ذلك النقش والتطريز وتقلب الصفحات تفتش عن الشعر فلا تجد غير ابيات مشدودة من شعرها ، وعبثا تقع على معنى رائع او قول فخم ضخم ، او فكر رفيع ، او نغم موسيقي ، فالشعر عند صاحبنا ليس من هذا في شيء ، هو الاعيب بهلوانية ، وحساب جمل ، وتواريخ ، وتضامين وحروف هجا ، مهملة ومعجمة ، مفككة وموصولة ، وليس كلمات ذات معنى وجرس ونغم وليس تعبيرا عن احساس ، او عاطفة او فكرة تبقى بقا الانسان وتعكس قضاياه الازلية ، وليس نقلا ، على اجمل ما يكون النقل ، لتجربة شخصية فريدة ، فلا يزيد على ان يكون هذه الكليشيهات ٣ والالعاب الصبيانيسة :

فشعر الدرويش شعر مناسبات • لا يدع الدرويش مناسبة تفوته الا ويسجلها شعرا
فيقول مهنثا فلانا برتبة رقي اليها ، ويمدح فلانا ، ويقول مستعظما ، او يعرض حالا ، او مقدما
عذرا وما شابه ذلك •

ويذهب الطاعون فيقول مهنثا ، ويقول مداعبا ، ويقول مورخا الجوامع ، والقناطر ، والجسور
والولادات ، والوفيات ، والختان ، ونيل الرتب • والسجع حتى في عناوين القصائد : " وقال مهنثا
صديقه الاوحد حضرة السيد حسن اباطة الامجد ومورخا مولد نجله احمد " •

ويقول مشطرا ويقول مخمسا معارضا الشعراء القدامى وله " في واقعة حال " والملح ،
والنوادير ، والمداعبات وفي نظم بحور الشعر جميعها •

وكل ذلك مليء بالمحسنات والبديع فمن طي الى نشر ومن جناس الى تورية الى استعارة
الى تشبيه •

وعلى العموم هو شاعر لا يعيش في عصره ولا في بيئته ، ولا يتجاوب مع الحياة ولا يتجاوب مع
نفسه همه ان يقلد الشاعر الجاهلي فيقول (١) في مغارة روضة النيل وقد درست وصارت مهجورة
بعد الرونق والحسن •

حزن الاماني من جزيرة منييل	قفا نبك من مرأى المغارة يا علي
(وهل عند رسم دارس من معول)	جري سائلا دمعني عليها لما جرى
تبدل رمان الرياض بحنظل	ارتقا صروف الدهر فيها عجائبا
(بسقط اللوى بين الدخول فحومل)	بكي ابن حجر لو رآها لما بكى

فهذا شعر جاهلي نقبله من امرى القيس لانه قول صادق يصور بيئة الشاعر ويعبر عما
في نفسه ، ولا نقبله من شاعر عاش بعد امرى القيس بما يزيد على اربعة عشر قرنا فاذا تكلم عن روضة
النيل جا " بقفا نبك وبال دخول فحومل وبمناخ صحرائي •

ومحمد شهاب الدين المتوفى سنة ١٨٥٢ م • لا يختلف عن صنوه علي الدرويش في فهم
الشعر ونظمه • ففي مقدمة ديوانه المسجوعة بعد ذكر الرسول وآله يقول (٢) كنت قد قسمته (الديوان)
الى اجزاء سبعة اتيت في كل ما يناسب طبعه (الاول) في امتداحه صلى الله وسلم عليه ، والتوسل
بجاهه العظيم عنده اليه (الثاني) في مدحة ارباب الدولة ، واصحاب الشوكة والصولة (الثالث)

(١) الديوان ص ٢٤١

(٢) الديوان ص ٣

في ذوى المناصب من الجهابذة ، واولى المراتب من الاساتذة (الرابع) في الاخوان والندمان ،
والحسان من الجوارى والخلمان (الخامس) في تقاريط الكتب ومقاطع التاريخ (السادس) في
عظة النفس بالزجر والتوبيخ ، وجعلت (السابع) من تلك الاجزاء في الرثاء ، وجميل الصبر والعزاء ،
طلبا لحسن الختام ، ورغبا في العفو الشامل التام ، ثم عن لي ان ازيدها ثامنا ، يكون لكمال حسنها
ضامنا ، فقلت (الثامن) في الارجيز الرائعة والمزدوجات الفريدة الفائقة ، وبهذا صارت الاجزاء
ثمانية ، مدد ابواب الجنة العالية .

واول ما يظالنا في هذا الديوان قصيدة في مدح الرسول يستهلها بالغزل ثم
ينتقل الى الشراب وذكر الراح والنديم والغناء - وهو رقية الزنى كما يقول صاحب الاغانى -
وهو ما فرش هذا الفرش لمدحة الرسول يجمع المحرمات ويحللها الا اقتفا لسنة القدامى وتقليدا
لصاحب "بانت سعاد" وهو يسعى الى البديع ويتعمد الجناس في امثال قوله :

غنني يا اخا الندامى ورنم
انا ما لي عن الغناء غنا

ويسأله بعد ذاك ان يذكر له "العقيق" كان ليس عنده نيل يجرى وجمالات يقام لها
ويقعد . ولكن هذا هو التهافت على التقليد :

وينتقل الى القصيدة الثانية فاذا حروف كلماتها مفردة :

راج دن ادرت ام ذوب ورد
رق اذ دار دون آس وورد
رب روض اراك دوح اراك
دون اوراق ورده راق وردى

واذا هي تعج بالجناس والمحسنات والبديع :

وهو يسترحم ويستغفر ويسأل الرسول ان يكون له شفيعا :

فجد ربي واغفر سيئاتي وعافني
واصلح فساد الفتق بالرتق والرني

اوليس هذا اقرب الى دكان خياط ؟
رنا

فشعر شهاب الدين شعر مناسبات فمن تهنئة في سلامة او ختان ، او انشاء جامع
او حج ميمون ، او انشاء دار ، الى كتاب واستعطاف او تطريز او تهنئة بزواج او التماس خدمة
لصديق كلفه ان يساعد على نيل ما رُب فيصبح الشعر عنده (بطاقات توصية) :

وهو في مدحه مقلد يبدأ بالغزل المتكلف ، بدوى النزعة يعيش في " صبانجد " و " العقيق " و " العرار " وما الى ذلك من مناخات الصحرا .

وشعره مليء بالطبي والنشر ، بالبديع ، والجناس ، والتضمين والتوشية والتميق والتأريخ ولا تسأل عن المبالغات والغلو والاطناب ، فهو يكسو مدوحه الحلل الفضفاضة بغير حساب فهي جاهزة يلبسها ايا كان ، وليس عنده اثواب فصلت على قد .

همه ان يستقيم له الوزن وتتقاد له القافية والبيك قوله (١)

في رياض تراقص الغصن فيها ان على عوده الهزار تترنم
بين آس ونرجس واقجاج وبهار وجلنار وخوجم

فانظر الى هذه " الخوجم " والى انعدام الذوق وقلة المأثية في الشعر .

والشعر عنده يصلح لكل شي ، فهو لم يعد كما قال الاغريق " لغة الآلهة " بل اصبح لغة الشياطين . فاذا طلب منه احد هم ان ينظم له شيئا على المجون في لحية ابن خالته وكان قد حج وارسلها هناك وعاد بها ، قال قصيدتين بدلا من واحدة ، وانا بعث اليه بعض الاخسوان بشي من الحنطة كان على الشعران يقوم بتسديد الحساب ، وهو ينظم في اسما شهر الجاهلية وهيب القواني وحركاتها وضرورات الشعر وما الى ذلك من سخف ، فلا عاطفة ولا صدق في التعبير ولا خيال ولا فكر ولا ما يهز النفس :

يقول (٢) " كتبت الى جناب الخواجه بطرس بكتي فنصل المسكوف وكان قد زارني يوما

ولم يكن بيني وبينه معرفة فقلت تطريزا .

بعد مقدمة في الغزل :

يكون كحظي يوم ايناس بطرس . . . وتم لي الصفو الذي كاد حظه
مشيد ركن المكرمات المؤسس الا وهو تاج الفخر ذو الحسن والبها
رقيق الحواشي ذو الحجى والتقرس جميل السجايا الالمني فطاننة
حليف المعالي ذو الجناب المقدس هشوش المحيا ضاحك السن دائما
تكامل كل الحسن في وصف كيس تكاملت الاوصاف فيه وقلمنا

(١) الديوان - ص ٧٣

(٢) الديوان - ص ١٦٥

كل هذا ولم تكن له به سابق معرفة كما يقول في مقدمة القصيدة . أرأيت الى هذا
الصدق في القول ؟ ! أو لا ينطبق هذا الشعر على اى شخص ؟ . ذلك لانه لا يدل على شخص آخر
بعينه . هو كلام جاهز :

وانا قال على سبيل المزل والمجون استغفر الله سبحانه وتعالى (١) فيذكرني
ذلك قول العقاد في " شعرا " مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي " ان الشاعر كان يخاف الله
ودينونته من هفوات او سقطات تقع في شعره ولا يخاف دينونته على يد النقاد .

والذى اوصل الشعر الى تلك الحالة فقدان النقد الصحيح الموجه ان الناقد هو
البوصلة التي تهدي الشاعر وتضع له العلامات في الطريق والنقد هو المرأة التي فيها يرى الشاعر
وجهه على الصدق .

فشهاب الدين يؤرخ كل شي " يخطر ببالك من ختان ، او انشاء سبيل ، او ولادة ، او وفاة
او دعوة ، او رتبة ، او بلاطة توضع فوق قبر ، او من حج ، او بنا منزل ، او جامع او طريق ، او زواج
او رقبية ، او ليلة انس ، او عام جديد ، او ختم القرآن . حتى ليكاد يصبح ديوان صاحبنا دفتر
كيسة لما فيه من تواريخ الولادة والعماد ، والزواج ، والوفاة .

مدحه زلفى وريا " وببالغة واطناب ورتاؤه كلام عادى ما لوف يخلو من كل جدوى ، اللهم
الا المبالغات في تعداد صفات الميت وكيف تغيب الشمس وتدنك الجبال وتقوم القيامة من هول
المصاب فيه . (٢)

اودت بطور الهدى حتى قد انتظمت
شمس الحقيقة مصباح الطريقة - (-
. . . يا كوكب اشرفت في الكون طلعته
فيه عقود الرثا والدمع منشور
منه لكلتيهما في السر توير
ثم انطوى ولوآء الفضل منشور .

وكثيرا ما يسطو على من سبقه من فحول الشعرا " ولا يرى في ذلك اى ضمير كقوله :
وارى الليالي بالحوادث قد جنت
ام حيث انشبت العنينة ظفرها
من خال ان الليث يضحك منه
زهراتنا وعلى الذى اختارت جنت
انباها للنائبات تبينت
خابت مظنته وهمته وتنت

(١) الديوان ص ٢٠٩

(٢) الديوان ص ٣١٦

فنشوب اظفار المنية من الهذلي حيث يقول :

وانا المنية انشبت اظفارها
الفيت كل تميمة لا تنفع

فالليث الذي يضحك هنا ، هو من الليث الذي يبتسم في قول ابي الطيب :

اذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظن ان الليث يبتسم

والباب الاخير في الديوان يدور على الارجيز التي تحتوى كل غريب عجيب : في آلات الطرب
والنصيحة ، واسماء خيل الحلبة العشرة ، واسماء قداح الميسر العشرة ، واشكال الرمل ، ومنازل
الابراج ، والكواكب السيارة والثابتة او قواعد النجوم الى ذلك من سخف وسقط متاع .
وبعد ، هذه هي الصفات العامة لشعر ذلك الطور فاذا نحن اردنا تقيمه لا نخرج
بطائل فهو كلام موزون مقفى ولكن ليس فيه شعر ، ذلك لان مفهوم الشعر عند هؤلاء الشعراء
مفهوم خاطي . شعرة والاعيب وتلمية . فاما ان يكون الشعر عملية جديدة (هي ارفع
عمليات الخلق الفني على الاطلاق) يحتاج الى ثقافة واسعة ورهافة ذوق ودقة احساس فذلك
ما لم يكن لهم به عهد :

الطور الثاني - عهد اسماعيل

ميزة هذا الطور : امتاز اسماعيل عن سائر ولاة مصر قبله انه حبيب سكنى الديار المصرية

الى الاجانب من اوروبيين وغيرهم ووسع نطاق التجارة فاتوا اليها واقاموا فيها على الرحب
والسعة مما آمنوه من الكسب الحسن والعيش السهل .

واكبر حدث قام به اسماعيل هو افتتاح ترعة السويس في عام ١٨٦٩ ولا يخفى ما في ذلك

من اثر بالغ في حياة مصر وشعبها . فكانت هذه الترفة بجمعها بين بحرين قد جمعت بين
مدنيتين غربية متحررة واعية وشرقية مستعبدة جاهلة .

وكان اسماعيل محبا للاصلاح مولعا بالتنظيم فشق الشوارع وشيد المباني وانشأ الحدائق

وقسم القطر المصري الى ١٤ مديرية واسس مجلس نواب ونظم مجالس قضاة ، وبنى الجسور
وخطوط الحديد .

وسما يقوله زيدان (١) انه حسن مطبوعة بولاق وزاد فيها وامر بترجمة الكتب المفيدة

وطبعها ونشرها واسس معملا للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة الا جريدة الوقائع المصرية

صدر على غير نظام فجعل لها ادارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية ، وبالجملة فقد كانت للعلم في ايامه نهضة مرجع الفضل فيها اليه لانه كان يحب العلماء ويحيز المجيدين منهم ويأخذ بناصرهم ماديا وادبيا وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز بيده وقد ينهض عند تقديمها تشيطا لهم .

وقد دللنا على ما كان للعلم من رواج في ايام محمد علي الكبير ولكن هذه النهضة عادت وخمدت على عهد عباس وسعيد فالاول اقفل المدارس كلها الا واحدة وخلفه لم يكن احسن منه ففضيلا ما تبقى .

ولما جاء اسماعيل لم يكن في مصر الا مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية ومدرسة حربية ومدرسة طبية صيدلية وكانت في حالة يرثى لها . فاخذ في انشاء المدارس وجلب المدرسين من اوربا واستخدم المصريين الذين ذهبوا في بعثات التخصص فحدثت في عهده نهضة ادبية لا بأس بها كانت بفضل المدارس والبعثات الى اوربا والمدرسين الاجانب والصحف والمطابع والجمعيات الادبية ومن وفد على مصر من رجال الادب والعلم . وكان من اشهر الوافدين جمال الدين الانغالي الذي نزل مصر سنة ١٨٢١ وجاء له فيها فضل على الكتاب والادباء والمفكرين كبير .

وخلاصة القول ان مصر كانت في ايام اسماعيل زاخرة ، وكان الناس في رغد ورخاء ^{خاصة} وعلى الخصوص بعد ارتفاع اسعار القطن في اثناء حرب اميركا .

ولكن اسراف اسماعيل اغرق الدولة في دين بلغ مئة مليون من الجنيهات وقد ادى ذلك الى تدخل الاجانب واحتلال الانكليز .

هذا عرض سريع موجز لحالة مصر ونهضتها في عهد اسماعيل فهل اثر ذلك في

حالة الشعر؟ :

هذا هو السؤال الذي يعنيننا الآن والذي نريد ان نجيب عليه . فمما لا شك فيه ان الازدهار في المدنية من حيث العلم والانتاج وال عمران والحرية يودي الى الازدهار في الادب والشعر . فازدهار الشعر والادب في العصرين الاموي والعباسي مثلا وانحطاطهما في مصر الظلم والاستعمار دليل واضح على صحة هذا الزعم .

فقد تعاونت بواعث النهضة على تكوين ملامح الشاعر المصري في هذا الدور . فلم يعد الشاعر حافظاً للعروض متقناً للنظم وحسب بل اخذت شخصيته تتبلور وملامحه تتضح واخذ مفهوم الشعر عنده يتبدل بعض الشيء فلم يعد الشعر محض صناعة لفظية مفككة ركيكة سقيمة تقليدية بل اخذ يظهر فيه شيء من الطبع ومهما يكن من امر فقد كان محمود صفوت الساعاتي ، المتوفى ١٨٨٠ م ، خاتمة الشعراء العروضيين وبداية لشعراء الطبع فقد يجارى الساعاتي هؤلاء الشعراء في الاكثار من البديع احيانا كما في قصيدة يمدح بها النبي جمع فيها مئة وخمسين نوعاً من انواع البديع والتي يستعملها بقوله :

سفع الدموع لذكر السفع والعلم ابدى البراعة في استهلاله بدم (١)

ولكنه كان اول معول ينهال على الشعراء النحاة كما يسميهم في قوله :

فدعنى من قول النحاة فانهم تعدوا لصراف النطق من غير لازم
اذا انا احكمت المعاني خفضتهم وارفعها قهرا بقوة جازم
وما انا الا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الاعاجم

والظاهرة المهمة عند الساعاتي انه التفت الى مصر واحسن طبيعتها وصورها في شعره وذلك ظاهر في مدحه للخد يوى اسماعيل (٢)

..... ومصر هي الدنيا جميعا وربها
لقد جمعت ما بين شرق ومغرب
خزائن ارض الله مصر وكم اتى
لقد صير الباري ثراها واهلها
اذا فاض نهر النيل فيها يمد
تسامت باسمايل قد را ومنصبا
تعالى على كرسيها فترنحت
واسس فيها ملكه فتشرفت

عزيز واهلها هم النجباء
كذلك بالفرقان جاء تساء
حديث روت السادة القداماء
وروى رباها كيف شاء وشاءوا
نوال مليك وفد وزراء
وقد هز قطريها به خيلاء
ومرت به عينا وزال عناء
وظاول منه الفرقد ين بناء .

فهذا شعر يكاد يخلو من الصنعة ، واهم ما فيه انك ترى مصر من خلاله ، ترى عظمتها ونيلها وحب

(١) الديوان ، ص ٩٦ - ١١٠

(٢) الديوان ، ص ٦

الشاعر لها ، فاذا هي في عينه (الدنيا جميعا) و (خزائن ارض الله) . هذا محصول تيلسور
الفكرة القومية التي بلغت اوجها في ثورة عرابي .

هذا ، بينما نرى عند الشعراء المقلدين جغرافية الصحراء و مناخها وترديد اسماء
اماكنها ولا نكاد نرى اثرا لمصر .

(١) وهو يذكرها ويمجدها في مكان آخر من ديوانه ، ان يعدح الخديوي توفيق فيقول

والنيل نهر والحديقة كوثر
شتى وزينها الطراز الاخضر
مصرفود الكون لو يتمصر

هل مصر الا روضة بل جنة
فالارض ترفل في حلى الوانها
عزت بتوفيق العزيز محمد
فهذه ال (فود الكون لو يتمصر) رائعة .

’ واول ما بيد وصف مجالي الطبيعة عند الساعاتي فهو يرى الجمال ويحسه ويظهر ذلك
في شعره حيث يقول (٢)

تسلسل في اصل الاسيلات ما بقي
كان على الاوراق وشي منسق
جنى نرجس يرنو اليها المحدق
يطير به النعام في كل مفترق
يميل اليه البان في زى مطرق
فتفترق الاغصان طورا وتلقني

بروض اذا ما جن ماء غديره
تراسلت الاطيار فوق غصونه
اذا امتقت فيه الحدائق راعها
وان كتم الرياح سر اريجيه
وان حدث النهر الحصى بصفائه
تروح برياه التسيم وتغتدي

فان (حديث الحصى عن صفا الماء) و (التقاء الاغصان وافتراقها) قول جميل ناتج عن احيا
التراث الشعري العربي القديم ووضعه بين يدي الشاعر فابتعد قدر المستطاع من الزخرف
ورجع الى النبع الاصيل .

وان يكن شاعرنا قد تخلص من السخف الذي عُرق فيه من سبقه من شعراء تلك البيئة
الا ان خلاصة هذا لم يكن تاما . ففي مدحه للشريف محمد بن عون الذي يستهله بقوله :

(١) الديوان ص : ٤٤

(٢) الديوان ص : ٨٤

ادرطلا الود واترك نصيح من نصحا يا صاح وانتهب اللذات مصطبحا
يأتي بمقدمة " فلكية " عجيبة يذكر الابراج والكواكب والنجوم ثم يخلص الى مدح ابن عيون في
كلام تقليدي واساليب يضرب فيها على القوال القديمة .

فضل الساعاتي انه خرج الى الطبيعة فادخل في الشعر دما جديدا بينما عاش
الشعراء الذين سبقوه في اقفاص الزخرف والبديع اقاموها لانفسهم وزجوا بها فيها .
اما فيما عدا ذلك فالساعاتي يكاد لا يختلف عنهم فرثاؤه كديحه مليه " بالمبالغات
وفزله متكلف فيه تضمين وتشطير وتقليد لا يحتاج الى تدليل كثير . وله في المداعبات والمجون
والملاح والنوادر والتضمين والتشطير والتورية والتعريض وما الى ذلك من فنون القول التي ألفها
شعراء وقته :

الطور الثالث :

حدثت في هذا الطور احداث جلية اهمها ثورة عرابي ، والاحتلال البريطاني .
فقد ساعدت ثورة عرابي على انكاس الروح القومية التي ادت والاحتلال الى نشأة
الاحزاب السياسية والجرائد التي كانت لسان حال هذه الاحزاب .
ولا ننتظر ان يكون اثر تلك الاحداث جليا في الشعراء الذين كانوا قد استوفوا قسما
كبيرا من عمرهم وعاشوا حياة رتيبة تقليدية الفوها نبات من المتعذر عليهم الخروج عليها .
امثال عبد الله فكري وعلي الليثي وعبد الله نديم الذي كان خطيب الثورة العرابية ولكن
لم يظهر اثر الثورة فيما وقع بين ايدينا من شعره ذلك لانه لم يرغب في طبع دواوينه الثلاثة
التي طلبها من صديق له استودعه اياها في يافا لكي يحرقها لانه كان يعتقد بأن الشعر بضاعة
لا تجدر بالجسيم الاديب فهو صناعة يخجل منها لا تصلح للتقي الورع .
وعبد الله فكري ظل يضع التواريخ بحروف الجمل في مطالع القصائد وخواتيمها
كمثل قوله في فتح " سباستبول " وكل مصرع من مطالع القصيدة تاريخ للسنة .
لقد جاء نصر الله وانشر القلب لان بفتح القمر هان لنا الصعب

وقال مؤرخا زواج الامير حسين كامل :

أن لنحو حسين
تصرف عين الحياة .

وكان يكثر من الجناس فقال في مدح " اسكار " ملك السويد حين سافر اليها لحضور مؤتمر
المتشرقين :

وتلا به " اسكار " رب سريره
قولا به لذوي النهى اسكار

وقال في مליح رآه اول الشهر :

وبدر تبدى شاهرا سيف جفته
فروع اهل الحب من ذلك الشهر
وليلة ابصرنا هلال جبينه
علمنا يقينا انها غرة الشهر

وكان هو وزميله علي الليثي الذي نادى اسماعيل وتوفيق يمثلان مدرسة الندمان التي من صفاتها
ان يكون الشاعر سريع الخاطر ظريف المعشر حلو الشمائل يعرف تسجيل الفكاهة والنادرة قادرا على
المداعبة همه الاول ان يكون نديما قبل ان يكون شاعرا فهو نديم اولا وشاعر ثانيا .

وانا مدح فليس في مدحه ما يخني فهو كلام عادي وان يكن قد خلص الى حد من
الغرق في بحر من البديع والجناس وعلى سبيل المثال من قول الليثي في مدح السلطان عبد
العزیز في عيد جلوسه سنة ١٢٩٠ هـ . (١)

دع ذكر كسرى وقصر ان اردت ثنا	عن قيصرو الروم حيث النفع مفقود
واشرح ماثر من سارت بهميرتبه	ركائب المجد تحدها الصناديد
مولى الملوك الذي من يمن دولته	ظل العدالة في الآفاق مدود
عبد العزيز الذي آثاره حمدت	ان الالى جدهم في المجد محمود
اجاد نظم امور الملك في نسق	لا يعتره مدى الازمان تبديد
وشاد فوق العلى اركانه فغدا	له على هامة الجزاء تشييد
فلا تقسه باسلاف له كرممت	والشبل من هولاء الاسد مولود
فخرهم فقد دروهو واسطمة	في جيد آل بني عثمان معبود

(١) شيخو - الآداب العربية في القرن التاسع عشر مج ٢ ص ٩٩

يقول العقاد (١) " فان النديم كثيرا ما يطلب منه ان يبادر الى القول فيما يقع بين يدي مولاة من الطرائف والنوادر وان يثبت ارتجاله باثبات المناسبات كلها واحصاء الاسماء والوقائع التي تنفي الاستعارة والاقتباس، ومن امثلة ذلك ان كبيرا من الكبراء كان يفرغ تفاحة في يده بالمديسة ليشرب فيها فانقصت المديسة في اثنا ذلك، فنظر الكبير الى الشيخ الليثي كأنما يستدعيه الى القول . فاذا هو يرتجل هذين البيتين :

عزت على الندمان حتى انهم تخذوا لها كأسا من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمديسة لان الحديد كرامة للسراج

ولا ريب ان الكبير الذي اقترح القول يطربه ان يرى في حضرته شاعرا عظيما كالشعراء العظام الذين كانوا يزينون حضرة الخلفاء والامراء ، ومقياس العظمة الشعرية عنده ان يرتجل الشاعر القول ولا ينسى فيه شيئا مما يقتضيه المقام :

وينتهي العقاد بقوله : " وان هذا " الطابع " في شعر الندما خاصة وشعر معاصريهم عامة ليدل على حالة النقد والذوق الادبي في زمانهم كما يدل على طريقتهم ودواعي النظم عندهم ، ان لولا ضعف التمييز في ذلك الجيل بين طبقات الشعر ومذاهبه لما احتاج الناظم الى علامات من قبيل تلك العلامات لنفي الاقتباس واثبات الارتجال . "

وهيد الله نديم يحسب ان التجديد في الشعر يكون بتناول المواضيع الحديثة ومن ذلك قوله في وصف قطار بخارى (٢)

نظر الحكيم صفاته فتحيرا شكلا كطور بالبخار مسيرا
دوما يحن الى ديار اصوله بحد يد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكي والدموع ترسده وجدا فيجرى في الفضها تسبرا
تلقاء حال السير افعى تلتوى او فارس الهيجا اثار العثيرا
او سبغ غاب قد احس بصائد في غابه فعدا عليه وزمجرا
او انها شهب هوت من افقها اوقبة المنطاد تبذ بالعرا

فتصور هذا القطار الذي يبكي وتهمر دموعه كيف يكون .

(١) العقاد - شعراء مصر ص ١٠٥ - ١٠٨

(٢) شيخو ص ١٠٠

فالنديم طلب مخطوطات دواوينه ليحرقها وعلي اللبثي لعن من يطبع ديوانه فاذا كان
الباعث على ذلك عدم الرضى فخييرا يفعلان .

ونحن اذا عنينا بشعر هذه الفترة ذلك لاننا نريد ان نورخه وننظر فيه لكونه دخل
في حكم التاريخ ليس الا فاصبح من حقه علينا ان نلتفت اليه ولكنه شعر تبقى منفعتة قائمة من حيث
هو نموذج لشعر الانحطاط ليس غير . فهو على العموم شعر ضعيف مبتذل يريق ما وجهه نسي
المدح دون حساب ويسجل المناسبات بدون فائدة وينحط في كل مواضعه .

ومحمد عثمان جلال مثل آخر على ضعف الشعر وانحطاطه الى درجة يصح فيها
بلغت العامة ففي " العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ " يترجم روايات مولير وامثال لافونتين
بلغت ضعيفة .

ونقف هنا لنسجل ان هؤلاء الشعراء الاربعة فكبرى واللبثي ونديم وجلال وان كانوا
قد جاءوا بعد الساعاتي من حيث الطور والزمان فهم جميعهم دونه من حيث الشاعرية . هذا
ما قصدناه في قولنا ان العصور الادبية متداخله فقد يقصر المتأخر ويمرر المتقدم في الزمن .
وفي هذا العصر نقف عند شاعرة وشاعر وقفة طويلة نتلمس التجديد اولهما عائشة
التيمورية المتوفاة سنة ١٩٠٢ صاحبة ديوان " حلية الطراز " وثانيهما محمود سامي البارودي
المتوفى سنة ١٩٠٤ م .

شعر عائشة سهل ليس فيه كبير صنعة ، فهي لا تسير على سنة الشعراء الذين
مروا معنا فلا تسعى وراء الجناس ولا تأتي بالمخاريق ؛ من احرف موصولة او غير موصولة ، ومنقوطة
الى اخرى ليست بذات نقط ، وتواريخ ، وبيت يرد آخره الى اوله واوله الى آخره ، وما شابه
ذلك من شعوزات والاعيب . على انها قالت في المناسبات كالوفاة والولادة وسلامة الاياب ، وما
يكتب على لوحات الزينة عند مرور الخديوي ، او تهنئة في عيد وما الى ذلك .

ولكن عائشة تجيد احسن ما تجيد في الرثاء والغزل . ومن غزلها هذه المقطوعة الجميلة : (١)

وحذت الركب عن تسكاب آماقي	حي الرفاق وصف للحي اشواقني
اني مقيم على عهد الهوى باقي	ويلغي يا صبا ان جزت نحوهموا
من جذوة ما لها من حرها واقي	كيف اصطباري واحشائي بها حرق

جفني على يد اماقي واحداقي
وفي التنفس من آثـار احترـاقي

... اسال حر الهوى قلبي وابرز
هذا شواظ الهوى في القلب ملتهب

ومن قولها في رثاء ابنتها (١)

سـتـرـين نـعـشـي كـالـعـرـوس يـمـسـير
هو منزلي وله الجموع تصير
جاءت عروسا ساقها التقدير
فترك روح راعها المقدر
يا حسنها لو ساقها التيسير
قد بان يوم البين وهو عيمير
قد كان منه الى الزفاف سرور

اماه قد عز اللقاء وفي غد
وسينتهي المسعى الى اللحد الذي
قولبي لرب اللحد رفقا بابنتي
وتجلدى بازا لحدى برهة
اماه قد سلفت لنا امنية
كانت كاحلام مضت وتخلفت
صوني جهاز العرس تذكارا فلي

ومن قولها فيها تطوى وتشر :

راض وبك شاكر وفقـور

قلبي وجفني واللسان وخالقي

والذي نلاحظه ان عائشة التيمورية في هذا الشعر تعبر عن عواطفها وتصور احساسها فجاء شعرها صادقا سهلا بسيطا غير متكلف .

وعنها يقول العقاد (٢) " اذا استثنينا البارودي اولا والساماتي ثانيا فـشـعـر الـسـيـدة عائشة يعلو الى ارفع طبقة من الشعر ارتفع اليها ادباء مصر في اواسط القرن التاسع عشر الى عهد الثورة العربية "

اما البارودي فهو شيخ الشعراء وفاتحة التجديد . يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمته لديوان البارودي (٣) " شعر البارودي حياته ، فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان في مجموعه صورة للعصر الذي عاش فيه ، وللبيئة التي احاطت به ، وللنهضة المتوثبة في الحياة حوله ، وللثورة التي تمخضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التي اصابته النهضة والثورة كلتيهما والتي نقلت الشاعر من وطنه الى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام ، يستأثر الشعر بها جميعا . "

(١) الديوان ص: ١٧ - ١٩

(٢) العقاد ص: ١٥٠ شعراء مصر

(٣) ديوان البارودي نشره علي الجارم ومحمد شفيق معروف.

ففي شعر البارودي نستطيع ان نرى اثر الثورة واضحا كل الوضوح ، فهو لم يبدأ بدراسة العروض وانما رجع الى نماذج من الشعر العربي في ارق مصوره واختارها وتأثر بها .
وميزته فوق كل ذلك انه اعتمد على ذوقه ودقة ملاحظته ورهافة حسه في تصوير ما يراه بنفسه
فجاء شعره صادق المنبع جليا واضحا ليس محجبا بحجب البديع والجناس ،

واول ما يلفت النظر في شعر البارودي وصفه للطبيعة وآثار مصر وكان في ذلك استاذ
شوقي ورائده ، ووصفه للحرب ، والحنين الى وطنه واهله واصحابه في غربته ومنفاه .

ومن قوله في وصف النيل وهو في المنفى (١)

يلبي ذات النخيل والاعناب	ليت شعري متى ارى روضة الد
فوق نهر مثل اللجين المذاب	حيث تجرى السفين مستبقات
مشرقات يلحن مثل القيساب	قد احاطت بشاطئه قصور
بين افنان جنة وشعاب	ملعب تسرح التواظر منه
عاد منه بنفحة كالمساب	كلما شافه النسيم نراه
وجنى صبوتي ومغنى صحابي	ذاك مرعى انسي وملعب لهوى

وفي هذه القصيدة البليغة التي يتشوق فيها الى مصر ويرثي صديقيه حسين المرصفي وهبند الله
فكرى يندب شبابه ويصف شيخوخته فيقول :

بحت كهلا في محنة واغتراب	كيف لا اندب الشباب ، وقد اص
خلعة منه رثة الجلباب	اخلق الشيب جدتي ، وكساني
ني حتى اطل كالهذاب	ولوى شعر حاجبي على عيه
كخيال ، كاني في ضباب	لا ارى الشئ حين يسبح الا
اسمع الصوت من وراء حجاب	واذا ما دعيت حرت ، كاني
ونيمة لا تقلها اعصابي	كلما رمت نهضة اعدتني
غير اشلاء همة في ثياب	لم تدع صولة الحوادث مني

(١) ديوان البارودي ج ١ ص ٤٨

ففي شعر البارودي نستطيع ان نرى اثر الثورة واضحا كل الوضوح ، فهو لم يبدأ بدراسة العروض وانما رجع الى نماذج من الشعر العربي في ارق عصوره واختارها وتأثر بها . وميزته فوق كل ذلك انه اعتمد على ذوقه ودقته ملاحظته ورهافة حسه في تصوير ما يراه بنفسه فجاء شعره صادق المنبع جليا واضحا ليس محجبا بحجب البديع والجناس .

واول ما يلفت النظر في شعر البارودي وصفه للطبيعة وآثار مصر وكان في ذلك استاذ شوقي ورائده ، ووصفه للحرب ، والحنين الى وطنه واهله واصحابه في غربته ومنفاه .

ومن قوله في وصلئ النيل وهو في المنفى (١)

ليت شعري متى ارى روضة الد	يلي ذات النخيل والاعناب
حيث تجرى السفين مستبقات	فوق نهر مثل اللجين المذاب
قد احاطت بشاطئيه قصور	مشرقات يلحن مثل القباب
ملعب تسرح النواظر منه	بين افنان جنة وشعاب
كلما شافه النسيم تسراه	عاد منه بنفحة كالملا
ذاك مرعى انسي وملعب لهوى	وجنى صبوتي ومنفى صحابي

وفي هذه القصيدة البليغة التي يتشوق فيها الى مصر ويرثي صديقيه حسين المرصفي وهبند الله فكري يندب شبابه ويصف شيخوخته فيقول :

كيف لا اندب الشباب ، وقد اص	بحدت كهلا في محنة واغتراب
اخلق الشيب جدي ، وكساني	خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبي على عيه	ني حتى اطل كالهداب
لا ارى الشبي حين يمنح الا	كخيال ، كانني في ضباب
واذا ما دعيت حرت ، كانسي	اسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة اقعدي تسي	ونية لا تقلها اعصابسي
لم تدع صولة الحوادث منسي	غير اشلاء همة في ثياب

وينتهي فيها ببيت حكيم جميل :

وانتهاه العمران بد الخراب

انما المرء صورة سوف تلبس

والبارودي مقلد في غزله فالمرأة عنده ، كما كانت عند من سبقه من الشعراء - من حد يفتي الحيوان والنبات . فالنرجس ، والسوسن ، والريمان ، والتفاح ، والعناب ، والمهي ، والجآذر ، والرمح والبدر ، والبان ، والورد ، والخصن ، للعين والشعر ، والنهد ، والخذ ، والقند .

ومن ذلك قوله (١)

الى قدميه ، واستدارت نهوده

تأنق فيه الحسن فامتد فرعه

وللورد خداه ، وللظبي جيده

فللمسك رياه ، وللبان قده

وله مصورا حالته النفسية تصويرا جميلا (٢) وهذا التغني بالم الذات هو اول الرومانسية في الادب العربي الحديث .

اما لهذا الليل من آخر ؟

ما اطول الليل على الساهر ا

اقضي بها الحق من الزائر ؟

يا مخلف الوعد ! الا زورة

في لج بحر بالردى زاخر

تركنتي من غمرات الهوى

والمح الشبهة في خاطري

اسمع في قلبي دبيب المنى

(دبيب المنى) و (المح الشبهة في خاطر) من اروع القول في الادب العربي . ولهذا البيت قصة بين حافظ والبارودي تدور على (أحس) و(أسمع) تدل على رهافة حسها وعلو ذوقها .

وجعل العقاد ميزة البارودي (٣) واضحة لا نظير لها في تاريخ الادب المصري

الحديث ، ذلك انه قد وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة الى طريق

الصحة والمتانة ، واوشك ان يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تعهيد .

(١) الديوان ج ١٠ ص ١٦٤

(٢) الديوان ج ٢٠ ص ٩٦

(٣) العقاد ، شعرا مصر ص ١٢١

والبارودي عند مندور (١) "عاد الى منابع الشعر العربي السليم ، فاستطاع ان يخلص الشعر من هذه الآفات القاتلة وان يعيد اليه ديباجته الناصعة . واذا كان قد استمد بعض معانيه او اخيلته او انغمه من القدماء ، فانه بلا ريب قد صاغ بعضا من تجاربه الخاصة وتجارب عصره صياغة شعرية قوية ، لا تقل روعة عن صياغة كبار العباسيين ."

على ان البارودي لم يخلص من شعر المناسبات والمديح والغزل التقليدي والمعارضات . فانه عرف الشراب ومجالسه ، والغواني وفتتهن والطرب بالموسيقى والغناء ، وقال في هذه الاغراض جميعا ولكن هل كان محبا صادقا في غزله ؟ لم يكن كذلك فهو مزور يحسن التزيير ومقلد يحسن التقليد همه ان ينهج نهج القدماء في استهلال القصائد بالغزل والخمر وما شابه ذلك . وكان يتخذ هذه المقدمات للفخر والوصف والسياسة والحرب وغيرها من فنون القول . وكان يعارض فحول الشعراء فيوفق حيناً ويقصر حيناً آخر ومن ذلك معارضته لابي فراس في قصيدته "آراك عصي الدمع شيمتك الصبر" يقول: (٢)

ولا لامرئ في الحب نهبي ولا امر	فكيف يعيب الناس امرئ ، وليس لي
لألوت به البيض المباتر والسمر	ولو كان مما يستطاع دفاعه
من الوجد لا يقوى على حملها صدر	... على انني كاتمت صدرى حرقه
لسلطانه البدو المخيرة والحضر	واني امرؤ - لولا العوائق اذ منعت
لها في حواشي كل داجية فجر	من النفر الغر الذين سيوفهم
تغزوت الافلاك والتفت الدهر	اذا استل منهم سيد غرب سيفه

ومهما يكن من شيء فالبارودي رائد الشعراء المطبوعين ، ذلك لانه كان شاعرا بالفطرة فلم يدرس العروض ويحفظ المعاجم فكان شاعرا عن حق ولم يكن ناظما وحسب ، ذا شخصية بارزة المعالسم وان لم يخلص شعره من التقليد والمحاكاة فهو في تقليده مجدد لانه لفت انظار الشعراء بما اختاره من مختارات - الى ان الشاعر يجب ان يلتفت الى الشعراء القدامى المبرزين الذين قالوا الشعر على سجيتهم فخلا من المحسنات والبديع وجا معبرا عن احساس عميق وحسن مرهف .

(١) مندور ، محمد - الشعر المصري بعد شوقي ص ٤

(٢) الديوان ج ٢٠ ص ٣٧ - ٣٩

وشعره ليس جديدا بالنسبة الى الشعر العباسي ، خلا بعض القصائد التي تناول فيها وصف آثار مصر ، والحرب ، وعواطفه في منفاه . وهو في كل ذلك محافظ على عمود الشعر من وحدة البيت ووحدة الروي والديباجة يسوق القول في نفس المواضيع المعروفة . ولكن اذا قيس هذا الشعر الى شعر شعراء مصر في ذلك العصر بدا جديدا كل الجدة ومن هنا جاء فضله .

فالبارودي زعيم المجددين ، واول الرومانتيكيين ، كان لتجارب حياته اثر في شعره فاستفاد من الحروب بطولمة ودقة وصف ، وحركة ومثانة ، ومن الفني حنيئا ورحوما نسيه ورقية وصدق تعبير ، ولى يده صفت العبارة الشعرية :

وهكذا بيد واثر النهضة في شعر البارودي بارزا واضحا فتورة عرابي - والبارودي احد اركانها - اذكت تلك الحماسة في النفوس وهيلت للوطنيات احسن تهيئة وساعد على ذلك السيد الافغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده والاحزاب السياسية . والجرائد نقلت القصائد الى يد الجمهور وفتحت باب النقد والتعليق : فالشاعر الذي كان ينظم شعره ليلقيه امام مدوحيه وخاصته اصبح مضطرا الى الاعتناء به لانه يخاطب به الجمهور من طريق هذه الجرائد . وسبب ذلك نشط الشعر وبلغ اوجه عند اسماعيل صبرى وشوقي وحافظ ومطران .

حالة الشعر المصري بعد البارودي :

١ - اسماعيل صبرى

٢ - شوقي

٣ - حافظ

لقد كان البارودي الجسر الذي عبر عليه الشعر العربي الحديث من طور التقليد والركاكة الى طور التجديد والاصالة . وكان القدر قد ساقه ليكون رائد صبرى وحافظ وشوقي ، فقد رجع البارودي الى منابع الشعر العربي القديم وعب منها ما استطاع وعبر بالشعر عن عواطفه وحوادث عصره .

وموته انتقلت زعامة الشعر العربي الى اسماعيل صبرى باشا . غير ان صبرى شاعر مقل لانه لم يحترف الشعر ، وانما كان يقوله متى جاشت به قريحته ، تصير النفس اغلب شعره مقطعات بعضها لا يتجاوز البيتين سدا .

والى ذلك يشير حافظ ابراهيم في رثائه له حيث يقول (١)

يقول فيرخص در النحور	ويغلي جعبان بنات الفكر
يسوق القصار فيأبى العثار	وكم من مطيل ممل عشر
قصار وحسب النهى انها	لها معجزات قصار السور

وديوانه صغير الحجم اذا ما قيس بدواوين حافظ وشوقي ومطران .

واول ما يطالعك من شعره في الديوان قصيدة يهني بها الخديوى اسماعيل بعيد الاضحى سنة ١٨٢٠ والشاعر يوم ذاك طالب لم يتجاوز بعد الستة عشر غاما ، وثانية يهنؤه فيها بنفس العيد سنة ١٨٢١ وثالثة في مدحه - ورابعة في قدومه من الآستانة وخامسة بمناسبة عودته من سفر ويختتمها بتاريخ وساوسة يهنؤه بعيد الفطر . وهو كذلك يهني توفيقا ولا ينسى ان يذيل مقطوعاته بتواريخ .

يتكلف الجناس والتورية ويعيد مجد حساب الجمل . وهو في شعره هذا لا يخرج عن كونه مقلدا يروض القول على سنة من سبقه من الشعراء ، دون ان يوفق ودون ان تظهر عبقرية ونبوغه .

غير ان صبرى يمتاز بخفة الروح - ورقة الحس ، وامتيار الطبع ، وحدة المزاج وحسن الذوق . وهو شاعر انيق رقيق مترف .

نشأ نشأة ارسطقراطية وعاش حياة مترفة فعبّر عنها احسن تعبير غير ان هذا لا يعني انه عاش بعيدا عن شؤون الناس فلم يتألم لآلم الشعب ولم يحس لاحساسه . بل هو يتجاوب مع الاحداث السياسية ويعبر عن رغبة الشعب ويدافع عن استقلال وطنه وحرية في قصائده (استهزاء الامة المصرية) (٢) و (حيث الامة المصرية) (٣) وفيها يفاخر بما بناه الفراشه من خالداات المباني :

(٢) الديوان ص: ١٦٦

(١) ابراهيم حافظ الديوان ٢٠٩:٢

(٣) الديوان ص: ١٢٢

جاءت اليها وفود الارض قاطبة
فصغرت كل موجود ضخامتها
تسعى اشتياقا الى ما خلد الفاني
وغض بنيانها من كل بنيان
و (بداء الاقباط) (١) و (رثاء محمد عبده) (٢) و (رثاء مصطفى كامل) (٣).

وصبرى شاعر محكم يختار اللفظ العذب ، السهل الذى يحلو وقعه فسي
السمع ، والمعنى الجيد الرائع . وهو القائل (٤)

شعر الفتى عرضه الثاني فاحربه
فانقد كلامك قبل الناقدين تحسط
الا يشوه بالاقذار والوضر
ثاني النفيسين من لغو ومن هدر

لهذا تراه حريصا على شعره ينتقي لفظه ويختار موسيقاه ويهذب معناه ، جوهرى ماهر خبير بصرف
الكلام .

وهو معجب بالبحترى متأثر به ينسج على منواله في انتقاء اللفظ واحكام الصنعة
واختيار النغم .

ويرى انطون الجميل (٥) ان منظومات صبرى تدور على فكرات ثلاث كانت العلة
الموجدة لها ، وهي : الحسن - او الشعور - الحكمة والحماسة .

تجلت الفكرة الاولى فيما نظمه في الحب ، والثانية فيما نظمه في الموت ، والثالثة
فيما نظمه في الوطن .

الحب ، والموت ، والوطن ، هذه هي العوامل الثلاثة التي كانت تحرك فيه الشعور
الفياض ، وتطقه بالحكمة الرائعة ، وتبهر في صدره الحماسة الشريفة .

غير ان الصفة الغالبة على شعر صبرى والتي يمتاز بها شعره هي الغنائية ، فهو شاعر
غنائي رقيق وهو لحرصه على جودة شعره يدقق في الفاظه ومعانيه .

(١) الديوان ص: ١٨٠

(٢) الديوان ص: ٢٠٧

(٣) الديوان ص: ٢١٣

(٥) الجميل ، انطون ، ديوان صبرى ص: ٢٠

(٤) الديوان ص: ٦٠

ينقص شعره التعمق في الفكر . فالذوق والحس المرهف ، وان كان لهما وزن في تقويم الشعر ، فهما ليسا كل شيء .

الشعر فكر وعمق وتصوير للحياة التي هي بدورها ليست فاترة ولا هي سهلة بسيطة تدرك اسرارها بغير جهد ولا عناء .

وليس التحكك والذوق المترف كل شيء في الشعر .

ويتحدث خليل مطران عن كيفية نظم صبرى للشعر فيقول (١)

" اكثر ما ينظم للخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها او خبر ذى بال يسمعه او كتاب يطالعه . ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاعة نفسه على ما تدعوه اليه فالغالب في امره انه يقول الشعر متمشيا وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين انبة بمثل ما تنطق لفظة " ايه " مستطيلة . ينظم المعنى الذى يعرض له في بيتين عادة الى اربعة الى ستة ولما يزيد على هذا القدر الا حيث يقصد قصيدة وهو نادراً .

" شديد النقد لشعره كثير التعديل والتحويل فيه حتى اذا استقام على ما يريد نوقه من رقة اللفظ وفصاحة الاسلوب اهمله ثم نسيه . وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش في صدره الشعر فيرسل بيتيه اطلاق زوجي الطائر فيذهبان في الفضا ضاربين من اشطرهما باجنحة ملتصقة شادين على توقيع العروض الى ان يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان . ذلك هو الشعر للشعر "

ويرى محمد صبرى (٢) ان اسماعيل ، رحمة الله عليه ، كان في جميع حركاته وسكاته

مثالا عاليا للذوق يتأنق فيها من غير كلفة وتصنع كما يتأنق الربيع في الباس الارض حلة عروس .

ولا ريب ان الذوق من اكبر عوامل النهضة الادبية واللغوية والاجتماعية لا سيما في

طور الانتقال ، وقد كان صبرى ذواقا لا يدانيه في فن الذوق مدان .

(١) مطران - خليل اسماعيل صبرى تأليف محمد صبرى ص ٢٩ - ٣٠

(٢) صبرى ، محمد اسماعيل صبرى ص ٢٤

على ان ذوق صبرى الذى زاد صقلا ورونقا مع طول المران تجلى في شعر كهولته .
وهذا شعر خالد قد ذاع الكير منه على كل لسان ، ومن تأمل فيه رأى دقة الصنع ووصفاً
الطبع وسمو الخيال .*

قلنا ان صبرى يمتاز بشعره الغنائي فهو رومانتيكي يصور احساساته ولواعج قلبه .

ومن شعره الغزلي قصيدته (لوا الحسن) (١) التي فيها يقول :

يا لوا الحسن اجزاب الهوى ايقظوا الفتنة في ظل اللوا

ثم يطلب منها ان تعدل بين المحبين المتيمين فالحسن يجب ان يكون للجميع :

اقبلي نستقبل الدنيا وما ضمنته من معدات الهنا

واسفري - تلك حلى ما خلقت لتواري بلثام او خبا

واخطرى بين الندامى يحفلوا ان روضا راح في النادى وجا

وانظقي ينثر اذا حدثتسا ناثرا البدر علينا ما نشا

وابسمي ، من كان هذا ثغره يملا الدنيا ابتساما وازدها

... انت روحانية ، لا تدعى ان هذا الحسن من طين وما

فيقفز هذه القفزة الزائفة في هذا البيت الروحاني الذى تفوح منه رائحة الجنة والملائكة .

وتبدو في هذا البيت نظرة صبرى الى المرأة والحب فهو روحاني مترفع عن شهوة

الجسد يعشق الحسن لذاته .:

هذا ما يبده لأول وهلة . غير ان الفاحص المدقق يجد ان في هذه الابيات " ذوقا "

وكياسة ولكنها خالية من حرارة الحب الصادق ولوعة الغرام وحرقتة .

يكتفي بتشبيه فتاته بالملاك فهي ليست من تراب وانما هي من روح قدس .

وقد نشرت هذه القصيدة لأول مرة في المجلة المصرية في يونيه سنة ١٩٠١ وهذا

ما قاله خليل مطران بهذه المناسبة : " كانت الغزليات قبل الآن فيها ما يمس الآداب العمومية

من ذكر القدود والنهود والغم والعناق ورقة الخصر وكثافة الردف ولقد كان هذا من العام

حتى قصائد المديح للملوك والأمراء وهو ما لا ترضاه الأذواق في هذه الأيام وينكره علينا
أدباء الغرب. وقد سئل صاحب السعادة اسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل إلى اللغة
الفرنساوية وتجعل في كتاب مؤلف الآن في مختار الشعر العربي قديمه وحديثه فجادت
قريحته الوقادة بهذه الأبيات التي جلت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ونزاهة
الشيمة وغرابة الوضع ولعلها أحسن ما جمع فيه بين الأسلوبين العربي والغربي في نظم
الشعر.

فغزل صبرى هذا يخلو من الرمان والعناب والتفاح وفصن البان ويخرج بالمرأة من
حد يفتي النبات والحيوان .

وله أيضا في مخاطبة حبيبته جامعلا أياها ريحانة قلبه (١) :

متيما انت في الحالين دنياه
لطفًا يعم رعايا اللطف رياه
من الرياحين حيانا بها الله
هذا جمالك يغنيننا محياه .

يا راحة القلب - يا شغل الفؤاد صلي
زيني الندي وسيلي في جوانبــــــــــــه
ريحانة انت في صحراء مجد بــــــــــــة
ان قاب ساتي الطلا او صد لا حرج

ويقول في (نزىل الفؤاد) (٢) :

وغدا يسلط مقلتيه عليه
افضت باسرار الضمير اليه
يا من يخرب بيته بيديه

لما تبوا من فؤادى منزلا
ناديته مسترحما من زفرة
رفقا بمنزلك الذى تحتله

فانت ترى انه ليس في هذه الأبيات لوعة او عاطفة جياشة فكل ما هناك براعة في القول .

وتبد ورومانتيكية صبرى في قوله مخاطبا فؤاده (٣)

ولا بشافية في رد ما كانا
حمل الصباة فاخفق وحدك الآنا

اقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا
فان (فاخفق وحدك الآنا) في منتهى الروعة .

(٢) الديوان - ص: ١١٩

(١) الديوان - ص: ١١٣

(٣) الديوان - ص: ١١٦

حتى قصائد المديح للملوك والأمراء وهو ما لا ترضاه الاذواق في هذه الايام وينكره علينا ادباء الغرب . وقد سئل صاحب السعادة اسماعيل باشا صبرى نظم ابيات تنقل الى اللغة الفرنسية وتجعل في كتاب مؤلف الآن في مختار الشعر العربي قديمه وحديته فجات قريحته الوقادة بهذه الابيات التي جلت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ونزاهة الشيمة وغرابية الوضع ولعلها احسن ما جمع فيه بين الاسلوبين العربي والغربي في نظم الشعر .

فغزل صبرى هذا يخلو من ألرمان والعناب والتفاح وغصن البان ويخرج بالمرأة من حد يفتي النبات والحيسوان .

وله ايضا في مخاطبة حبيبته جامعلا اياها ريحانة قلبه (١) :

يا راحة القلب - يا شغل الفؤاد صلي	متيما انت في الحالين دنياه
زيني الندي وسيلي في جوانبـه	لطفنا يعم رعايا اللطف رساه
ريحانة انت في صحراء مجد بـه	من الرياحين حيانا بهما الله
ان غاب ساقى الطلا او صد لا حـ	هذا جمالك يغنيننا محياه .

ويقول في (نزيل الفؤاد) (٢) :

لما تبوأ من فؤادى منزلا	وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحما من زفرة	افضت باسرار الضمير اليه
رفقا بمنزلك الذى تحتله	يا من يخرب بيته بيديه

فانت ترى انه ليس في هذه الابيات لوعة او عاطفة جياشة فكل ما هناك براعة في القول .

وتبدو رومانتيكية صبرى في قوله مخاطبا فؤاده (٣)

اقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة	ولا بشافية في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا	حمل الصباة فاخفق وحدك الآنا

فان (فاخفق وحدك الآنا) في منتهى الروعة .

(٢) الديوان - ص: ١١٩

(١) الديوان - ص: ١١٣

(٣) الديوان - ص: ١١٦

وقوله ايضا في (ساعة الوداع) (١) مخاطبا قلبه :

اترى انت خاذلي ساعة الترو
ويك قل لي متى اراك بجانبني
لست بعض الحداة بل انت بعضي
ساعة البين ، قطعة انت قد ت
لا تحيني ، روعي الفداء لما حي
ديع يا قلب في غد ام نضيري ؟
راضيا عن مكانك المهجور
قف قليلا فلست بالمأجور
للمحبين من عذاب السعير
ك غدا من صحيفة المقدور

ولهى هذا يعلق محمد صبرى فيقول : (٢)

" تلك نغمات تشف عن نفس محزونة تحن الى منازل الكمال في ذلك العالم العلوى
كما يحن غريب الدار الى الاوطان . وهذا الحزن هو اكبر مميزات الشعر الغنائي الذى
هو شعر العاطفة والوجدان ."

ويصل ياس الشاعر الى ان يتمنى الموت فيقول : (٣)

يا موت هانذا فخذ
بيني وبينك خطوة
ما ابقت الايام مني
ان تخطها فرجت عني

ومن شعره الحكيم التأملى (راحة القبر) (٤) حيث يقول :

ان سئمت الحياة فارجع الى الار
تلك ام احنى عليك من الامم
لا تخف فالعمات ليس بمباح
كل ميت باق وان خالف العذ
وحياة المرء اغتراب فان ما
ضتم آنا من الاوصاب
م التي خلفتك للاتعاب
منك الا ما تشتكي من عذاب
وان ما نصر في غضون الكتاب
ت فقد عاد سالما للتراب

يرى العقاد (٥) " ان اسماعيل صبرى شاعر صادق الشعر ناقد بصير بالنقد ، الا انه لا يتعدى
في شعره ونقده نطاقا يرسمه له مزيج من ذوقه القاهرى وذوق المدرسة " اللامرتينية " في احسن

(١) الديوان - ص ١١٢

(٢) صبرى ، محمد اسماعيل صبرى ص ٤٣

(٣) الديوان ص ١٩١

(٤) الديوان ص ١٩٠

(٥) شعراء مصر ص ٣٤

ما كانت عليه من شعور وتمييز .^(١)

^(٢) شعره لطيف لا تعمل فيه ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة . فبقصد بصير عارف بالزيف كله ولكنه غير بصير ولا عارف بالصحة كلها . واثره في تهذيب الازواق ونفى ما كان فاشيا من زيف التشبيه وفساد الخيال اثر واضح لا ريب فيه ، ولكنه بعد هذا اثر محدود بذلك النطاق المرسوم :

"وان شئت قل ان ادب الرجل كان ادب " الذوق " ولم يكن ادب النزعات والخواجج ، وادب السكون ولم يكن ادب الحركة والنهوض ، وادب الاصطلاح الحسن ولم يكن ادب الابتكار المستكشف الجسور :

وهذا قول فيه كبير من الصحة ولكي آخذ على العقاد قوله ان اسماعيل صبرى يعبر عن ذوقي قاهرى " فهذا الرأي لا يقف على رجليه لان الذوق القاهرى يمتاز اكثر ما يمتاز ، ببراعة النكتة وحلاوتها وهذا غير موجود في شعر صبرى . ونحن يجب ان لا ننكر على اسماعيل صبرى انه كان من اوائل الشعراء الذين ادخلوا نسمة الرومانتيكية الى الشعر العربي وذلك يعود الى مزاجه واطلاعه على ادب الفرنجة وخاصة لا مرتين . وحسبه ان شعره ظروف حلاوة .

" وفي رأى احمد امين (١)

" ان اسماعيل صبرى باشا كان اشعر من حافظ في ناحية خاصة وهي مقطوعاته الصغيرة التي يعبر بها عن معاني دقيقة ، وعن شعور نفسي عميق - ولم يكن يحترف الشعر كما احترفه شوقي وحاول ان يحترفه حافظ - وكان منصبه الحكومى يسمو به عن ذلك . " فاذا صح ان نشبه شوقي بالارغن لتعدد مناحي شعره وسنفونية نغمه وهو نفسه يقول :

(كأرغن) الذير اكنارى وموقعه وكالأذان على الاسماع اقلالى (٢)

او صح ان نشبه شعر حافظ بالكمان لشجى انغامه صح لنا ان نشبه شعر صبرى

لنعومة شعره ورقة همسه .

(١) امين ، احمد مقدمة ديوان حافظ ص ٢٦ .

(٢) " الشوقيات " (٣ : ١٢٦)

وحسب صبرى انه خرج بالذوق الشعرى فبلغ النهاية وكان استاذ حافظ وشوقي ومطران
فاعترفوا بمشيخته عليهم .

ويبلغ الشعر العربى / أرفع مراتبه عند احمد شوقي فهو شاعر موهوب اعطته ربة الشعر
ما لم تعط سواء فكان شاعر العصر . غير ان الذين ينقصون من قدر الشاعر ياخذون عليه انه
كان شاعر البلاط ولم يكن شاعر الشعب وشي " آخر ناتج عن كونه شاعرا " رسميا " هو كثرة شعر
المناسبات عنده في السلاطين والملوك والامراء والاشراف وغيرهم من ذوى المكانة مما جعل شعره
ينحط ويسف .

وما اختلف النقاد في شاعر معاصر كما اختلفوا في شوقي ، وهذا شأن الرجل
العظيم . ففتن بشعره فريق ومدحوه ووزروه ارفع مرتبة ، وهجنه فريق وانكروا عليه كل فضل
له في الشعر .

وواجبنا نحن ان نقف بين هؤلاء وهؤلاء ونبين مميزات شوقي ومنزلته الفنية .
لقد نشأ شوقي في بلاط اسماعيل وعاش مقربا اليه فلم يخرج على ان يكون شاعرا
" رسميا " فادى ذلك الى ان كرهه فريق من الناس وحسدوه ، وسعوا الى تحطيمه .

منزلة شوقي بين القديم والجديد :

كل من ينتعرض ^{ديوان} لأمير الشعراء يحس الصلة بينه وبين البارودى ، وبين الشعراء
العباسيين امثال المتبى وابن الرومي والبحترى وابي نواس وابي فراس وابن زيدون والبيها زهير ،
وذلك واضح في القوائد التي يحارض فيها اكثر هؤلاء الشعراء . فهو في سينيته التي يصف
فيها الحمراء بفرناطة^(١) متأثر بسينية البحترى وهو يحترف بذلك حيث يقول : " فكنت كلما وقفت
بحجره او طغت باثره . تمثلت بابياتها (السينية) واسترحت من موائل العبراني آياتها وانشدت
فيما بيني وبين نفسي :

وشفتني القصور من عبد شمس "

وعظ البحترى ايوان كسرى

ومطلعها :

اذكرا لي الصبا وايام انسي

اختلاف النهار والليل ينسي

والبحترى يسير وشوقي في اكثر من قصيدة فهو متأثر بموسيقاه الى حد بعيد .

وهو يعارض ابن زيدون ايضا في نونيته التي مطلعها : (١)

تشجى لواديك ام نأسى لوادينا

يا نائح الطلع اشباه عوادينا

ويعارض ابو صيرى في همزته وبردته .

وقد وقف كثير من النقاد والادباء عند شعر شوقي وحاولوا ان يردوا سرقاته الى اصحابها ، منهم من دافع عنه ورأى انه في معارضته وسطوه على المعاني متفوق على صاحب المعنى الاول - ومنهم من يرى ان السابق في الزمن هو السابق في الشعر . (٢)

ولن اقف وقفة طويلة عند هذه القضية فلا شك في ان شوقي قد تأثر بفحول الشعراء الذين سبقوه وهاصروه . ولكنه ما كان يقف وقفة السارق المعدم بل كان يضيف من عنده على هذا الشعر ويقول شعرا يعادله وقد يفوقه :

وشيء ثان هو ان الشعراء يأخذ متأخروهم ويستفيدون عن سابقهم ابدا . وهذا لا

عيب فيه ولا ضمير :

وهناك من يرى عكس ذلك امثال خليل مطران الذي يدافع عن شوقي (٣) الذي يكلف احيانا بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه ان يبذلهم ، لا يجهد فكره ، ولا يكده في معنى او مبنى . فاما المعنى فيجيبه على مرامه او على ابعد من مرامه - ولا ينضب عنده ، لانه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة الى افاتين الاداب في لغات الافرنج والعرب فلسفة حقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، الى مشاركات علمية ، وتببيهات فنية ، استقاها من مطالعاته صنوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب . واما المبنى فله فيه اذواق متعددة لتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحترى ومن صياغة ابي تمام ، ومن وثبات المتبني ، ومن مفاجآت الشريف الرضي ، ومن مسلسلات مهيار . وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهي انه من نظم شوقي ، ذلك شعر العبقرية والتفوق .

(١) الديوان ج ٢٠ ص ١٠٣

(٢) الاسكندري ، احمد - ذكرى الشعراء ص ٣١٨

(٣) مطران ، خليل - ذكرى الشعراء ص ٤٣٥

ومن الذين ارادوا ان يبينوا تفوق شوقي في المعاني : مصطفى صادق الرافعي (١)
فاخذ يقابل بين الإبيات التي تأثرها شوقي وابياته وينتهي الى ان معنى شوقي اجمل
واروع:

ومن ذلك قول شوقي :

في الوهم حسنا ما استطعت فريدا

حوت الجمال فلو ذهبت تزيدها

وهو مأخوذ عن :

اليها لما اصابت فريدا

ذات حسن لو استزادت من الحسن

وقد ابداع شوقي في قوله (في الوهم) التي لولاها لما كان قفز هذه القفزة الرائعة .

فتقليد امير الشعراء لا يعني انصح مقعد بل هو اقدر ما يكون على خلق المعاني
والاخيلة الجديدة .

وشوقي لم يكتف في ان يعيش على مائدة سواء ويكون نسخة عنه بل هو يحافظ

على شخصيته وطابعه . وهو على كل حال يجرى على عمود الشعر العربي .

ونسطتيع ان نتلمس تأثره بشاعرين كبيرين هما البحترى في سلاسته وموسيقاه والمتبى

في حكمه وصياغته وتصريفه الكلام في مديحه .

وبعد فقد حافظ شوقي على قيامة الشعر العربي وعموده . وكان يتنازع بجانب تيار

التقليد هذا تيار تجديد آخر . فقد تلقح بالادب الافرنسي ودرس الحقوق وعاش في فرنسا واسبانيا

وطوف في اوربيا ، وهو يقول في مقدمته للشرقيات انه تأثر بشعر الغرب واراد ان يتأثره ولكنه

اول ما فتح عينيه على الشعر وجد القوم لا يعرفون منه الا ما كان مدحا في مقام عال ، ولا يرون

غير شاعر الخديوى صاحب المقام الاسمى في البلاد ، فما زال يتعنى هذه المنزلة . وفي مقدمته

هذه يلوم شعراء المديح ويهاجم المتبى ولكن لم يكن هذا سوى قول غير متأصل في نفسه

ذلك لانه مضى في النسخ على منوال هولاء .

وغضب شوقي يوم لم تنشر له قصيدة في مدح الخديوى في الجريدة الرسمية ، كما جرت

(١) الرافعي ، مصطفى صادق ذكرى الشاعرين ص ٤٨٣

العادة ، ذلك لانه كان يقدم لها بمقدمة في الغزل يستهلها بقوله :

خدعوها بقولهم حسنا^١ والغواني يغرهن الثناء (١)

فاذا كان شوقي يحسب ان التجديد يكون في المقدمات الغزلية بقصائد المدح فقد ضل . وبعد هل التجديد في نقل قصيدة البحيرة للامرتين الى العربية !؟ ام هو في نقل قصص لافونتين اليها !؟

لم يعرف شوقي كيف يستفيد من شعراء الغرب لان طابع الشعر العربي ظل مسيطرا عليه .

وقد يبدو تأثره في قصيدته " كبار الحوادث في وادي النيل " (٢) التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في " جنيف " في سبتمبر عام ١٨٩٤ وكان مندوبا للحكومة المصرية فيه ، فقد تأثر بدويان فيكتور هيغو (Victor Hugo) المسمى " اسطير القرون " " La Legende des Siecles " واثرت ذلك ظاهر في شعره الفرعوني :

ويوم كان شوقي في باريس كان شعراء الرمزية في اوج مجدهم فلم يتأثر بهم مطلقا بل انه لم يتأثر بالمدرسة الرومانتيكية وظل شاعرا كلاسيكيا مجددا .

على ان تجديد شوقي لم يتعد الشعر التمثيلي الذي كتبه في اخريات ايامه وشيئا من الشعر القصيص والشعر الفرعوني الذي غنى به امجاد مصر الغابرة .

وقد قدر الله لشوقي في شبابه ان يعيش في البلاط بعيدا عن الشعب همه ان يرضى سيدا وولي نعمته ، فيمدحه في ذهابه وايابه ويهنؤه في اعياده وحجه ويذكر آله ويرثي من يموت منهم .

ولكن ما يلبث شوقي ان يرجع من منغاه ، فيرى الشعب يكافح في سبيل حريته ، حتى تجاوزت نفسه مع هذه الحرية فكان الشاعر الذي قدر له ان يعيش في القفص المذهب في شبابه عادت له حريته في شيخوخته - على العكس من حافظ - فالتفت الى الشعب وبنى بآماله واحلامه .

(١) الديوان ١١١ :٢

(٢) الديوان ١٧٤١

يسرى الدكتور شوقي ضيف^(١) ان شوقي قد غنى للشعب المصري عواطفه الوطنية
الماضية والحاضرة غناء ملك - ولا يزال يملك - عليه لينة .

وقد دعا شوقي الى الاخوة العربية ، وخاصة بعد الحرب الكبرى حين ضعفت
حماسته للاتراك - وكان قبل ذلك يدافع عن الاسلام ويدعو الى الخلافة ويكثر من مدح الاتراك
وذلك يعود الى الدم التركي الذي يجرى في عروقه والى ولاء سيده لهم - وهو لا يترك مناسبة
الا ويكرس عرويته هذه ومن ذلك قصائده في الشام ولبنان وسائر بلاد العرب .

واخذ على شوقي انه اكثر من شعر المناسبات من مدح للخديوى في اعياده وفي ذهابه
وايابه وفي رثائه للاعيان والنظم في المخترعات الجديدة واعمال البر والمنشآت القومية .
غير ان الدكتور شوقي ضيف^(٢) يرى " ان شوقي في شعره هذا يختلف عن الشعراء
القدماى في مدحهم . فهؤلاء لم يفكروا بغير الخلفاء او الامراء الذين كانوا يمدحونهم
بينما شوقي يفكر ليس في مدح وحده وحسب بل وفي جمهور الناس الذى سوف يقرأ قصائده
هذه :

فهؤلاء يصنع القصيدة لعباس وحده ، وانما يصنعها له وللشعب فهؤلاء يمدحون في عيد
من اعياده الا اختار ملازمة شعبية ، او وقف يشيد باعماله للشعب واصلاحاته . وشوقي في
رثائه يحاول ان يفكر في الحياة والموت والفلسفة التي وراءه ويخرج القصيدة من حيز الرثاء
الشخصي الى حيز انساني عام . كما في رثاء جدته ، ورثاء امين الرافعي ، ومصطفى كامل وهو
في كل ذلك تلميذ المتبني .

ورثى شوقي الابطال المصريين والعرب وصور آلام شعبهم وآمالهم . ورثى الرجال العظام
من ادباء وشعراء وصحفيين ووجهاء وذوى نفوذ وسلطات ولم يكتف بذلك بل ذهب يرثى شخصيات
عالمية فرثى فردي الموسيقى المشهور وتولستوى الاديب الروسي الشهير ونابليون البطل
الافرنسي وتحدث عن بطولاته وامجاده ورثى فكتور هيجو في ذكره المثوية . والذى يتصفح

(١) ضيف ، الدكتور شوقي - شوقي - شاعر العصر الحديث ص ١٥٤

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٢ - ١٦٣

الشوقيات يجد ان شوقي لم يترك مناسبة الا تعرض لها سواء اتصلت بالشرق ام بالغرب .
فله شعر في ملك انكلترا وذكرى كارثارفون والاحتفال بمن ينزل مصر من الادباء او المجاهدين
العرب او سواهم .

وهكذا ارتفع شوقي بشعر المناسبات الى الذروة بحيث لم يترك زيادة . المستزيد .

على ان شوقي يمتاز بشعره الغنائي فكان شعره يشبه " السفونيه " فقد كان رحمه الله
شاعرا طافحا بالموسيقى حتى انه لو لم يكن شاعرا لكان موسيقيا .

حدثني امين نخله ان شوقي كان اذا أخذ في النظم اتته المعاني في اشكال مختلفة

فيه مس بها وينغمها بينه وبين نفسه وينتقي - وهو صاحب ذوق فذ - آنسها واحلاها نغمسا .
ولهذا السبب كثر الغناء في شعره فغنت روائعه ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب وسواهما من مشاهير
المغنيين . ولا شك في ان غنائية شوقي قد ساعدت شعره على الانتشار وهيات له هذه المكانة
الرفيعة التي خلده على الدهر . فمئذ نصف قرن ونيف وشوقي الشاعر العربي الفرد الذي
يستأثر بالباب العرب فقد غنى الاسلام ومجد مصر والعرب وجمال لبنان بشعر لم يجاره به احد .
وقد جمع شوقي الى رهافة ذوقه اطلاعا واسعا على مفردات اللغة هيا له الابداع
في شعره الغنائي والتفنن في صياغته :

ويجمع شوقي الى ذلك سعة الخيال فهو مصور بارع ويظهر ذلك في شعره الفرعوني ووصفه
لآثار مصر ومجالي الطبيعة بين لبنان وسورية . كما في قصيدة انس الوجود ، (١) حيث تظهر
براعته في تركيب الصور ونقل الصورة الحسية :

كالشرا تريد ان تنقضا
مسكا يفضها من الذعر بعضا
ساحات به وابد بين بضيا
نع منه اليد ين بالاس نفضا
لو اصاب من قدرة الله نبضا

ايها المنجمي باسوان دارا
قف بتلك القصور في اليم غرقى
كعدارى اخفين في الماء بضيا
رب نقش كانما نفض الصا
وضحايا تكاد تمشي وترعى

والى جانب الموسيقى والخيال سارت العاطفة في شعره غير انها قصرت عن اللحاق بهما ذلك لان شوقي لم يكن شاعرا ذاتيا فانك تكاد لا ترى أثرا لنفسه في شعره ومن هنا كانت عاطفته فاترة . ولذلك هاجمه العقاد (١) في مستهل حديثه عنه قال " في احمد شوقي ارتفع شعر الصنعة الى ذروته العليا ، وهبط شعر " الشخصية " الى حيث لا تتبين لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمة التي يتميز بها انسان بين سائر الناس .

وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله . فمنه ما هو زيف فارغ لا يمت الى الطبيعة بواشجة ولا صلة ، وليس فيه الا لفظ ملفق وتقليد براء من الحسن والذوق والبراعة . ومنه ما هو قريب الى الطبيعة ولكنه منقول من القسط الشائع بين الناس ، فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ، لانه اشبه شيء بالوجوه المبتذلة التي فيها كل ما في وجوه الناس . وليس فيها وجه انسان .

ومن هذه الصنعة كانت صنعة شوقي في جميع شعره ، فلو قرأته كله وحاولت ان تستخرج من ثناياه انسانا اسمه " شوقي " يخالف الاناسي الآخرين من ابنا طبقة وجيله لاعيان العثور عليه . ولكنك قد تجد هنالك خلقا تسميهم ما شئت من الاسماء وشوقي اسم واحد من سائر هذه الاسماء .

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا شعر النفس الخاصة " ان اردنا ان نضيق معنى الامتياز . وليس هو من اجل ذلك بالشعر الذي هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة . وانما ذاك ضرب من المصنوعات فلا او رخص على هذا التسميم .

لا شك في ان شوقي شاعر " غيري " كما ان لا شك في ان العقاد يسرف في ثننته على شوقي وتهجمه عليه . فاذا صح ان ضعفت العاطفة عند شوقي ، وهي ضعيفة ، لاسباب عديدة منها ان شوقي لم يعرف الحب ، وانه كان شاعرا رسميا مقيدا نشأ نشأة الشاعر الذي يعبر عن شعور غيره ويقول الشعر لارضاء سواء لم يعرف الألم والحرمان بل كان له ما يريد

(١) العقاد - شعراء مصر ص: ١٥٦

فهذا غير كاف لتجريد هـ من طابع الشاعريه وجعل شعره لا يمتاز بميزة خاصة . فقد استطاع شوقي بموهبته الفذة وموسيقيته وصيافته ان يخلد بشعره ويطبعه بطابع خاص .

وذلك واضح في قصائد منها (الهزيمة النبوية) (١) و (ذكرى المولد النبوي) (٢) و (هج البردة) (٣) و (شهيد الحق) (٤) و (انس الوجود) (٥) و (ايها النيل) (٦) و (نكبة دمشق) (٧) و (اندلسية) (٨) و (زحلة) (٩) وسواها .

ولا يصح ان نجرد شوقي من كل عاطفة كما فعل العقاد لان عاطفته تبدو لنا في بعض قصائد الرثاء التي يتناول بها اهله والخلص من اصدقائه كما تبدو في شعره الذي نظمه في اولاده وخاصة ابنته امينة .

ويجعل الدكتور شوقي ضيف (١٠) "اروع عواطف شوقي عاطفته الوطنية ومنها صدر في فرعونياته ، او قل في ملاحمه المصرية ."

وقد اشتهر شوقي بالبديهة الفياضة في صناعة الشعر ونظمه ، فقد كانت له موهبة قلما تنهيا لشاعر جعلته يحسن النظم حتى ولو كان في جمع من الناس ومسمع من صخبهم . والى ذلك يشير خليل مطران حيث يقول (١١) " ينظم الشعريين اصحابه فيكون معهم وليس معهم وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي حين يشاء وحيث يشاء ."

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرا ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة .

(١) الديوان ج ١٠ ص ٣٦	(٦) الديوان ج ٢ ص ٦٣
(٢) الديوان ج ١ ص ٧٠	(٧) الديوان ج ٢ ص ٧٣
(٣) الديوان ج ١ ص ٢٣١	(٨) الديوان ج ٢ ص ١٠٣
(٤) الديوان ج ١ ص ٢٦٢	(٩) الديوان ج ٢ ص ١٧٧
(٥) الديوان ج ٢ ص ٥٣	(١٠) ضيف ، الدكتور شوقي شوقي شاعر العصر الحديث ص ٣٠٢
	(١١) مطران ، خليل مشاهير شعراء العصر لاحد عبيد ص ٦٦

ومهما يكن من الامر فان فضل شوقي يعود الى شعره التمثيلي في مسرحياته التي تقسم الى نوعين : مآسٍ مصرية هي : (مصرع كليوباترا) (قمبيز) و (علي بك الكبير) : ومآسٍ عربية هي : (مجنون ليلى) و (حفرة) و (اميرة الاندلس) . فهو الذى ادخل هذا الفن على الشعر العربي ذلك لان الادب والشعر التمثيليين جديداً على الادب العربي لا تمتد جذورهما الى ابعد من قرن . فالعرب لم يعرفوا المسرح ولا الادب التمثيلي في اى عصر من عصورهم القديمة في المشرق او المغرب ، وذلك لان الشعر العربي خطابي يعتمد على الوصف الحسي الدقيق بعيد عن الخيال الذى يعتمد عليه الادب التمثيلي .

ولم ينقل العرب ادب اليونان التمثيلي لان الفلسفة الدينية عند اليونان تتعارض مع الفلسفة الدينية في الاسلام . وانما اخذ العرب هذا الفن عن الغربيين في القرن الماضي . (١)

ونظرة اخيرة نرى ان شوقي قد شغل النقاد ولا يزال يشغلهم . انقسموا الى فريقين : فريق متعصب ضده مغرض يريد ان يهدمه يدفعه البغض والحسد . ومن هؤلاء العقاد الذى يهاجمه في (الديوان) وفي (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) وفي كل ما كتب عنه . وجماعة مدرسة " الديوان " وهؤلاء مخطئون لانهم يطبقون مقاييس النقد الغربية على شعر عربي .

ومنهم الدكتور طه حسين في كتابه (حافظ وشوقي) ولكنه يبدوا اكثر اعتدالا من العقاد واخف وطأة منه على الشاعر :

وفريق آخر من الصحفيين والادباء الناشئين الذين غداهم شوقي في حياته لكي يردوا عنه هجمات هؤلاء فاخذوا في تأليهه والدفاع عنه . ولكن شوقي استطاع لما كان له من نفوذ وبفضل موهبته الشعرية ان يؤمر نفسه على الشعراء .

ولا شك في ان حافظا قد استفاد من خصومة اولئك لشوقي فجعلوه شاعر الشعب واتهموا شوقي بانه شاعر البلاط :

ويقف بين اولئك وهؤلاء فريق آخر يمثل الدكتور شوقي ضيف في كتابه (شوقي شاعر العصر

الحديث) ينصف الشاعر ويضعه في مكانته التي يستحقها محاولا ان يكون مجرد اقدر المستطاع . جاءلا اياه (١) :

* اعلى شاعر في تاريخ ادبنا الحديث لتعداد نواحيه الفنية وتشعب آثاره الادبيه فقد ملا عصره بقصائد الخنائية ، ووصلها بمسرحياته التمثيلية . وكان حين ينشر قصيدة تصبح حديث الصحف والندوات الادبية ، وكذلك كان حين ينشي " مسرحية او تمثيلية " .

ومهما يكن من امر فان شوقي قد يسف في بعض شعر المناسبات ، وتفتر عاطفته ويلام لسنخ نفسه في قص البلاط . وفي رأى حافظ (٢) * انه لظريف الوزن ، لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه اسير بنانه كأنما يتناول الشعر من كفه لسهولة متاوله عليه ، الا انه وكثار وقل ان يسلم المكثار من العثار ، فشعره كما قال الاصمعي في شعر ابي العتاهية : كساحة الملوك يقع فيها الخزف والذهب

غير انه لا يستطيع احد ان ينكر مقدرته على النظم وموهبته وذوقه وغنائيته فكان بحق الشاعر الذي جدد مجد الشعر العربي الكلاسيكي واعاد له رونقه ، وادخل عليه الشعر التمثيلي فكانت بداية خير .

اما الذين يهاجمون شوقي لعدم تجديده ونظمه الشعر الرومانتيكي والشعر الرمزي فلهؤلاء اقول : * لا يكلفني الله نفسا الا وسعها * (٣)

(١) ضيف ، الدكتور شوقي شوقي شاعر العصر الحديث - المقدمة

(٢) عبید ، احمد شاهير شعرا العصر ص : ٦٥

(٣) القرآن الكريم سورة البقرة الآية ٢٨٦

حافظ ابراهيم

يختلف حافظ عن شوقي من حيث النشأة والبيئة اختلافا كبيرا فهو لم يولد في باب اسماعيل كما يقول شوقي عن نفسه ولم يكن له من الحسب والنسب ما يجعله يفاخر به فقد مات والده وهو صغير فكفله خاله ولم يكن يحسن معاملته وقد تربى في الاحياء الشعبية وخالظ اولاد الشعب فنشأ شعبيا مقربا للناس باثسا متألما لا يطبق شيئا حتى يمله . شوقي شاعر يعيش في نعيم وحافظ ليس عنده ما يكفيه مؤونة عيشه فينخرط في الجندية في السودان ، ويقضي فيه اياما من شبابه .

ويختلف حافظ عن شوقي ايضا في كونه قد عاش في شبابه طليقا غير مقيد فاحسن مع الشعب ودافع عنه بينما كان شوقي امير البلاط همه ان يرضي سيده غير آبه لما يرضي الشعب ليعيش القسم الاخير من حياته مقيدا بالوظيفة في دار الكتب بينما تغلت شوقي من قيوده بعد عودته من منفاه واخذ يلتفت الى الشعب ويعبر عن آماله وامانيه :

يرى الاستاذ احمد الطاهر : (١) ان حافظا يمتاز عن البارودي وعن صبرى وعن احمد شوقي بانه وفق الى صدق التصوير للحياة الشعبية ، وهاش في غمار العامة ، فارتسمت صورها في نفسه ورسم هذه الصور في شعره اصدق ما يكون الرسم والتصوير ، وهو بذلك من الشعراء المتجددين . وحافظ شاعر قومي يعبر عن تفكير الامة فيما يهمها من احداث حياتها ، وفي الوقت نفسه هو شاعر ذاتي يشكو ويرثي ويهني* ويمدح ويعبر عن خلجات نفسه . ولم يكن في الجيل الذي عاش فيه من استطاع ان يجمع في شعره بين القومية والذاتية* .

والذى يدهش في امر حافظ ؛ الذى عاش عيشة البؤس والحرمان ، انه كان يملا مجالسه سحرا وسرورا ، حلوا النادرة سريع الخاطر حتى كانت مجالسه تعد من امتع المجالس وما يروى عن ظرفه وحبه للنكتة وحسن معاشرته شائع وكثير فقد كان سيد الظرف المصرى دون منازع . فالذى كان يشاهد الابتسامه لا تفارق شفثيه والبشر يطفح به وجهه كان يعجب كيف ان هذا الرجل كان يكتب المله وبؤسه وفاقته ويحتفظ به في دخيلة نفسه .

(١) الطاهر ، احمد حافظ ابراهيم ص ٣١

وقد نظم حافظ في جميع فنون الشعر التقليدية ويحتوى الجزء الأول من ديوانه على المدائح والتهاني والاهاجي والاخوانيات والوصف والخمرات والغزل والاجتماعيات . وفي مدحه يسير على السنة القديمة فيبدأ القصيدة بالغزل ويكثر من الاطناب والمبالغات وقد يلجأ الى التضمين كما يفعل في مدحه محمود سامي البارودي (١) حيث يقول :

امير القوافي ا ان لي مستهامة	بمدح ومن لي فيك ان ابلغ المدى
اعزني لمدحيك اليراع الذي به	تخط واقبرضني القريض المسددا
ومر كل معنى فارسي بطاعتني	وكل نفور منه ان يتوددا
وهبني من انوار علمك لمعة	على ضوئها اسرى واقفون اهتدى
واربوعلى ذاك الفخور بقوله :	(اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا)

وهو يهني " الخديوى بعيد الفطر وبعيد جلوسه وعيد الاضحى ويقدمه من الحج " ، ويهني " بالرتب ويهني " ادوارد السابع بتتويجه وله في سفر الامام محمد عبده واياه . وفي تحية خليل مطران (٢) وقد انشدها في حفل اقيم بدار الجامعة المصرية لتكريمه بمناسبة الانعام عليه بالنيشان المجيدى يوم ٢٤ ابريل سنة ١٩١٣ حيث تبذ وعرويته ودعوته الى الالفه والوثام بين الاقطار العربية .

انما الشام والكنانة صنوا	ن ، رغم الخطوب عاشا لزاما
امكم امنا وقد ارضعتنا	من هواها ونحن بأبى الفطاما
قد نزلنا جواركم فحمدنا	منكم الود والندى والذماما
وحللنا في ارضكم فاصبنا	منزلا مخصبا واهلا كراما
..	شاعرا اتعد النهى واقاما
وطمعنا في شأوه فقعدنا	وكسرنا من عجزنا الاقلاما
نظم الشام والعراق ومصرنا	سلك آياته فكان الاماما

(١) الديوان ١٠ : ١

(٢) الديوان ٦ : ١

فمضى النثر خاضعا ومضى الشعر والقى الى الخليل الزماما .

وله في مدح عمر بن الخطاب (١) قصيدة طويلة رائعة تبلغ ١٨٢ بيتا . مطلعها :

حسب القوافي وحسبي حين القيها
اني الى ساحة (الفاروق) اهديها .

يذكر فيها قتل عمر وسيرته واسلامه واخباره مع الخلفاء الراشدين والقواد والامراء ، ويتعرض
لتشفيته وزهده وورعه وتقيته وعد له .

وفي تهنئة احمد شوقي بك (٢) ينشد حافظ قصيدة عصماء تقارب المئة بيت يبايع

فيها شوقي امارة الشعر :

امير القوافي قد اتيت مبايعا
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وله ايضا في تقييد الدواوين والمؤلفات . وله في الهجاء ابیات قلائل . وفي اخوانياته
يتساجل مع من عاصره من الشعراء والادباء . وشعره في هذه المناسبات لا يخرج عن ان يكون
عاديا . وله في الوصف وهو يقصر عن شوقي وقد اخذ عليه وصفه للبحر الهائج في رحلته
الى ايطاليا (٣) حيث يقول :

عاصف يرتمي وبحر يغير
وكأن الامواج - وهي توالى
ازددت ، ثم جرجرت ، ثم ثارت
انا بالله منهما مستجير
محنقات - اشجان نفس تشور
ثم فارت كما تشور القدور

فاستضعف تشبيهه هيجان الموج وتلاطمه بغوران الماء في القدر .

وله في الخمرة ومجالس الشراب . ومن ذلك قوله الرائع وقد بعث به الى المويلحي (٤) :

اوشك الديك ان يصبح ونفسي
يا غلام ، المدام والكأس ، والظا
اطلق الشمس من غياهب هذا الدن
وأذن الصبح ان يلوح لعيني
بسین هم وبين ظن وحسدس
وايع ندمان خلوتي واثتاسي
س ، وهي لنا مكانا كأمس
واسقنا يا غلام حتى تـراننا
من سناها فذات وقت التحسي
خمرة قيل انهم عـصروها
لا نطيق الكلام الا بهمس
من خـدود الملاح في يوم عرس
غرسه في الجنان اكـرم غرس
هي نفس ، زكية ، وابوهـا

(٢) الديوان ١ : ص ١١٩

(٣) الديوان ١ : ص ٢٤١

(١) الديوان ١ : ص ٢٢-٢٧

(٣) الديوان ١ : ص ٢٢٧

وله في الغزل وليس في هذا الشعر ما يغني ؛ وله شعرا اجتماعي في حفلات المدارس والزواج والمشاريع الخيرية وما الى ذلك . وقد يستطيع ان يخرج حافظ من حلقة المناسبة الضيقة الى الفسيح من رحاب الشعر كمثل قوله في سورية ومصر (١) وقد انشدها في الحفل الذي اقامته لتكريمه جماعة من السوريين بغندق شبرد :

لمصر ام لربوع الشام تتسبب ؟ هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافق يجب

والجزء الثاني من الديوان يشتمل على السياسيات والشكوى والمراثي .

ففي سياسياته سجل حوادث مصر الكبرى زمن الانتداب ويتعرض الى حوادث عالمية مثل (الحرب اليابانية الروسية) ، وهو يميل الى اليابان لانها تجتمعه واياها جامعة الشرق ، ويقول في (الامبراطورة اوجيني) . ويتناول احداث الدولة العثمانية ويتجاوب مع احداث الدول العربية . وسوف ننظر في شعره هذا في الكلام على شعره السياسي . وله في الشكوى ومن حق حافظ ان يشكو فقد عاش بائسا معدما ومن ذلك قوله : **يصف سعيه المتواصل وبؤسه واباءه** ويتمنى الراحة من ذلك بالموت (٢)

سعت الى ان كدت انتعل الدما وعدت وما اعقبت الا التدمما
لحي الله عهد القاسطين الذي به تهدم من بنياننا ما تهدما
اذا شئت ان تلقى السعادة بينهم فلا تك مصر يا ولا تك مسلما
سلام على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر انسا ومغنا
اضرت به الاولى فهام باختها فان ساءت الاخرى فويلاه منهما
فهبي رياح الموت نكبا واطفمي سراج حياتي قبل ان يتحطما . . .

وكذلك قوله في (سجن الفضائل) (٣)

نعمن بنفسي واشقينني فيا ليتهن ويا ليتني
خلال نزلن بخصب النفوس فروينهن واطمانني
تعودنا مني ابا الكريم وصبر الحليم وتيه الغني

(١) الديوان ١ : ص ٢٦٨

(٢) الديوان ٢ : ص ١١٤

(٣) الديوان ٢ : ص ١٢٤

فما ينثنين وما انثني
اهبن بعزمي فنبهنني
ويمرحن مني بروض جنني
واوشك عودي ان ينحني
بمعقود امرك فاستيقني
وانت الجديرة ان تسجني
ليالي الاسار؟ ولا تحزني

وعود تهمن نزال الخطوب
اذا ما لهوت بليل الشباب
فما زلت امح في قد همن
الى ان تولى زمان الشباب
فيا نفس ان كنت لا توقنين
فهذي الفضيلة سجن النفوس
فلا تسأليني متى تنقضي

وليه في وداع الشباب (١)

ومر بي فيك عيش لست انساه
من الشباب وما ودعت ذكراه
من التباريح اولاه واخراه
والنفس جياشة والقلب اواه
ومر عيش على العلات القاه .

كم مر بي فيك عيش لست اذكره
ودعت منك بقايا ما علقت به
اهفو اليه على ما اقرحت كبدي
لبسته ودموع العين طبيعة
فكان عوني على وجد اكا بده

صفحة

والمراثي تشمل ١٢ من الديوان وهو يرثي اعلام مصر الراحلين من رجال سياسة وادب ودين
وقد يتناول رثاء شخصيات عالمية امثال الملكة فكتوريا وتولستوى وسوف ياتي الحديث على رثاء
حافظ مطولا .

حافظ بين التجديد والتقليد :

اتهم النقاد حافظا كما اتهموا شوقيا بانه مقلد فاراد ان يثور على التقليد فقال

في قصيدته (الشعر) (٢)

يا حكيم النفوس يا بن المعالي
لم يفيقوا وامة مكسسال
وغرام بظبية او غسزال
ورثاء وفتنة وضلال

ضعت بين النهى وبين الخيال
ضعت في الشرق بين قوم هجود
قد اذالوك بين انس وكأس
ونسيب ومدحة وهجاء

(١) الديوان ٢: ص ١٢٠

(٢) الديوان ١: ص ٢٣٧

وحماس اراه في غير شي*
عشت ما بينهم مدا لا مضاعا
حملوك العناء من حب (ليلي)
وبكاه على عزيز تولى
وانا ما سموا بقدرك يوما
آن يا شعر ان نفاك قيودا
فارفعوا هذه الكمام عنا
وصغار يجسر ذيل اختيال
وكذا كبت في العصور الخوالي
و (سليمي) ووقفة الاطلال
ورسوم راحت بهن الليالي
اسكوك الرجال فوق الجمال
قيدتا بها دعاة المجال
ودعونا نشم ربح الشمال .

فهل عمل حافظ بقوله هذا ؟ وهل خلا شعره من النسيب والمدح والهجاء والرثاء ؟
وانا حذفنا هذه الاغراض من شعره ماذا يبقى ؟ ! .

ان احمد امين في مقدمته لديوان حافظ يغنيننا عن الجواب فيقول : (١)
" لم يجدد في بحوره واوزانه . ولم يجدد في اسلوبه وبيانه ولا في تفكيره وخياله ،
انما جدد في شي " هو فوق ذلك كله ، جدد في موضوعه واغراضه ، فبدلا من ان ينظم في
موضوعات امرى القيس وطرفة ، او جرير والفرزدق ، او بشار وابي نواس ، نظم في موضوعات
عصره واماني قومه . "

لمست ادرى كيف يحسب لحافظ ، حسنة و اجرا يحسب له عند الله ، نظمه في موضوعات
عصره ! فهل هناك ادنى ريب في ان مواضعه سوف تكون مواضع امرى القيس وطرفة ؟ ! .
الى ان يقول : فلما شار على الشعر القديم وحطمه ، ببنى على انقاضه شعره الجديد
في الوطنية والاجتماعيات والسياسيات ، وكان في شعره يقف موقف الصحافة الوطنية والخطباء
الوطنيين ، وقادة الرأي الاجتماعيين ، يغشى مجالس كل هؤلاء ، ويتشرب من ارواحهم ، ويستمد
من حبههم ويغذي عواطفه من عواطفهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا ملتبها ، يفعل في النفوس -
وذلك شأن الشعر الحي - ما لا تفعله الخطب والمقالات ، فكان حافظ - حقا - شاعر الوطنية
وشاعر الشعب ، وشاعر السياسة والاجتماع ، ولم يجاره احد في ذلك من شعراء عصره .
وما أخذى على هذا الكلام ان ثورة حافظ على الشعر القديم لم تكن الا ثورة كلام
بكلام فهو يسير على عمود الشعر وانما فضله انه برز في الشعر الوطني وفي شعر الرثاء
وميزته الكبرى انه تبلورت في شعره آمال امته اولا وآمال الشعب العربي ثانيا . وقد دعا حافظ في
شعره الى الوحدة العربية والوحدة الاسلامية وذلك واضح في شعره لا يحتاج الى تدليل :

ويرى ابراهيم العريض (١)

* ان حافظا لم يفارق نهج العباسيين ولا يؤثر له في الشعر تجديد ذوبال ، الا ان تكون هذه المراثي والقوميات التي اظهر فيها جنح الشعب واشفاقه من مصيره السياسي ؛ فلا يعد وشعره على ان يكون جسرا انتقال بين عهدين . *

ويقول طه حسين (٢) :

* لا اعرف بين شعراء هذه الايام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . *

غير ان العقاد (٣) يرى (اولا) ان حافظا وسط بين الشاعر كما كانوا يفهمونه في القرون الوسطى ؛ (نديم) وسين مفهومه في القرن العشرين ؛ (يخاطب قراءه من وراء المطبعة) . وسط بين شاعر المجلس وشاعر المطبعة . (وثانيا) هو وسط بين شاعر الحرية القومية وشاعر الحرية الشخصية . صور آمال قومه وآلامهم كما صور شعوره وغنى نفسه .

وهو (ثالثا) وسط بين المطلعين على الآداب العربية وحدها والمتوسعين في قراءة الآداب الاوربية ، فلا تجد بين العارفين باللغات الاجنبية احدا اشبه منه بمن يجهلونها ؛ ولا تجد بين جاهليها احدا اشبه منه بمن يعرفونها . و (رابعا) هو وسط بين مبالغة الاقدمين وقصد المحدثين ولا سيما في المدح . *

ومهما يكن من امر فان حافظا شاعر موهوب اكتفى بموهبته فلم يتقف نفسه ثقافة تليق بشاعر عصرى كبير . وهو حريص على اختيار اللفظ وتدقيق جرس الكلمة وموسيقاها ، ينتقى اللفظ الضخم الضخم الذى يحرك العواطف ويسعى في ان تأتي مطالع قصائده قوية مؤثرة وقد يفعل ذلك بتكرار بعض الكلمات .

لم يبرز حافظ في الوصف فقد سبقه شوقي في ذلك لانه صاحب خيال اوسع وثقافة اشمل وجولات في بلاد اوربا .

فلم يكن حافظ شاعر الطبيعة وانما كان شاعر الناس .

(١) العريض، ابراهيم الشعر وقضيته ص: ٦١

(٢) طه ، حسين حافظ وشوقي

(٣) العقاد شعراء مصر ص ١٤-١٧

برز حافظ في امرين : شعره السياسي الذي يتناول فيه حوادث الامة ويصور
آمال الشعب وآلامه فيهب للدفاع عنه وحشه للمطالبة بحريته ويقرعه بعنف مثل قوله في
(زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد) (١)

..... (وكم ذا بعصر من المضحكات)
امور تمر وعيش يمر
وشعب يفر من الصالحات
وصحف تظن ظنين الذباب
وهذا يلون بقصر الامير
وهذا يلون بقصر السفير
وهذا يصيح مع الصائحين
كما قال فيها (ابو الطيب)
ونحن من اللهوف في ملعب
فرار السليم من الاجرب
واخرى تشن على الاقرب
ويدعو الى ظله الارجب
ويظن في ورده الاعذب
على غير قصد ولا مآرب .

وله قصائد مشهورة في الدفاع عن الشعب منها (حادثة دنشواي) (٢) حيث يخاطب
الانجليز :

احسنوا القتل ان ضننتم بعفو
احسنوا القتل ان ضننتم بعفو
ليت شعري اترك (محكمة التف
كيف يحلو من القوي التشفي
اقصا ا اردتم ام كبادا ؟
انفوسا اصبتم ام جمادا ؟
تيش) عادات ام عهد (نيرون) عادا ؟
من ضعيف القى اليه القيادا ؟

غير ان حافظا كأي انسان لا يلبس ان يلين ويساير احيانا فيضطر الى تعلق الحاكم العاتي
فيرحب به وقد يعاتبه ولكن بلطف ولين :

وحبه لمصر ظاهر في قصيدته (مصر) (٣) التي تعد من روائعه والتي يقول في مطلعها:
وقف الخلق ينظرون جميعا
كيف ابني قواعد المعجد وحدي

فيفاخر بعظمتها وآثارها ومآثرها ويحث شعبها على الثورة على الظلم والتحكم .
وامر آخر برز فيه حافظ واجاد هو الرثاء :

(١) الديوان ٢٥٧:١

(٢) " ٢٠:٢٢

(٣) " ٨٩:٢

اكثر رثائه صادق لانه يرثي الخالص من اصدقائه فيحلل صفاتهم ويبين كيف ان فقدهم كارثة تصيب الامة اجمع ثم يعود الى نفسه فيصور اثر المصاب ويرى ان في موت اصحابه ما يذكره بدنوا جلله .

والذى ساعده على الاجادة في الرثاء وبكاء اصحابه انه عاش بائسا متألما وكان بجانب ذلك صادقا في حبه مخلصا لأصدقائه :

يرى الدكتور طه حسين : (١) " ان نفس حافظ ، رحمه الله ، كانت تمتاز بشيئين اتاحا لها اجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه ، كانت قوية الحس كاشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس و صفا طبع واعتدال مزاج . وكانت الى ذلك وفيه رضية لا تستبقي من صلاتها بالناس الا الخير ، ولا تحتفظ الا بالمعروف ، ولا ترى للاحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، وتصبه للناس مثلا يحتذى ونموذجا يتأثر .

فهذا احد الامرين اللذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ : حس قوى دقيق ، وخلق رضى كريم . فاما الآخر فضلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله واهوائه وآماله ومثله العليا :

ثم يقول في موضع آخر

" اما حافظ فكان يرثي لانه يحزن ، وكان يحزن لانه يحب ، وكان يحب لان الله وهبه نفسا رضية مؤثرة لم تبرأ من شي قط كما برئت من الأثرة ، وكما برئت من الضغينة والحقد ."

" فكان اذا رثي علما من اعلام مصر فكأنما يرثي نفسه اولا وكأنما يرثي امته ثانيا . وابرع ما يكون حافظ في الرثاء حين يصور حزن الشعب وألمه في فقد بطل من ابطاله ورجل مصلح من رجاله . لذلك يجيد في رثاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . (٢) الذى يستهله بقوله :

سلام على ايامه النضرات
على البر والتقوى ، على الحسنات
فاصبحت اخشى ان تطول حياتي

سلام على الاسلام بعد محمد
على الدين والدنيا ، على العلم والحجا
لقد كنت اخشى عادى الموت قبله

(١) طه حسين حافظ شعر وشوقي ص ١٥٢

(٢) الديوان ١٤٤ : ٢

فهو يعبر عن المصاب العظيم الذي اصاب الشعب بفقده اماما من أمة الدين ودعامة ممن دعامات النهضة الفكرية .

وكذلك قل في رثائه (مصطفى كامل) (١) حيث يقول :

ايا قبر هذا الضيف امال امة فكبر وهلل والقي ضيفك جاثيا

فهو ينطق بلسان الشعب فيصور المة لفقد زعيم من زعمائه الخالص الذين بنوا لمصر مجدا سياسيا عظيما :

وقل مثل ذلك عن رثائه لسعد زغلول (٢)

وحافظ هو القائل :

اذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدت شعر المرثي نصف ديواني :

ويرى الاستاذ احمد امين (٣) : " ان حافظ اجاد في الرثاء كل الاجادة ، واحسن كل الاحسان

وسبب ذلك انه استطاع في كثير من الاحيان ان ينقل الرثاء من مسألة فردية الى مسألة اجتماعية فموت الشيخ محمد عبده نكبة على مصر وعلى العالم الاسلامي ، وموت مصطفى كامل كارثة على مصر وعلى الوطنية الحققة ، فهو يتسلل في حذق ومهارة بعد تصوير الفقيده صورة كاملة الى المسائل العامة الاجتماعية ، وبذلك يجلس حافظ على عرشه ، ويقول في سهولة وجزالة ما برع فيه وفاق اقترانه .

وشيء آخر هو ان الموت عند حافظ وسيلة من وسائل شكوى الزمان والحنق عليه ، والغيب

منه : فالزمان فعل بحافظ الافاعيل ، فرماه باللبوس والفقر ، ورعى امته بالتفرق والتواكل ، وبالاحتلال ورعى العالم الاسلامي بالغرب يمتص دمه ، ويسومه سوء العذاب ، فما هو الا ان يموت ميت من اصدقائه حتى ينفر جرحه وينفجر المة :

وثالث ، هو انه رحمه الله كان شديد الخوف من الموت ، دعاه ذلك الى ان ينعي نفسه

ويتألم كثيرا لشيخوخته ، ويتوهم المرض في كل عضو من اعضائه ، فاذا مات قريب له او صديق او نديم راعه ذلك ، لان موته انذار بموت حافظ ، وما اشد وقع ذلك على نفسه : فكان يصوغ من نبوغه في الناحية الاجتماعية ، ومن بغضه للدهر وحنقه عليه ، ومن اشفاقه على نفسه ، رثاء "يقطع الاحشاء" ويذيب لغائف القلب ، ولولا هذه مجتمعة لما بلغ في الرثاء ما بلغ :

(١) الديوان ١٤٩:٢

(٢) " ٢١٨:٢

(٣) امين ، احمد مقدمة ديوان حافظ ص ٣٢

ويرى طه حسين (١)

" ان شوقي مجدد ملتوي التجديد ، وحافظ مقلد صريح التقليد ويمضي الزمن على حافظ وشوقي فاذا تقليد حافظ يستحيل - لاقول الى تجديد بل اقول الى نضوج غريب وقوة بارعة وشخصية تغرض نفسها على الأدب فرضا .

واذا تجديد شوقي يستحيل شيئا فشيئا الى تقليد ، حتى اذا كانت اعوامه الاخيرة كانت قصائده كلها تقليدا ظاهرا للقدماء من الشعراء ، لا يقسترفيه ولا يحتاط . ينشيء القصيدة فلا تحتاج الى تعب او مشقة لتجد القصيدة التي تحاكيها .

وخلاصة القول ان شوقي وحافظ كلاهما شاعر كبير وان اختلف فيهما النقاد وتدافعوا في شأنهما . وقد يمتاز شوقي باشياء ويتفوق حافظ باشياء .

شوقي اوسع ثقافة واكثر اطلاعا على ادب الغرب وهو اشد غنائية ونغما يبرز الوصف في وفي الشعر الفرعوني وفي الشعر المسرحي .

وحافظ اقل ثقافة منه واقل غنائية يفوقه في رثائه واستجابته لآلام الشعب والدفاع عن حقوقه في شعره السياسي :

شوقي شاعر الطبيعة وحافظ شاعر الناس :

وكلا الشاعرين قد غنى امته وشعبه طول نصف قرن واحبب التراث القديم وجدد كلاسيكية الشعر واعاد اليه شبابه .

حياة مطران وشخصيته

حياته وخصيسته

يقول ادهم (١): " نستطيع ان نرد جميع المصادر التي لها صلة بحياة الخليل الى ثلاثة اصول :

- ١ - ما كتبه الخليل عن نفسه .
- ٢ - ما رواه معاصروه عنه :
- ٣ - ما نطق به شعره من وقائع حياته .

اما الاصل الاول ، فلم يكتب فيه مطران شيئا يذكر ، كان يتهرب ويعتذر حينما يطلب منه ذلك .

ما والاصل الثاني ، هو ما راجعته من كتب ومقالات وآراء تناول مطران رجلا وشاعرا وهو / سوف ابينه في جدول المراجع .

واما الاصل الثالث فهو خير معوان على فهم حياة الشاعر الوجدانية ومكانته الادبية هذا اذا لم يكن معوانا على فهم حياته المعيشية على شي من التفصيل .

ويقول الخليل في مقدمة ديوانه ان القارى " يدارجه مدارجة تمثله لديه في كل حال مربها " . وعلى هذا يعلق انطون الجميل (٢) : " ولقد اصاب في ذلك ، فان شعره بالحقيقة رسم تمثلت لنا فيه كل اطوار صاحبه ، وارتسمت بين ابياته كل عواطف قلبه ، وتألّفت اوداه ، وهذا سر محاسن شعره العديدة " .

ثم يقسم ادهم (٣) تاريخ حياة مطران بالنسبة للاطوار التي لبسها من عصره ، الى ثلاثة ادوار : يبدأ الاول من ميلاده وينتهي باستقراره في مصر . ويبدأ الثاني من حيث ينتهي الدور الاول وينتهي بالحرب الكبرى . ويبدأ الثالث يوم وضعت الحرب اوزارها الى آخر حياته .

اما انا فليست ارى ان آخذ بهذه التقاسيم لانها قليلا ما تخفي .

(١) ادهم ، اسماعيل - خليل مطران - ص : ٥٣

(٢) الجميل ، انطون - شاعرية خليل مطران - مجلة الزهور مايو ١٩١٣ ص ١١٢

(٣) ادهم ، اسماعيل - خليل مطران ص : ٥٨

نسبه :

يعود نسبه الى اسرة عربية مسيحية عريقة الاصل يرتقي نسبها الى الغساسنة ، كانت تعرف ببطن (اولاد نسيم) ثم لما ارتسم احد هم مطرانا اخذت تعرف باسم (مطران)
x ووالده عبده مطران من مبرزى رجالات بعلبك ، المالكين والتمولين ، وكان يشتغل بالتجارة .
يعود نسب والدته الى آل الصباغ من سكان حيفا في فلسطين ، وكان والدها من وجهاء
البلدة .

ولد مطران في مدينة بعلبك في شهر تموز عام ١٨٧٢ (١) وكان في طفولته كثير الحركة ذا مزاج عصبي اصيل وطبيعة ذات حيوية زائدة وشاعر متقدة واحساسات زاخرة ، وكان حرا في تصرفاته ، وكان تركه في طفولته حرا في مواجهة محيطه البدائي يتعامل معه بحرية تامة ، سببا في ان يخلص مع الزمن بخلة مؤصلة رسخت في نفسه ، وقامت مقام الطبيعة الاصلية ، هذه الخلة هي خلة المعاودة والمراجعة .

* ويمكن ان تفهم طبيعة خليل مطران كلها على حقيقتها وتترك شخصيته في تقبضها الداخلي اذا لاحظت ان الطبع الاصيل من نفسه هو طبيعة الانفعال بقوة والاستجابة للاشياء بشدة وان طبيعة الانفعال الهادي الذي يطالعك بها الخليل ، والاستجابة ببطء للمؤثرات انما تأصلت في نفسه مع الزمن بحكم المعاودة والمراجعة .*

فشدة في الحاسية وزخور في المشاعر وترسل مع النزوات ثم محاسبة دقيقة للنفس وبواعثها ونمواتها . مما جعله يقول عن نفسه (٢) في المعاودة وحدها تاريخ تكون شخصيتي فقد كان هنالك عاملان يعلان في نفسي : شدة المعاودة ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص .*

كان نظام التربية الذي اخذه الخليل يختلط فيه نصف من التضييق والتقليد ، بنصف من الانطلاق والتحرر وكان مظهر هذا التعامل الحر مع البيئة ان يتداخل الخليل مع اخوته واقارانه من الاطفال يلعبون في حرية ، لا تقيدها رغائب الابوين ، وان كانت عين الام تسهر عليهم ولا تغييهم عنها ، وقد خلص الخليل من هذه السنين بطبيعته الاجتماعية

(١) ادهم ، اسماعيل - خليل مطران ص ٥٩

(٢) المقتطف : يونيو ١٩٢٩ في هامش ص ٨٧

التي تميل الى خلق جملة صلات اجتماعية مع الناس.

ثقافته : - في زحلة -

يقول موريس ارقش^(١) : " كان خليل مطران تواقا الى التعليم ، ولم يكن ابوه ذا يسار ، فأثر ان يجعل منه رجلا متعلما . فبعث به الى زحلة وادخله الكلية الشرقية حيث انتهى علومه الابتدائية ولما نبه ذكره وذاع صيته ، نقشت المدرسة اسمه على مقعد الدراسة تخليدا له . وقد تركت زحلة اثرا بالغا في نفس خليل الفتية الجياشة بالعاطفة والحب . "

في بيروت :

" وبعد ان قطع خليل مراحل تعليمه في الكلية الشرقية في زحلة ذهب الى بيروت حيث التحق بالمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك . مكث فيها حتى السابعة عشرة من عمره ، وتلمذ على الشيخين خليل وابراهيم اليازجي ، فدرس النحو على الشيخ خليل ، ودرس البيان وفقه اللغة والأدب على الشيخ ابراهيم ، فخلصت له ثقافة عربية ممتازة : بعد ذلك تفرغ خليل على اللغة الفرنسية حيث حذق فنونها ودرس اساليبها فحصل الحسنين وجمع بين الثقافتين . "

وكان يتجاذب خليلا عاملان قويان : عامل جذبته الى الشيخين خليل وابراهيم اللذين كانا يريدانه حامل لواء الادب العربي ، متمجرا فيه ، والعامل الآخر هو نسيبه رشيد مطران الذي كان ينجذب به الى ادب الغرب . وكان الأدب العربي يستهويه باللوان تصاويره وجغرافيا اسلوبه ، وكان الغرب يستهويه بدقة تفكيره . غير ان خليلا لم يشأ ان يجرى في مضمار الشيخين عفوا لانه كان يعتقد في دخيلة نفسه ان الأدب العربي القديم كان له عصر يسايره ويعيش فيه ، وكان العرب يومئذ ينساقون في اودية غير صالحة لاختيلة عصرنا . فقد كانت لهم عصورهم واخيلتهم ، ولنا اليوم عصرنا واخيلتنا . وقد نجح خليل في الأخذ باللغة العربية على نسق يساير عصره ويماشي جيله . "

(١) ارقش ، موريس . خليل مطران كما عرفته . محاضرات الندوة م ١ : ١ - ١٩٥٦ ص ٤٢٥ - ٤٣٨

ويقول ادهم^(١) : "وتخرج الفتى (اي مطران) من الكلية بعد ان تتقف ثقافة خالصة من جهة واتصل بالثقافة الاوربية اتصالا تاما من جهة اخرى . فقد كان اتصال الفتى بالاداب الفرنسية بالكلية سببا في ان تفتح نفسه عن آفاق جديدة من الحياة ، والشعور ، لم يجد ما يكافئها في الأدب العربي الخالص ومن هنا اعتقد الفتى ، وهو ابن ثقافتين ان المستقبل في الأدب العربي ، ليس للنماذج التي تذهب تحاكي طرائق القدامى في المعاني والاشكال ، والمشاعر والصور ، وانما للنماذج التي تعبر عن روح العصر وخلجاته ومشاعره واتجاهاته في قالب عربي رصين ."

ثم يقول بعد ذلك : " وكان مطران قد خلص من ايام دراسته والسنين التي عقيتها في سوريا ثقافة ادبية يشربها القليل من الثقافة العلمية . فقد كان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلكية وشؤون علم الفيزياء والكيمياء والحياة والحيوان ، وكانت هدفه الثقافة العلمية يخالطها اطلاع على الفنون كتواريسخ الامم وفلسفات الشعوب ، ومن هذه الثقافة الخليطة التي يغلب عليها الاتجاه الادبي كان مطران يتخذ اللينيات الاولى للتفكير ."

الفيزياء

وصفه وشخصيته واهم الحوادث في حياته :

يقول حبيب الزحلاوي^(٢) في وصفه وهو شيخ : "جسم نحيل معروق ، ونظرات لامعة اخاذة ، وصوت مبحوح لاهث من حفجرة صلبتها الاعوام الثمانون وقد ناهزها^(٣) وهو بالرغم منها على احسن ما يكون من اتقاد الذهن ومضام العزيمة ، وخصب الانتاج وهو محدث بارع . . ."

ومن سجاياه سعيه للخير ، وهو يتراخي وقد يتكاسل في السعي لخيره الخاص ، ولكنه لا يتوانى ولا يتقاعس في السعي لفك ضيق ، او حل مشكلة ، او دفع نازلة ، او ازالة خصومة ، او ترويح فتاة من اية طائفة او ملة كانت :

يعطي المعوز ما يستدره من مال الغني ، وينتزع الدراهم من الشحيح البخيل ، ويأخذ الدينار من السخي الكريم يقبل بها عشرات العائرين .

(١) ادهم ، اسماعيل - خليل مطران ص: ٦٣

(٢) الزحلاوي ، حبيب - الشاعر خليل مطران - الكتاب الذهبي ص: ٢٥٧-٢٥٨

(٣) حاشية : فاش خليل مطران ، ٧٧ عاما فكف ناهز الثمانين .

وما قامت جمعية للبر ، او مؤسسة للخير ، او دار للشفا ، او تألفت جماعة لعمل من الاعمال الا وكان مطران من اوائل القائمين بها . وما أنفأت بين السوريين واللبنانيين منشأة الا وكان مطران من الساعقين الى انشائها ، وما شجربين الطامعين او بين مجيبي الظهور شجار على عضوية في مجلس ، الا وكان مطران اول المتنازلين عن الرئاسة او العضوية حبا باحلال الوثام محل الخصام .

هوذا مطران الانسان وقد حدد امنيته في الحياة بقوله : " امنيتي ان اجتاز طريقي دون ان اسيء الى احد . "

ويستخلص السحرتي (١) من قصيدة مطران هل تذكرين (٢) بعض الخلال الاصلية للرجل وهي (١) حبه المتأصل في صباه . (٢) ونزوعه الى الجمال الطبيعي والانساني . (٣) وشغفه باسعاد غيره . (٤) وابرار هذا الشغف بطريقة عملية فنية . (٥) وعجبه بصنعه ، عجباً مقروننا بالتواضع .

ثم يقول : " وهناك سميات اصلية اخرى غير ما ذكرنا نعتقد انها حكمت شخصية الخليل ، وهي الحرية ، التي قد تبلغ درجة الثورة والاقدام الذي قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ، والاباء الذي نأى به عن مواطن التذلل حتى في احلك الساعات ، وثبات خلقه ، وحيويته الدافقة ، وهذه السمات تجلت في مراحل حياته ، وتلون بها شعره ، وبرزت واضحة جلية في ملامح وجهه . "

وابرز هذه السمات وأصلها ، تحرره ، وجرأته ، وابدأه : ولأبداً على تحرره من نفوره من الظلم في يفوعته ، وهجرته بعلمك موطنه الاول الى باريس ، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرتة لاعلام الوطنية امثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، ونزعتة التجديدية في الشعر . هذه كلها من الدلائل الناطقة على روحه المتحررة : "

(١) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف - خليل مطران الرجل والشاعر ص ٨٤

(٢) الديوان - ٢ : ١٣٥

وقد صاحبت هذه الروح المتحررة ، نزعتان صديقتان هما الجرأة والاباء ، وقد انعكس اثرهما في عمله وفنه ، وابلغ دليل على هذه الجرأة هو شعره الجديد الذى وثب به وثبة ، بعيدة ، لا يقدر عليها الا موهوب جرى ، وايا قلبنا شعره وجدنا تجارب شعرية لم يطرقتها احد قبله ، وطلاقة بيانية واسلوبية ، وتحررا من عبودية القافية ، لا نعرف شاعرا سبقه اليه . (١)

ويضيف السحرتي : (٢) " والحق ان الخليل مع تمثيله عصره اجل تمثيل ، قد سما على دنياه ، وبزمعاصريه من الأدباء في ثبات خلقه ، وكرم نفسه ، وتفانيه في خير الناس ، وكانت شخصيته مزاجا فريدا من المثالية المحلقة في الخيال ، ومن الواقعية المؤمنة بالجهاد وحب العمل في الحياة ، فقد كان الرجل يسير بقدمين ثابتين على الارض وراسه يطوف في السماء ، وقد عاش في سمائه شاعرا جريئا مبتكرا ، وعاش على الارض ، رجل ديبيا يشاطر الناس افراحهم واتراحهم ويعطف على بائسيهم وفقرائهم ، وينتقم من حكامهم الظالمين المتغطرسين ، وينادى بالشورى وحكم الدستور ، وهو لم يحمل على طبقة من الطبقات ، بل احب كل طبقة ، واذا قرع في شعره الشعب لاستكانته للظلم فهو تقريع المحب ، السامق الى اسعاده - واما مصطلحاته ، ومصافته لكبار الرجال وذوى الجاه ، والأغنياء ، فراجع الى حذره وحبه في كسب قلب كل طبقة ."

ويقول زكي مبارك (٣) " ان مطران هو الاديب الوحيد الذى عاش بدون اعداء . . . ان لم يشترك يوما في معركة قلمية ، ولم يبت ليلة وهو حاقد على فلان او فلان . . . وهو في ملابسه رجل بسيط ، يجهل التأنيق كل الجهل ، لان الزينة عنده هي في الروح لا في الثوب ."

ويقول حنا سرقيس : (٤) " امتاز مطران بصداقته ومروته ووفائه واسرعه الى صنع المعروف ، وثباته على العهد ، ولا احسبان في المجتمع المصرى من اجمعت القلوب على حبه

(١) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف - ص ٩-١٠

(٢) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف - ص ١٧-١٨

(٣) مبارك زكي - الكتاب الذهبي ص ٢٦٠

(٤) سرقيس ، حنا - خليل مطران واخلاقه . الكتاب الذهبي ص ٢٧١

واحترامه اكثر مما خص به مطران* .

"عاصر مطران مصر نصف قرن ونيفا ، وشهد اتمى حقبه من تاريخها الحديث فتألم لالمها ، وآسى جروحها ، واروى زناد شعره لاستفزاز الهمم ، وبعث النشاط والرجاء في الصدور ، فتراه مغردا في افراحها واعيادها باكيا ناديا لرجالها مدافعا عن حقها* .
" ولا اتحدث عن مروته ، ونجدته ، واصطناعه المعروف . فهو وحده اشبه بمعهد خيرى قائم بذاته* .

كان رحمه الله كريما رضي الخلق ودودا مخلصا لاصدقائه عشورا حساسا خد وما محبا للخير والصالح العام متواضعا سمحا حتى سمي (وقف عام) فلكل من الناس نصيب فيه .
وقد صح فيه قول الشاعر :

كأنك من كل القلوب مركب فانت الى كل الانام حبيب

ويروى نجيب جمال الدين : (١) انه (اي مطران) كان يسير بصحبة صديق له ، على رصيف في احد شوارع القاهرة ، وفجأة انتقل الخليل بصاحبه ، الى الرصيف الثاني ، ولما الح عليه الصديق في معرفة السبب ، قال الخليل : " لمحت الآن شابا ، جاءني البارحة يستلفني مالا ، لان امه ماتت في الصعيد ، وهو يريد تكفينها واعطيته ، واذا رأني الآن فهو لا بد عارف ان حيلته قد انكشفت ، فينكسف ، ولا احب له ! "

ومما يرويه الاستاذ موريس ارقش عن اخلاق مطران (٢) : " ان المرحوم سليم سركيس صاحب مجلة "الشيء بالشيء" يذكر " ذهب ذات يوم الى خليل مطران واخبره ان صديقه المرحوم علي المنزلاوي كان يبسط فيه لسانه بقالة السوء . وما اسرع ان اجابه خليل في هدوء :
" لعلى صديقي كان ضيق الصدر لعارض من عوارض الحياة فاختارني للتفريج عن صدره ، فاذا لم يجد في صديق حميم مثلي متفلسا فقيما يجد ؟ "

(١) جمال الدين ، نجيب - خليل مطران شاعر العصر هامش ص ٥٦

(٢) ارقش ، موريس - خليل مطران كما عرفته - محاضرات الندوة م-١٥ - ١٩٥٦ ص ٤٣٣

وكان مطران محبا للحرية مجاهداً بذلك ، نائرا على الاستعمار التركي الظالم
ومما يرويه نجيب جمال الدين (١) : * ان مطران بعد تخرجه من البطريركية ، بدأ ينظم
شعرا ضد السلطنة الكبرى والاستبداد الحميدى ، وقد روى لصديقه عمر فاخورى ، انه
كثيرا ما كان يذهب صحبة بعض رفاقه الى اعالي الاشرفية في بيروت ، وينشدون نشيد
المارسيز ، وقد كان رمز الحرية ، وعنوان النضال ، وطريقة من طرائق تحدى الاستعمار ،
في تلك الايام السوداء ، واقف اخيرا بتهمة العمل للثورة ، غير انه لعدم توفر الادلة ، وربما
لمكانة عائلته ، خرج بريئا :

وفي احدى الليالي الصائغة لعام ١٨٩٠ ، عاد مطران الى غرفته ، في اخريات
الليل ، ولم تكن غرابته شديدة ، عندما رأى سرير نومه ، منقوبا بالرصاص ، لقد خال
جواسيس عبد الحميد ، ان الفتى فريسة سبات عميق ، فلا اسهل من ان تطلق عدة رصاصات
من النافذة ، على سرير نومه ، وينتهي الامر * .

ويضيف ارقش بعد ان يورد القصة نفسها (٢) : * وان ذاك فكرت اسرته باقتضائه عن
بيروت خوفا على حياته ان تم بسوء فقررت ارساله الى باريس * .

وذهب الخليل الى باريس في طلب الرزق والعلم ولكنه لم يكتف بذلك بل اتصل
بحزب تركيا الفتاة الذى كان يناهض طغيان السلطان عبد الحميد الذى كان له وقتئذ
شأن في التأثير على الحكومة الفرنسية مما حمل الخليل على مغادرة فرنسا
الى اميركا الجنوبية :

ويذكر ادهم (٣) ان الحكومة العثمانية لم تعثر - في بيروت - على مستندات
كتابية وقرائن قوية تدينه بها فاطلقت سراحه ولكن اخذت تضايقه وفي ذلك الوقت
اصيب بداء * ذات الجنب * واشرف على الهلاك ، ثم نجى باعجوبة وما استرد قواه حتى رأى
اهله ان يغادر سوريا الى الخارج تخلصا من مضايقات الحكومة فعزم على السفر الى باريس :

(١) جمال الدين ، نجيب - خليل مطران شاعر العصر ص ٤٦ (من حديث خاص مع ابن عمه السيد
جودت مطران ، وقد روت لي نفس الحديث شقيقة مطران السيدة اميلي مطران)

(٢) ارقش ، موريس - محاضرات الندوة م ١٠ سنة ١٩٥٦ ص ٤٢٩

(٣) ادهم ، اسماعيل - خليل مطران ص ٦٧-٦٨

وفي صيف ١٨٩٠ خرج مطران من بيروت ووجهته باريس حيث اقام ردها من الزمن (ما يقارب السنتين) وكانت حياته في باريس نشاطا متصلًا ، في سبيل الدرس والتزود من آداب الفرنج من جهة والجهاد في سبيل الدستور وتحرر العناصر التي في الدولة العثمانية من جهة اخرى . ولقد اتصلت الاسباب بين نفس مطران في تلك الفترة وبين شعر " الفرد دى موسيه " فقد فتن مطران ، وهو في عنفوان الشباب (لم يبلغ العشرين بعد) ومشاعره في فورة اتقادها بزخور الاحساسات وحمق المشاعر التي يتميز بها شاعر الفرنسيين الرومانسي ، ومن هنا كان وقوعه تحت تأثير " موسيه " مما يظهر بعد في القصائد الاولى من ديوانه .

ويروى ادهم (١) ان مطران فكر في السفر الى الشيلي (٢) وكلنت حكومتها قد منحت امتيازات مغرية للمهاجرين فكانت تمنحهم الاراضي الواسعة وتعفيهم من الضرائب والمكوس لاعوام وتساعدهم على استغلال الارض . وبدأ يدرس اللغة الاسبانية استعدادا للرحيل . ولكن سفره هذا لم يتحقق فبدلا من ان يتجه الى الشيلي اتجه نحو مصر واتخذها وطنه النهائي فسافر سنة ١٨٩٢ الى الاسكندرية وكان نعي سليم تقلا فالقى مطران قصيدة في رثائه لاقت استحسان وتقدير اخيه بشارة تقلا الذي تومس فيه النباهة واختاره في سنة ١٨٩٣ مراسلا للاهرام في القاهرة .

ولكن مطران ترك الاهرام بعد ان اشتغل فيها وفي المؤيد وغيرهما ثماني سنوات وانصرف الى الاشتغال بالصحافة لنفسه سنة ١٩٠٠ فصدر (المجلة المصرية) نصف شهرية و (الجواب) يومية ولكن ما لبث ان ودع الصحافة سنة ١٩٠٤ وكان ذلك من حسن حظ الأدب والشعر العربي جميعا .

وكان من اسباب انصرافه عن الصحافة القصة الطريفة التالية ، التي تدل على اخلاق الخليل وعزة نفسه ، وقد رواها في مقال له نشر في الهلال قال : (٣) " وذات مساء رجع الي الجابي من جولة ، وابلغني ان صديق لي ممن كت اعاشرهم معاشرة متصلة

(١) ادهم ص: ٦٨

(٢) في روايات اخرى (الى البرازيل)

(٣) مطران ، خليل " اهم حداث اثر في حياتي " الهلال يناير ١٩٣٠ ص: ٢٧

استمهله في اداء ما عليه ، ولم يكن ذلك للمرة الاولى ، ويظهر ان الجابي الح عليه ، باعتبار ما يعرفه من الصلة المحكمة بيننا ، فالتفت اليه هذا الصديق ، وجابهه بقوله : " اهو ثمن عيش ؟ " فلما سمعت هذه العبارة ، خيل الي ، ان كل من ارسل اليه جريدتي ، وان تلتف في الظاهر ، يحسبني متطفلا عليه ، فيما اتقاضاه منه ، ولا يقدر تلقا ذلك ، ما يبذل من جهد في التحرير وفي نفقات الطبوع والبريد ، وما الى ذلك من اعمال تستغف مجهودا ووقتسا وما لا ."

وانصرف بعد ذلك الى الاعمال التجارية والاقتصادية فريح اول الامر عاد وضارب بثروته فخرها سنة ١٩١٢ فكانت الصدمة عنيفة عليه ما جعله يفكر في الانتحار ، وساعد ذلك سوء صحته مما كان له اثر كبير في نفسيته وفي ادبه واطهر ما يكون هذا الاثر في قصيدتي (المساء) (١) (والأسد الباكي) (٢)

ثم عينه الخديوي عباس حلمي الثاني سكرتيرا مساعدا للجمعية الزراعية الخديوية . وفي سنة ١٩١٣ اقيمت له في دار الجامعة المصرية حفلة تكريم رائعة . ثم اخذ يهتم بالمسرح فترجم عدة روايات عن الانكليزية والفرنسية وفي سنة ١٩٢٤ زار وطنه الاول لبنان ولاقى حفاوة بالغة وكذلك عاد اليه بصحبة حافظ ابراهيم سنة ١٩٢٩ . وفي سنة ١٩٤٧ تادوا في مصر لاقامة مهرجان ادبي كبير للخليل شمله الملك برعايته وشاركت فيه جميع الدول العربية :

وفي سنة ١٩٤٩ في صبيحة اليوم الاول من تموز ، وكان داء النقرس قد الح عليه ادركه اليقين ففاضت روحه الطيبة عن سبعة وسبعين عاما تقريبا . وكان آخر ما قاله الى طبيبه : " انا اعتبر نفسي الآن قد انتهيت ، وان كنت لا ازال اعيش ، فبقوة الارادة ، وكل ساعة احياها تعتبر ليست من حقي ، انها سرقة موصوفة !"

ايها الطبيب اريد ان اخلص ، فقد انتهيت ."

لقد كان مطران ، رحمه الله ، شاعرا انسانيا ، شاعرا نبيلًا ، شاعرا ذا رسالة . وكان نموذجا في خلقه وفي حياته وفي ادبه . كان حبيبا للجميع ، يرى العالم كله وطنيا واهلا . لا يحقد ولا يحسد ولا يضرر سوا ولا يمسي بنميعة ولا يسعى لمنفعة ذاتية ولا يحب الختل ولا يعيش الا حياة الصدق والاباء والشرف .

(١) الديوان : ج ١ ص ١٤٤

(٢) ٢ ص ١٧

ويروى عادل الغضبان (١) قصة يبدر فيها ولاء مطران واخلاصه فيقول :
* كان الخليل وثيق الصلة بالخدوي عباس الثاني يعتقد سياسته في مكافحسة
الانجليز وتحرير مصر من رقة الاحتلال ، فلما عصفت الاحداث بالخدوي عباس وخلعته
عن سرير الحكم بقي الخليل وفيها له ولمن يلون به وانطوى على نفسه بعيدا من الجالس
على عرش مصر بعده . وظل هذا يدننه الى اليوم الذي نزل فيه عباس عن حقه في عرش
مصر فانطلق من عقاله وتحول بولائه الى صاحب العرش العتيق .

وتشاء الاقدار في الفترة التي اخذ الخليل فيها نفسه على رعاية عهد عباس
والوفاء له ان يتوفى الله في ديار الغربية الامير عبد القادر الابن الاصغر للخدوي
عباس . استأثرت به رحمة الله وهو في شيخ الشباب وربعان الصبا ، فرثاه الخليل بقصيدة
هي من فيض قلبه ووفائه .

وتشاء الاقدار كذلك ان يصل رفات الفقيد الى القاهرة في الاسبوع الذي اقيمت
فيه اقواس النصر ومعالم الزينات تاهبا لاستقبال الملك فؤاد عائدا من مصيفه بالاسكندرية
وهي عادة كانت متبعة في كل عام من ذلك الحين . فيمر مركب الفقيد تحت تلك الاقواس
في طريقه الى مشواه الاخير ويسجل الخليل ذلك الاتفاق في قصيدته ويقول مخاطبا الامير
المسجي في النعش :

تعدو والبهاج كل زور تحتها
وتثور نائرة الملك فؤاد عندما يبلغه نبأ هذا البيت ، فيأبى الا ان ينفي الخليل من
البلاد المصرية . ثم ينهي اليه الوسطاء من اهل الخير ان الخليل انما اراد بهاج الحياة
وزينتها الباطلة لا اقواس النصر المقامة لمليك البلاد . فيرضى الملك فؤاد بهذا التفسير
ويبقى الخليل في ارض الكنانة .

وعندما رثى الخليل الامير الشاب عز عليه ان لا ينهض الى رثائه غيره من الشعراء وفيهم
من كان اوثق صلة منه بالخدوي عباس . فعبر عن غضبته بهذه الابيات التي ختم بها تلك القصيدة
فقال :

(١) الغضبان ، عادل خليل مطران الحلبي الغضوب الرسالة س ٣ عدد ٥ (١٩٥٧)
(٢) نشرت هذه القصيدة في الاهرام يوم ٢٢ اكتوبر (١٩٢٣) وهي غير منشورة في ديوان الخليل .

ارثيك يا ولداه بالحسن الذي
ولقد ترى وجه اعتذار للاولى
الخلف ابعده ما نظرت مسافة
لومت في زمن مضى لعلمت كم
هو حسن مصر وكل قلب شاعر
حبسوا الدموع فانت اكرم عاذر
في الشرق بين اسرة وسرائر
من ناظم فيه وكم من ناثر

ويصيب رشاش هذه الغضبة امير الشعراء ، احمد شوقي ، فيعتقد انه المعني بهذا التعريف
فما هو ان تعود ام المحسنين الى الديار بعد غياب طويل في تركيا حتى يطلع على الناس بقصيدته
العامة "دمعة وابتسامة" (١) يهنئها فيها بسلامة الاياب ويعزيها عن حفيدها الامير عبد
القادر ، وكان رفاته قد سبق ركبها الى الوطن ، ويرد على الخليل بقوله يخاطب ام المحسنين :

لا ترومي غير شعري موكبا
كل حمد لم اصفه زائل
ان شعري درجات الخالدين
خالد الحمد بما صنت رهين

وتنتهي هذه المباراة الشعرية بين الشاعرين فيعودان الى ودهما القديم المقيم ، وتسر
على الحدث سنتان بيد من شوقي في نهايتهما ما يغضب الخليل فيحلم ولا يعاتب ولكن
يستعين بالشعر على وصف غضبته وما يحز في صدره من ألم الوداد المضيع .

ويقيض الله اليه في تلك الآونة صديقا حميما لمطران هو المقفور له محمد ابوشادي
المحامي المشهور فيرثيه بما هو اهله وتملك نفس الخليل غيبوبة الشعراء فتوحي اليه
بالتفيس من غضبة الاخاء المستعرة في صدره ، فيقول في ذلك الرثاء من حيث يدرى ولا يدرى :

ابي الله ان النى كغيري مولعا
فما انا من في كل يوم له هوى
يراني صديقي منه حين ايايه
وما ضاق صدرى بالذنين ودد توهم
وأنف سعيا في ركاب فكيف بسي
حرام علينا الفخر بالشعر ان تقع
وما كبرياء القول حين نفوسنا
وما زعمنا رعي الذمام وشهدنا
بخلع احبائي كخلع ثيابي
ولا كل يوم لي جديد صواب
بحيث رأني منه حين نهاب
ولا خرجت بالنازلين رحابي
ولي كل حول اخذة بركاب
نسور معاليه وقوع ذباب
تجاويف ارض في انتفاخ روابي
بظفر على من في الانام وناب .

ثم يرجع الصفاء الى نضير عهده بين الشعاعين .

ولم يكن مطران موسرا طوال حياته بل رقت حاله وهو يصف رقة حاله في (عيد الميلاد) (١) وهي القصيدة التي نظمها وقد ناهز الخامسة والاربعين من عمره في ليلة عيد الميلاد وكان قد خلا الى غرفته غير مشارك الناس في مسراتهم :

وجدتني في غرفتي	وافاقتنا ، ما غرفتني !
مقصورة انكسرت الفرش لطول الالفه	
يرى سرير ملتوى ال	اضلاع خلف بابها
كلته بيضاء ، والبياض	اغلى ما بها
وكتب كثيرة	معربة ومعجمه
في جانب منشورة	وجانب منتظمه
وللثياب ما يسمى	بصوان ان دعني
خزانة ليس لها	قفل وقل ما تعني

وكان ، رحمه الله ، مخلصا لمصر ولحكامها يشهد له الامير محمد علي على ذلك حيث يقول : (٢) " قد عرفت مطران من عهد والدي حتى الآن فرأيت قد امتاز بالنصرافه كل هذا الزمان الى المحافظة على خطة ولاء مستقيمة لم يحد عنها كل حياته القلمية في مصر وهذا الثبات على المبادئ والاخلاص الدائم لمصر والمصريين هو فضيلة يجب اعتبارها واكرام المتحلي بها ."

صلبته بالشعراء الذين عاصروه :

جاء في كتاب (حياة شوقي) (٣) : " كان شوقي يالف مطران ويألفه مطران . كانا صديقين . وان ادب مطران وكريم خلقه جعلاه صديق الجميع :

(١) الديوان ٢٥١ : ٢

(٢) مجلة سركيس ١٩١٣ ص ٢٠٧

(٣) محفوظ ، احمد حياة شوقي ص ١٢٨-١٢٩

وكان رحمه الله ، عفا اللسان ، لم ينل احدا من الشعراء بعيب في محضره ولا في مغيبه . يسمع شعر الجميع ويعجب بشعر الجميع ويتألف الجميع ويعاون الجميع ما امكنته المعاونة . كنت تراه صديق المرحوم ابراهيم الدباغ ، وامام العبد ، واخمد نسيم ، وحافظ ابراهيم ، واحمد محرم ، وعبد الحلیم المصرى .

وكان شوقي يحب مداعبة مطران . وكان مطران يعجب بالجمال ، وله صدقات كثيرات من فضليات اللبنايات والاجنبيات . وكان ربما صحبهن الى المشارب العامة والمنتديات . بصر به شوقي يوما داخلا مشرب صولت ، وكان بصحبته فادة هيفا فائقة الحسن فناداه فجاء وسلم ، وكان شوقي يغار من الشيخ المتصابين المغرین . قال : " يا خليل بك انت لسه ما همدتش ؟ " فضحك مطران وكان كيسا لبيا وقال : " انما اصطحبتها لادلها على علي ابنك . فضحك شوقي وقال : " اطلع من دول . "

المسراة في حياة مطران : (١)

" نشر كاتب ادیب (٢) في احدى الصحف اللبناية مقالا عن خليل مطران ظهر قبل وفاته بسنوات جاء فيه : " سألت الخليل مرة عن امرأة حياته فقال : ان القصة طويلة لن اقصها عليك ، ولكن ثق انه كانت هناك امرأة في حياتي ، وانها لا تزال حتى اليوم ، وستبقى ما بقيت . فسألته : وهل تغنيت بها ؟ فاجاب : كثيرا . وهاك آخر ما قلته فيها :

" فشاب بنو ليلى وشاب بنو ابنها
وحرقة ليلى في الفواد كما هيا . "

فمن هي هذه المرأة وقد كان لها مثل ذلك الاثر في قلب الشاعر ؟ يؤكد لنا الخليل ان هنالك امرأة في حياته ، ونحن نعلم من ديوانه انه كان ضنينا بسره ففي كل موضع يذكر اسما لامراة . فمن سعد وادما ، الى هند وليلى ومارية ! ثم هو يقول في مقدمة " حكاية عاشقين " انه سمى المعشوقة اسما متعدد لتخفى حقيقتها وتصرف عنها الظنون .

فالخليل ان متكم التكم كله ، وهو يعمل بكل ما اوتيه من جهد على الاحتفاظ باسم من يحب ، وتراه سالكا سبل المداورة ليصرف الانظار عن حقيقة عاشقين احبا حبا مبرحا

(١) معلوف ، شقيق - العصابة الاندلسية مجلد ١٠ (١٩٤٩) ص ٢٢٩

(٢) هو منير كريدية - راجع الكتاب الذهبي ص ٢٤٥ ، نقلا عن (بيروت المساء)

نالتقيا ونعما وشقيا كما ستزىء ، حتى اذا كان الفراق الفاجع ، ومرت على الفراق السنون ،
راح الخليل ينجي روح حسنايه بقوله :

يامنى القلب ونور العين	- م -	مذ كنت وكنت
لم اشأ ان يعلم الناس	- م -	بما صنت وصنت
ان ليلاى وهننىدى	- م -	وسعادي من ظننت
تكثر الاسماء لكن	- م -	المسمى هوانت

من هو البطل في "حكاية عاشقين" ؟

ما صدق الخليل ، رحمه الله ، وكان في ما خلا ذلك صادقا ، حينما مهد "لحكاية عاشقين" بتكره لواقعها وتنصله من حقيقتها في قوله انه تتبع وقائعها ، وكان فيها ترجمان ضمير العاشق ، ولسان فؤاده .

اما شاهدنا على ذلك فهو ما نشر في مجلة الزهور^(١) حينما علقت على احدى مقالات الخليل تائلة : " انه كتبها في اواخر عهده " بحكاية عاشقين " يوم ذهب الى رمل الاسكندرية مستشفيا من دائين كانا قد الما به ، ووصفهما وصفا بديعا ملئه عواطف نفس حزينة يائسة في قصائد من اجود الشعر . . . منها قصيدة (المساء) .

فحكاية عاشقين اذن فاجعة كان الخليل بطلها وقد اصابته من حياته في الصميم لا حادثة تتبعها ليكون فيها ترجمان سواء . وان لما قاله صاحبها " الزهور " قيمة ووزنا ، فقد كانا الصق الناس به واعرفهم بخبيئة قلبه ، كما ان الدلائل على صحة ذلك عديدة ، منها صدق الشعور في قصائد الحكاية ، وتنوع البحور والقوافي وفقا لاختلاف ازمنة النظم وطبقا لتباين اسبابه ، وابدال الشاعر اسم العاشقين بضمير المتكلم خلافا لما درج عليه في سائر حكايات الديوان . ثم ان ما اثبتناه في الفقرة السابقة من ميل الخليل الى صرف الظنون عن حبييته هو الذي حمله ولا غرو على التستر .

هي غرام ست سنوات بدأت حوادثها عام ١٨٩٧ ، وتمت سنة ١٩٠٣ شطراها سعادة الحب وشقاؤه ، ومجالها في الديوان ثلاثون وسبع صفحات .
فالمطران قد عرف المرأة واحبها وسوف نتلمس ذلك في شعره .
هذا ما اردت ان اسوقه بايجاز من حياة الخليل مقتصرا على ما له اثر بارز في شعره ، او على ما يساعدنا على فهمه .

مطران الشعاع

مطران بين التقليد والتجديد

خليل مطران هو احد المهتمين للتجديد والحداثة لحركته المباركة ، ليس في ذلك من شك .

هذا كلام لا يكاد يدل على شيء ، لانه كلام شامل عام ، ونحن نريد ان نرى اين هو التجديد الذي جاء به مطران وما قيمته واين التقليد الذي سار عليه متأثرا خطى الاقدمين .:

ولنبدا بهذا السؤال الهام :

هل شعر مطران جديد كله ؟ ام ان التجديد محصور في مواضيع خاصة لا يتعداها ؟ ومن الانصاف في الاجابة على هذا السؤال ، ان نقول ان مطران جدد في بعض نواحي الشعر ولم يجدد في الشعر تجديداً جذرياً كاملاً : وسوف يأتي الكلام على هذا .

قلنا فيما سبق ان محمود سامي البارودي هو ^{ال}المجددين وباعث الشعر من غفوته وبيننا فضله في احياء الشعر العربي والخرج به من قيود الجناس والبديع الى التجديد في المواضيع وابراز شخصية الشاعر .

وقلنا ايضا ان الشعر قد رقى على يد اسماعيل صبرى الشاعر المترف الغنائي وكذلك على يد شوقي وحافظ فكان ذلك تكملة لما قام به البارودي ، الى ان جاء مطران فحول مجرى الشعر من الاصولية الى الرومانتيكية .:

ولكن مطران الذى سافر الى فرنسا ودرس آدابها كان يجب ان يجدد تجديداً جذرياً فيبتعد عن شعر المناسبات الذى افسد شعره وهبط به عن المرتبة التي كان يجب ان يتبوأها .
وما يراه طه حسين (١) ان مطران تأثر على الشعر القديم ناهض مع المجددين وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فاعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد اليه وحاول ان يعود اليه مجدداً لا مقلداً ، وهو ينبئك بانه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم تتبين به مقدار ما وصل اليه من التجديد وهو متواضع لا يزعم انه بلغ من التجديد ما يريد وانما يترك

(١) حسين طه حافظ وشوقي ص ١٠

ذلك للذين سيأتون من بعده ، وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف وإنما يعلن ثورته على القديم واغتباطه بالعصر الذي يعيش فيه وحرصه^{على} أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ باصول اللغته واساليبها كما يتأثر القداما في اطلاق فطرتهم على سجيتها . وهو فني له في جمال الشعر مذهب ان لم يكن واضحا كل الموضوع ولا مبتكرا كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم لانه يمثل شيئا من المثل الاعلى الفني في هذا العصر فهو يكره هذا الشعر الذي تستقل فيه الابيات وتتأخر وتتدأبر ويريد ان يكون القصيدة وحدة ملتزمة الاجزاء .

ويقول اد هم (١) :

✓ " وخلاصة القول ان شعر مطران ممتاز من ناحية الشعرية والصناعة وانت لا تجد له مثيلا بين شعراء عصره او الذين تقدموه ، فهو نموذج عال لنمط جديد في الشعر العربي وقد ترك هذا الشعر من الاثر في اتجاه الشعر العربي الحديث ما لم يتركه شعر آخر لاي شاعر عربي .

ثم يقول : " وكل التطورات التي لحقت الادب العربي وعلى وجه خاص الشعر ، كانت تتناول الشكل الخارجي ، وهو يتغير بتغير الزمان والمكان ، وليس في هذا اي تجديد ، حتى كان عصر النهضة الاخيرة فظهر مطران محاولا نقل الشعر العربي من الدائرة الذاتية الفردية التي كان يدور فيها من قبل ، الى دائرة اوسع وارحب ، هي دائرة الحياة كلها والتي دارت فيها الآداب الاوربية من قبل . فمطران من هنا حد فاصل بين عهدين في تاريخ الشعر العربي ، عمل في الشعر العربي ما لم يعمله جميع العرب مجتمعين . وانت يمكنك ان تعرف مطران على حقيقته اذا عرفت انه حاول ان يعبر عن الحياة الكلية ، عن درامتها الفنية ، فنجح في كسر الحدود الذاتية الفردية فانساب بعض الشعر العربي في اتجاه جديد يعتبر مطران نقطة التحول فيه .

ولنرجع الى رأى الشاعر نفسه في التجديد فنجده يقول : (٢) " اردت التجديد في الشعر فبذلت فيه ما بذلت من جهد عن عقيدة راسخة في نفسي ، وهي انه في الشعر ، كما في النثر شرط لبقاء اللغة حياة نامية . على اني اضطرت ، مراعاة للاحوال التي حفت بها نشأتي ، الا افاجي الناس بكل ما كان يجيش بخاطري وخصوصا الا افاجئهم بالصورة التي كت اوثرها للتعبير لو كنت طليقا . فجاريت العتيق في الصورة بقدر ما وسعه جهدي وتضلعي من الاصول واطلاعي على مخلفات الفصحا . وتحسرت منه ، وانا في الظاهر اتابعه بنوع خاص من الوصف والتصوير ومتابعة

(٢) مطران الكتاب الذهبي ص ٢٦٧ .

(١) اد هم ص ٢١٦ .

الفرص . وبهذه الطريقة مهدت للجديد قبولا في دوائر كانت ضيقة ، ثم أخذت تتسع الى وراء ظني وتستمر في الاتساع بحكم العصر وحاجاته ، والعلم ومقتضياته ، والفن ومستحدثاته . الى ان يقول : " اريد شعرنا ان يكون مرآة صادقة لعصرنا في مختلف انواع رقية . اريد - كما تغير كل شي في الدنيا - ان يتغير شعرنا ، مع بقائه شرقيا ، مع بقائه عربيا ، مع بقائه مصريا ، وهذا ليس بامعجاز ."

هل رأيت كيف يقصر على انه كان يجارى العتيق في الصورة ويتحرر منه وهو في الظاهر يتابعه بادخال الجديد من الوصف والتصوير وهدم التزام القافية الواحدة وادخال فنون القصص والملاحم وغير ذلك ، حتى لا يجرح احدا او يثير على نفسه العواصف ؟

وفي حديث مع الشاعر^(١) يجيب على سؤال يدور حول التجديد والمجددين وهل هو مجدد ام قديم يقول : " لم يقولوا عني اني قديم والواقع اني اجرا من حافظ وشوقي على التجديد ولكي مع ذلك لم اجدد شيئا عظيما . والواقع ايضا ان اسلوبنا قديم يدخله شيئا قليل من المصطلحات والافكار الجديدة . ولكن ليس قصدى من التجديد ان نقتح بقليل من الالفاظ والعبارات انما اقصد بالتجديد ان يخلق الشاعر موضوعا من اوله لآخره ويصوغه ويصوره ويفصله على النحو الذي وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولدات قرائحهم . فامرو القيس نظم القصيدة والمتبني فخر ومدح ونحن ما زلنا مثلهما . ولكن التجديد الذي يحتاج الى الخلق والابداع وتكوين الموضوع من اوله لآخره لم يقدم عليه ولم يفكر فيه احد للآن . ومن اجتره واعلى التجديد ما زالوا يعدون قدما وهناك محاولات ولكنها ما تزال في طريق التكامل ."

وانا لنجد في هذا القول اعترافا صريحا بانه " لم يجدد شيئا عظيما " ، والذي يبدي ومن هذا القول ان مطران عارف لمفهوم التجديد : " هو ان يخلق الشاعر موضوعا من اوله لآخره ويصوغه ويصوره ويفصله على النحو الذي وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولدات قرائحهم ."

فلماذا لم يجرو مطران على هذا التجديد ؟ هل يعود ذلك لعجزه او لخوفه من كساد بضاعته عند قرائسه ؟

(١) حديث مع شاعر القطرين - الهلال م ٣٦ (١٩٢٨) ١٠٣٤٧

نحن لا ننكر على مطران تجديده - في بعض قصائده المعدودات - المواضيع والصيغة والتصوير ولكن هذا قليل جدا اذا ما قيس بباقي شعره ، من شعر مناسبات ورتاء ومدىح الذي يخلو من كل تجديد . بل ان نظمه هذا الشعر يدل على عدم فهمه للتجديد الذي يطالب به فلو جد حقا وتأثر شعراء الغرب العظام لما قال هذا الشعر او على الاقل لما حشره في دواوينه فاختلط الزوان بالقمح :

ويقول في مكان آخر: (١)

"اهي لما رأيت الشعر لا يزال على ما كان عليه من اقدم زمانه ، لم يتجدد ولم يتطور ، بل نأخذ القديم وننشي الجديد على طرازه واذا ادخلنا عليه ايجاءات العصر جاءت متكلفة ، قلت ان التجديد يجب ان يشمل الاساس ، وكان امامي صعوبات شتى لبلوغ هذه الغاية ولكني اهتمت اقتحامها في شي من المداورة يساعد طبعي عليه ، رأيت المداورة خيرا من المباشرة في تحريك شي تركر جدا في نفوس الناس وهائدهم ، فعصا دمته لا تقنعهم وقد تصرفهم عن الشي الجديد ، اما اذا صدمته من جانب وتركته من جانب فقد تقنعهم ولا تغفرهم . وهكذا احببت ان يبقى الشعر كما كان من ناحية البحور والروي والاساليب التي احبها الناس من جهة معرفة اللغة بحق ، وان ادخل مقابل ذلك الوحدة على القصيدة بدلا من ان تكون قصيدة متناكرة باجزائها كل بيت منها لمعنى او لغاية . قلت لنفسي سأتعب من ناحية الشكل والتم القيد المعروفة ، اما من هذه الناحية فساسير وسيساعد الزمن على تحقيق ما ابغيه . وكنت اجتمع وشوقي وحافظ وغيرهما وانبههم الى هذا . وذات يوم نظم شوقي قصيدة ولا اظن ان احدا يرمعه فيها من ناحية صياغتها ، فقرظها اديب بقوله انها جمعت جميع المختارات الشعرية والمحسنات اللفظية في شعر العرب ، فقلت ان هذا التقريظ هو النهاية فيما يمدح به الشعر ولكن بقي انه ليس في القصيدة من جديد ، وبقي ان نعلم ان مبلغ ما وصلنا اليه في شعرنا الحديث وان ضاهى ارقى شعر العرب ، يظل شعرا صناعيا ويظل شعرهم رضاعيا لاننا ننظمه نحن بطريق المحاكاة وكانوا ينظّمونه هم عن طريق الدفع الفطري فلا يمكن ان تقول في هذا الزمان شعرا صافيا مثل شعرا بي تمام ، وحتى عندما تأتي بمثل لا يكون شعرك انت ."

(١) مطران ، خليل مجلة الطريق م ٤ عدد ١٤ ص ٣

وفي هذا القول ايضا اعتراف من جانب الخليل انه (ابقى على البحور والروى
والاساليب التي احبها الناس)

وفي هذا الاعتراف ما يعزز القول بان تجديد مطران ما كان تجديدا جذريا
كما قلت انما جاء في نواحي خاصة فقد اعتمد على عنصرى الخيال والفكر وتأثر بالرومانتيكية
واتقن الشعر القصصي وفيما عدا ذلك فهو يقصر عن غنائية شوقي وراثوه دون رثاء
حافظ.

وهو يصف شعره في (حكاية نشر هذا الديوان) (١)

خواطر وضاعة	بها ملامح السهر
البستها من ادعني	ومن دمي هذى الحبر
قضية غريبة	عصرية نسج مضر

فاذا شعره غربي عصرى في روحه ومضرى في نسجه :

وفي (تقرير) رواية شعرية لعادل الغضبان (٢) يقول :

نحن لم نخترع جديد المعاني	وغلونا في لفظها تحسينا
فتح الفن كل باب حديث	وعلى عهد العتيق بقينا
فخذوا انتم من العلم ما اعطى ،	وقولوا الطريف قولا مبينا
لغة الضاد لا تضن عليكم ،	ان جد دتم ، بكل ما تبتغونا
كل يوم يصيب في منجم منها	الاديب الاريب كنزا دينا
اخذ الغرب من مغاوصنا السدر	وفي صوغه اجاد الفنوننا
وهو يابى الجمود يوما فما للشر	ق لا يسأم الجمود قروننا ؟
فكروا فكروا ، مليا مليا ،	واستقلوا بوحيكم راشدينا
واستمدوا هدى سجيتركهم واتخذوها	لكم نصيحا امينا
فاذا ما انشأتهم ، فاخلقوا	خلقا تكونوا حقيقة منشئنا
ذان ذان التجديد ، لا فعل من يمكث في	معقل القديم سجيننا

(١) الديوان ج ١ ص ٣٠٦

(٢) الديوان ج ٤ ص ٢٥

وفي هذا القول يعترف مطران انه ، وزملاؤه الشعراء من معاصريه لم يخترعوا المعاني الجديدة وانما حسنوا في الالفاظ . ويطلب من الشعراء الناشئين ان يقبلوا على التجديد ويبتعدوا عن الجمود شأن شعراء الغرب وما التجديد سوى الخلق الفني الرائع :

وهو في مناسبة اخرى يقول وهو مدرك لحالة الشعر القديم وواع لما يجب ان يكون عليه الشعر الجديد :

خدع البهاج في طلاء مجال	تعى على الشعراء اوهام لها
وتومن الضرب المبرح بال	وضروب ايقاع ، مرجعة على
سرعان ما تفضي الى الاملال	تحلوا بالفتا لها ، لكنها
وتنافس العمران بالاطلال	وتظل من مجرى الحياة بمعزل
ما الشعر كل الشعر محض خيال	ان كان بعض الشعر هذا شأنه
لملاحه ، وتغزل بغزال !	وتعلل بمدامة ، وتعذل
في كل شعب مصدرا لجمال	الشعر ينتج الجمال ، وينتحي
تجلو الحقائق في احب صقال	بالحسن والمعنى له المامة
ويعيبره في العين لمع آل	هو مورد يروي النهى بنميره
ومطيل ما تدني من الآجال	هو مثقب العزمات في طلب العلى
من زنده كعظام الافعال	لا شي * يلهمه ويقتدح اللظى

ويدرك مطران ان الوزن الواحد والروي الواحد يؤديان الى الملل وهو في ذلك قصيب وان يكن ما فعله لتلافي هذا الملل جد قليل .

والشعر ينتج الجمال . صدق مطران .
ويذكر عبد المنعم خفاجي . (١)

ان مطران يجمع بين الروح الحديثة في الشعر والمحافظة على الاصول القديمة في اللغة والتعبير . ثم ينقل رأى مطران في التجديد حيث يقول : " اريد التجديد يمثل في التفكير بمعناه البعيد الغور ، الذي هو منبع الابتكار ليحل ذلك التفكير تدريجيا

محمل الخيال المشتت الذاهب في تشتت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذي لا يصدر عن الحقيقة غالباً التي هي مصدر كل جمال ثابت . ان هناك مجالاً للعقل المبتكر ، والفكر المولد ، والتصوير البارع ، مع الخروج عن الابتذال ، ومجارات اسمى ما تضعه قرائح اعظم الادباء في الغرب .

ويقول الدكتور مندور : (١)

"على انه الى جوار المعسكرين اللذين كانا يقتتلان حول الشعر في مستهل هذا القرن ، وهما معسكر الشعر التقليدي ومعسكر الديوان كان هناك عملاق لم يناجمه اصحاب الديوان لانه لم يكن من دعاة الشعر التقليدي ، ولكنهم مع ذلك لم يحتضنوه ، ولا اعترفوا باستاذيته وتجديده وتطعيمه الشعر العربي باصول واتجاهات الشعر الغربي وخبرته بالشعر من الذاتية الى الموضوعية وتطويع قوالبه واوزانه للشعر القصصي والتصويري ^{القصي} والخيالي . وهذا العملاق العظيم هو خليل مطران ."

الدرامي

ومع ذلك ، فان عبقرية مطران لم يتبدد ارجها سدى ، بل لعل تلك العبقرية ، هي التي كانت نقطة البدء في تطور الشعر الحديث ، وتوسع فنونه وتجديد معانيه واتجاهاته ، وذلك على عكس جماعة الديوان التي ربما كان تأثيرها في النقد ، بل وفي الهدم اكبر من تأثيرها في الاشياء والتوجيه والانتاج وتشجيع الشعراء الناشئين والحنو عليهم ودفعهم نحو الابتكار والتحمس للشعر والايان به .

فمطران قد مهد بلا ريب تمهيداً قوياً للشعر القصصي او الشعر التمثيلي بالرغم من انه لم يخرج بالشعر العربي عن قالب القصيدة الى قالب الحوار ، وذلك لانه قد طوع القصيدة لعناصر القصة والدراما ، ولكن في ذلك اكبر تمهيد لظهور مسرحيات شوقي واحمد زكي ابوشادي وهزيم اباطة الشعرية .

على ان النقاد اختلفوا في تجديد مطران وبرز منهم من جرده من هذه الصفة وهم جماعة مدرسة الديوان ، العقاد وشكري والعاظمي .

(١) مندور ، الدكتور محمد الشعر المصري بعد شوقي ص : ١٢١

* فطران لم يجزوا على تحطيم الوزن والقافية بل نراه في قصيدته (نيرون) يستنفد المفاجم في التفتيش عن القوافي . ولكنه يتساهل احيانا ويفلت من قيد القافية الواحدة . كما في اهم قصائده : (الوردتان) ج ١ ص ٣٥ . (شهيد العروة) ج ١ ص ٨٢ (الاقتران) ج ١ ص ١٣٨ . (فنجان قهوة) ج ١ ص ١٤٨ وفي بعض قطع من (حكاية عاشقين) ج ١ ص ١٨٥ . (الجنين الشهيد) ج ١ ص ٢٢٣ (الطفلان) ج ٢ ص ٦١ (هل تذكرين) ج ٢ ص ١٣٥ ، (عيد الميلاد) ج ٢ ص ٢٤٦ ، (حكاية وردة) ج ٢ ص ٢٨٨ (يوم البرميل) ج ٤ ص ٧٣ و (ذكرى) ج ٤ ص ٢٦٢ .

< ونلاحظ ان هذا الخروج على القافية الواحدة انما يكون اكثر ما يكون عند مطران في القصائد القصصية ولا يكون الا نادرا في الرثاء والمديح .

وينقل حنا الفاخوري (١) فقرة من "المجلة المصرية" (م ١ ج ٣ ص ٨٥) ، لمطران حيث يقول :

"ان خطة العرب في الشعر لا يجب حتما ان تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم واخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا واخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا ، ولهذا يجب ان يكون شعرنا فعلا لتصورنا وشعورنا لا تصورهم وشعورهم ."

ولنلتفت الى مقدمة مطران لدواوينه حيث يقول : (٢) "فشرعت انظمه لترضية نفسي حيث اتخلى . او لتربية قومي عند وقوع الحوادث الجلى . متابعيا عرب الجاهلية في مجارة الضمير على هواء . ومراعاة الوجدان على مشتها . موافقا زماني فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب لا اخشى استخدامها احيانا على غير المؤلف من الاستعارات والمطروق من الأساليب . ذلك مع الاحتفاظ جهدي باصول اللغة وعدم التفریط في شي منها الا ما فاتني علمه ."

الى ان يقول : (٣) "هذا شعر ليس ناظمه بعيد . ولا تحمله ضرورات الوزن او القافية على غير قصد . يقال فيه المعنى الصحيح ، باللفظ الفصيح . ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد ، ولو انكر جاره وشاتم اخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ."

(١) فاخوري ، حنا - تاريخ الادب العربي ص ٣٢ : ١

(٢) المصور ، نفسه ص ٩

(٣) مطران ، خليل مقدمة الديوان ج ١ ص ٨

بل ينظر الى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، والى جملة القصيدة في تركيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصوير وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشغوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .*

الى ان يقول (١) على انني اصح ، غير هائب ، ان شعر هذه الطريقة - ولا اعني منظوماتي الضعيفة - هو شعر المستقبل لانه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا .*

وقد يكون مطران اول شاعر عربي يفهم الشعر على انه يتناول (الحياة والحقيقة والخيال) ولو اضاف الى هذه العناصر الثلاثة عنصر الذوق الفني لكان تعريفه للشعر تعريفا تاما :

ونرى ردا على هذا القول ان الشعر اكرم من (ترضية النفس حين تتخلى) ومفهومه انه (للوعظ والارشاد) مفهوم قديم لا يتشى مع التجديد ومع روح العصر .

الشعر في عرفي عملية فنية فيها خلق وابداع ، وهو ارتقى الصناعات الفنية يجمع بين الفكر والخيال ويخاطب العقل والعاطفة والذوق السليم .

ونرى ايضا ان التجديد لا ينهض على تجديد في (الالفاظ والتراكيب) بقدر ما يقوم على فهم الشعر فهما صحيحا يجعله بحق ارتقى الصناعات الفنية : فاذا كان الشاعر حرا بحياته الشخصية حرا في ان يكون له ما يشاء من الاصدقاء والروابط الاجتماعية فهو ليس حرا في ان يسخر شعره لمثل هذه الاشياء : ذلك لان حياة الشاعر ملك لنفسه اما فنه فهو ملك لسواه .

وفي رأى ابي شادى (٢) ان مطران جاء بمذهب الحرية الفنية الصحيحة التي تحترم شخصية الفنان واستقلال الفن عن الصناعة والبهاج والاناقة الزخرفية وكل ما يفرض العبودية على الفن والفنان من الفاظ وتبويد اتباعية لا يحتمها الجمال المطبوع واصالة الفن . دعم مطران وحدة القصيدة وشخصية الفنان وهزز رسالته كما تدعم الديمقراطية حقوق الانسان ، وفتح له باب الحياة على مصراعيه كما افسح له آفاق الخيال ، وبرز له كل شي في هذا الوجود ، صغيرا كان ام كبيرا ،

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ - ١١

(٢) ابو شادى ، احمد زكي الاديبي ١٢ عدد ١ : (١٩٥٣) ص : ٤٠٣

كموضوع شعري خليق بعناية واهل للتناول الفني اذا ما استطاع الشاعر ان يتجاوب معه ، وحبس اليه الموضوعات الانسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتية فحسب ، واقتنع شعرا مدرسته بان على كل منهم رسالة مثالية لا بد له من ادائها ، وليصت وظيفة الشاعر ان يكون نظاما لغويا او بين المرتلين الانتهازيين ، بل عليه ان يكون بين زعماء الفكر ورسول الوجدان ودعاة الاصلاح واعلام الايمان لجيلهم ولما بعد جيلهم وان يجمع بين كل القيم التي توهم الزعامة الروحية العقلية التي تراوح ما بين احلام الفنان وحكمة الفيلسوف الواقعي .^٥ بهذه التعاليم وما اليها انجب مطران وتلاميذه انجابا ممتازا شرف العربية كما اغنى الادب الانساني الصادق .^٦

ومن الانصاف ان نعترف لمطران تجديده في خروجه بالشعر العربي من مجاله الضيق وفلكه المحدود الذي ظل يدور فيه منذ اول نشأته ، وجعله يطل على مدى ارحب ويشرف على مناخات اجد . فلم يعد الشعر كل الشعر عنده محصورا بالمدح والغزل والوصف والفخر والهجاء والرثاء ، بل اخذ يتناول مفاهيم جديدة ويعبر عن فكر راقية ويتناول مواضيع تتعدى حدود الزمان والمكان وذلك واضح في قصائده الشهيرة امثال (المساء) (الجنين الشهيد) (الاسد الباكي) (نسيرون) وقليل غيرها .

واخذ مطران بالرومانتيكية التي اعجب بها من قراءته للشعراء الفرنسيين ، امثال لامرتين وموسينه . وهناك ظاهرة يجب ان نلتفت اليها وهي ان مطران الذي سافر الى فرنسا - وكان قد درس الفرنسية واتقنها قبل سفره - نزل تلك البلاد ومدارس الشعر فيها قائمة على تحطيم الرومانتيكية فمن رمزية الى واقعية الى طبيعية الى برناسية ومدرسة الفن للفن قامت جميعها على انقاض الرومانتيكية التي اصبحت تسمى داء العصر .

وهذا ما يقوله الدكتور احسان عباس^(١) "بلغت الرومانطيقية اوجها في الثلث الاول

من القرن التاسع عشر . وفي المانيا وبعد سنتين من وفاة جوته حدث تغير وتوقف ، اودى بشمس الرومانتيكية الى الكسوف ، وكانت فرنسا اسبق من المانيا الى التعبير عن هذا التحول فيما سمي الواقعية والطبيعية على يد فلوير وموباسان وزولا وغيرهم .^٥

(١) عباس، الدكتور احسان ، فن الشعر ص: ٤٩ .

فلماذا لم يتأثر مطران بهذه المدارس المستحدثة واخذ بالرومانتيكية ؟ ألان هذه المدارس لم تلائم هوى في نفسه ؟ ام لانه ما استطاع ان يفهمها ؟ اني لا ارى ان مكوث مطران في فرنسا افاده شيئا كثيرا ، وان يكن قد استفاد اكثر من شوقي :

ومهما يكن من امر فان السنتين اللتين امضاهما في فرنسا معتمتين من حيث معرفة اخبار الشاعر وصلاته الادبيية بالشعراء والادباء الفرنسيين ومدى تأثيره بهم . فجل ما نعرف انه كان على صلة بجماعة تركيا الفتاة ، فهل يعني هذا ان نشاطه السياسي قد غلب على نشاطه الادبي ؟

فهو لم يذهب الى هناك قصد الافادة من الادب الافرنسي والاطلاع على هذه المدارس الحديثة وفهمها والاخذ بها . وانما بقي نظره مثبت على رؤس كبار من شعراء فرنسا امثال هيجو ولامرتين وموسيه .

سافر مطران مرغما اول الامر لانه كان مضطهدا من قبل السلطنة التركية التي حاولت اغتياله فنصحته اهله بالسفر ، فهو لم يذهب طالب علم يقدر ما ذهب طالب حماية وعمل شأن من سافر من اللبنانيين في طلب العيش . والامر الثاني ان مطران قد افاد من الادب الفرنسي في دراسته في زحلة وبسروت وقرأ نماذج من الادب الرومانتيكي مما جعل الرومانتيكية تلاقى هوى في نفسه فلم تقو هذه المدارس الجديدة على زعزعتها . امر ثالث ان الانسان متمسك بما يألف محافظ على ما يعرف لا يقبل بسرعة على بهرج الجديد المحدث . وامر رابع هو ان الرومانتيكية قد تكون وجدت هوى في نفسه ولامت مزاجه فتأثرها دون سواها . فهي قائمة على التغني بالذات وانعكاس لما في دخيلة النفس ، ومطران بطبيعته رقيق حواشي النفس شديد الحساسية :

فيران مطران لم يقلد شعراء الفرنجة الا فيما يتعلق بالاساليب وحافظ على نهج العرب وصياغتهم ومثانة لغتهم :

وفي رأى شفيق المعلوف : (١) * ان شعر مطران هو مدرسة الشعر الرفيع في هذا العصر . وان لمن الاجحاف انكار ذلك : فلو نظرنا الى اعلام القريض ممن هم في طبقة هذا الشاعر ،

(١) المعلوف ، شفيق العصابة الاندلسية م ١٠ سنة ١٩٤٩ ص ١١٤ ، ٢٢٦ ، ٣٣٨

لرأينا على نتاجهم مسحات من الطريقة العربية القديمة يشيع فيها ما في القديم من فصاحة أسلوب وبعيد جرس وجلال بيان ، كما هو الواقع في شعر البارودي وتامر الملائط وصبري وشوقي وحافظ ، فانهم لم يندوا في كل ما نظموه عن اساليب الاولين ، بينما نرى ان خليلا على رغم ما في شعره من احكام الرصف وجمال الافصاح ، يزين منظومه بابدع ما هو في متناول القرائح ، مجلوا في غلائل من الفن المغربي على احدث ما في الفن الادبي من طرق ، حتى لو رحت تترجم ما يقوله الى لغات الاعاجم لما وقعوا منه الا على شعر عالمي نفيس ، تفاخر به امة صاحبه سائر الامم : ولن ينصف مطران الانصاف كله ، الا متى بسط نتاجه في معارض آداب الشعوب ، وحرر من جلباب اللغة الام ، ليعرض خلوا من الزخرف ، ويبدع عاريا كما اجتجفه القلب من الفكر وقدفت به العبقرية الى النور .

أن يترجم مطران الى الغرب فكرة لا بأس بها ومقياس لتقييم شعره ، ولكن لماذا لم يترجم ؟ ومن يضمن لنا انه اذا ما ترجم يستطيع ان يقف على قدميه امام شعر الغرب الراقى ؟ ومن يضمن لنا ايضا انه حتى اذا ما ترجم لم يجدوا فيه اقل من بضاعتهم ردت اليهم ؟ .

وعلى كل حال فالنقاد متفاوتون في النظر الى مدى تجديد مطران : فمنهم من يرى انه مجدد في كل شعره . ومنهم من يتحفظ ويرى ان التجديد ليس الا في قليل من شعره ولا يتعداه الى التجديد الجذري .

واري انه في الحديث على التجديد والمجددين يجب ان ننظر في اي زمن يكون هذا التجديد وبالنسبة الى من : هل هو مجدد بالنسبة الى الشعراء العباسيين ؟ ام بالنسبة الى معاصريه من شعراء العربية في قطر خاص ام في جميع الاقطار ؟ ام هو مجدد بالنسبة الى شعراء المهجر ؟ ام هو مجدد بالنسبة الى الشعر العالمي دون تخصيص ؟

لا شك في ان مطران مجدد بعض التجديد بالنسبة الى معاصريه من شعراء مصر امثال البارودي وصبري ، وشوقي وحافظ وعبد المطلب وغيرهم . ولكنه يقصر في تجديده هذا اذا هو قيس بالتجديد الذي جاء على ايدي شعراء المهجر : اما اذا قيس شعره بشعر الغرب الذي عاصره بدا قديما ليس فيه جديد :

ومهما يكن من امر فان الناس لم يقبلوا على شعر مطران جميعا ، فرضي عنه فريق وازور عنه فريق آخر وهذا طبيعي يحصل في حال الانتقال من شعر القوه الى شعر لم يألوه يحتاج

التي درس وامعان نظر لانه مزيج بين الفكر والخيال .

ويقول عادل الغضبان: (١) " ما من شك في ان ثقافة العصر ستجعل من هذا الشعر شعر الغد وستسجل للخليل انه سبق عصره بنحو نصف قرن . " ثم يقول : " وكيفما كان الامر فشعر الخليل مرآة عصره وبلاده رثى ورواسى ومدح وهنأ ووصف ورسم وعلم وهذب وجمع وسجل وثار واستثار ورضي واسترضى وبعج مرقمه بالسحر ينفته افانين والوانا ويخلد على الزمن فضائل النفوس ومآثرات الكرام . "

واذا نظرنا في هذا القول نرى ان الغضبان جعل مطران سابقاً لعصره بنحو نصف قرن لانه (رثى ورواسى ومدح وهنأ الخ) . وعندى ان مطران لو ابتعد عن شعر المناسبات هذا واكتفى بالقليل من شعره الصافي الذي جاءه عن احساس وصدق عاطفة لكان قد سبق عصره بحق . اما ان نرى في شعر المناسبات عند الخليل سبقاً فهذا امر لا يقهره الا من كان ضعيف البصر .

وفي رأى جريدة (لانوفيل لترار) (٢) " ان خليل مطران جدد في جميع المناحي الادبية ، مستوحياً ثقافته الاوربية دون ان يجرح التقاليد المتأصلة في نفس كل شرقي . " وكذلك يرى الاب روفائيل نخله (٣) " ان مطران قد احدث بجسارة مدهشة انقلاباً عظيماً في شعر اهل زمانه بل في الشعر العربي على وجه الاطلاق . "

ثم يسأل ما الذي جرده مطران ويجيب : كل شيء ما عدا الاوزان ، جدد المواضيع والتعابير ، فحسبه بذلك فضلاً بل مجداً عظيمين ، يخلدان اسمه في تاريخ ادبنا الناهض . وهذا قول ملقى جداً لم يدعيه مطران ، المتواضع ، نفسه . وكذلك قوله : " ان مطران حين نزل الى ميدان القريض كان هذا الفن قد هوى عندنا الى اقصى دركات الانحطاط كان اكثره تافها بمواضيعه مبتدلاً بتعابيره ، يكتفي اصحابه المتشاعرون بأن يستظهروا شعر الاقدمين ، منتزعين منه رقعا يضمون بعضها الى بعض ويؤلفون بها منظوماتهم السقيمة ، الخالية

(١) الغضبان ، عادل الكتاب ابريل ١٩٤٢ ص ٨٣٨

(٢) المكشوف ، عدد ١٢٩ ص ٤

(٣) نخلة ، الأب روفائيل ، المشرق ٤٦ ، ١٩٥٢ ، ص ٦١٢

من الحقائق السامية والعواطف النبيلة والخيالات الجديدة ، فليس لها ، والحالة هذه ،
من الشعر الا اسمه .*

وهذا قول مبالغ فيه ايضا لانه ليس من احد يقرانه لما نزل مطران ساحرة الشعر
كانت خالية الا من النظامين . فاين نذهب بالبارودي واسماعيل صبري ، واين نذهب
بالشاعرين الكبيرين شوقي وحافظ اللذين عاصرا مطران وجروا جميعا في حلبة واحدة . فشوقي ،
امير الشعر ، اشد غنائية من مطران ولهذا عاش شعره وفني . وحافظ يزه في الرثاء
وقول الشعر الجزل الفخم :

ومن النقاد الذين ينكرون التجديد على مطران ويضعفونه - بالاضافة الى مدرسة
الديوان التي مر ذكرها - الاستاذ مخائيل نعيمة ؛ (١)

"حاول مطران في بد" نشأته الشعرية ان يخرج على المؤلف من الاساليب ، وان
يتكبد السبل المطروقة ، وان يجعل من القصيدة وحدة متماسكة ، وان ينوع القافية في
القصيدة الواحدة ، وان يعالج الشعر القصصي ، ويطلق موضوعات ما كان الذين سبقوه يحسبونها
جديرة بشرف الشعر ."

ثم يقول : "ولكن مطران الذي شا" في بد" نشأته الشعرية ان يكون من
المجددين برغم "المتحنتين الجامدين من المتطسسين الناقدين" ما لبث ان عاد الى حظيرة
المقلدين . فما تمكن من التغلب من قيود بيئته وزمانه . اما المتجديد الذي جا" به
فقد اقتصر على بعض القصص يسبكه في موشحات من النوع الحديث ، ولكن في موضوعات مأخوذة
من احداث يلتقطها هنا وهناك وهناك مما تنقله الصحف السيارة والسنة الناس في كل يوم ؛
فلا ابتكار ، ولا خلق ، ولا مقال واسعة غنية يفتحها الخيال في العالم الباطني او الخارجي ."

وهذا قول وان يكن فيه شيء من القساوة هو قول صادق الى حد كبير : فكيف يريدوننا
ان نفهم التجديد اذا كان التجديد فهم الشعر على انه يسخر لكل مناسبة وينحط الى اسفل
الدركات .

(١) نعيمة مخائيل الرسالة سنة ٣ عدد ٥ ، (١٩٥٢)

وهكذا يكون الخليل في نظر مخائيل نعيمة قد ابتدأ مجددا وانتهى مقلدا
فهو خاتمة القديم وبداية الجديد .

ورأى بعض النقاد ان الخليل لم يقطع الصلة بينه وبين اسلافه ومعاصريه من الشعراء
فنظم في التهاني والمديح والتكريم والرثاء : ثم يأخذ هولاء في تبرئة الشاعر الذي تضرره
الحياة الاجتماعية الى مماشاة معاصريه والسير على مناهجهم . وعندى ان الشاعر العبقري
لا يأبه الى مماشاة عصره بل يطبع هو عصره بطابعه ويجعله يماشيه بل ويمشي وراءه .

وفريق آخر لا يرى فضلا لمطران في تجديده ذلك لانه لم يكن في يده ان يقف
في وجه التجديد . ويمثل هولاء العقاد الذي يقول (١)

" اما انه من المجددين فذلك ما لا ريب فيه ، ولكنه لا فضل له في تجديده لانه لم يكن
يستطيع غيره . وانما العناء كل العناء في التجديد الذي ينان فيه الانسان موروثاته وقياساته
ويتخذ له فيه طريقا غير الطريق المرسوم له من قبل وجوده .

اما الاستاذ مطران فقد كان في حاجة الى جهد لاجتباب التجديد ولم يكن محتاجا
الى جهد لاتباع مناهج الادب الحديثة ، لانه دح على الدراسة الاوروبية ولم يفرض عليه
الماضي الموروث ان يتشيع تشيع العقيدة لبقايا الآداب العربية او بقايا الآداب الاسلامية ،
فعناره حين يعرض في طريق التجديد عشر خطوات دون العناء الذي يلقاه في الخطوة الواحدة
رجل مثل حافظ ابراهيم .

وبعد ان عرضنا الى آراء هولاء النقاد الذين نستطيع ان نقسمهم الى فريقين : فريق يرى
ان مطران حامل لواء التجديد في الشعر العربي الحديث ، وانه مجدد في جميع شعره دون
استثناء . وفريق آخر لا يرى ان مطران قد جدد تجديدا جذريا فتجديده ضعيف
يتناول بعض نواحي شعره ولا يتعداها :

على ان مطران قد كسب عطف النقاد لاسباب اهمها :

(١) كرههم لشوقي وتحاملهم عليه وحسد هم له جعلهم ينظرون الى مطران نظرة عطف ورضى :

(١) العقاد شعراء مصر ص: ١٩٩

(٢) شخصية مطران محببة لدى الجميع لانها قد احتوت على جميع عناصر الرجولية وهو لم يدخل فريقا ثالثا في اية خصومة ادبيية ، كالتي ادخل فيها شوقي وحافظ .

(٣) ومطران لم ينهج النهج الاتباعي المعروف بل نحا منحى ابداعيا جعله ملفت الانظار .

هذا ، ومهما اختلف في الامر فان المنصف لمطران يقف موقفا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ، فلم يكن مطران كما اراد الفريق الاول مجدد دا في كل شعره حاملا لواء التجديد ، وهذا امر بهدي اذ انه لو جدد مطران لما كانت الحاجة ماسة اليوم الى التجديد الذي يرون له شعراء المدرسة الحديثة ، ثم ان هناك امرا يجب ان نلتفت اليه وهو ان الصراع قائم بين القديم والجديد في كل زمن وما يلبث الجديد ان يصبح قديما . قام دعاة التجديد وعلى رأسهم ابونواس يدعون الى التجديد في العصر العباسي وتبعتهم مدرسة المهجر وتبع ذلك المدرسة الحديثة في الشعر التي سمت نفسها مدرسة الشعر الحر . فالجديد يتجدد دائما .

ولم يكن مطران ، والحق يقال ، كما اراد الفريق الثاني الذي كاد ينكر عليه كل فضل في التجديد ، اذ انه لا يستطيع ان ينكر منصف ان مطران يمتاز عن زميليه شوقي وحافظ في الاخذ بيد الشعر والخروج به من حدود الكلاسيكية الضيقة التي يسميها مخائيل نعيمة " الكلاسيكية المزيفة " ، الى آفاق الرومانسية الرحيبة . واننا نستطيع ان نحصر تجديده مطران في الخطوات التالية :

- ١ - المواضيع
- ٢ - الخيال
- ٣ - الاتجاه الرومانتيكي
- ٤ - الشعر القصصي
- ٥ - نظرة جديدة الى الطبيعة
- ٦ - وحدة القصيدة
- ٧ - الشعر التمثيلي للمآسي .
- ٨ - الشعر الانساني
- ٩ - صك تعابير شعرية جديدة :

اكتفي الآن بذكر هذه النقاط وعدم شرحها والتوسع بها لان ذلك سوف يأتي فيما بعد .
واذا لم يستطع مطران ان يجد تجديد جذريا يتناول مفهوم الشعر وقوابله
فهو ليس المسؤول الوحيد عن هذا التقصير ولكن يشاركه في ذلك فقدان الناقد المثقف الموجه
وجمهور القراء الواعي المتذوق الذي يفرق بين الغث والسمين ويمد يده يأخذ هذا الجديد
ويقبل عليه . فقد اصبح الشاعر بفضل وسائل النشر من طباعة وصحافة ومجلات واذاعات
وتسجيلات ، يكتب للقراء مخاطبا اياهم مقيما معهم صلات وروابط من المودة والالفة .
ولهذا التأثير المتبادل اثر كبير في شعر الشاعر وفنه وفي ذوق الجمهور وثقافته . فاذا
لم يقبل الجمهور على شعر الشاعر وادب الاديب اصاب هذا الاخير انتكاس يجعله يعدل
مذهبه ويغير طريقه لكي يلائم اهوا قرائه .

ولا شك في ان مطران الذي اخذ يعد نفسه للتجديد المجدي وجد عدم استعداد
وهدم تشجيع من كلا النقاد والقراء . ووجد انهم يقبلون على شعر شوقي وحافظ بحماسة واندفاع
بينما يقبلون على شعره بشيء من الفتور . وكما ان مرد هذه الظاهرة الى ثقافة الناقد والقارئ
المحدودة كذلك تعود الى طبيعة شعر مطران نفسه الذي يفتقر الى غنائية شوقي
وفخامة حافظ وجزالته ويفوقهما تعقيدا وكذا ذهن بحيث يتعذر على غير المثقف ثقافة عصرية
واسعة فهم شعر مطران بسهولة . وهذا يعلل عدم صلاحية شعر مطران للفننا بينما
نرى ان قصائد شوقي وحافظ لا تزال على كل شفة ولسان خالدة على حناجر ام كلثوم ومحمد
مبدي الوهاب وغيرهما من كبار المغنين .

ويرى ادهم (١) ان لشعر مطران موسيقى هادئة خافتة النبرات ، ولعل هذا
الهدوء وخفوت النبرة ، هو السبب في انكار الذوق المصري العام لموسيقى الرجل في شعره
فقد حدثنا الاديب الشاعر عبد اللطيف النشار ان الذوق المصري لا يؤخذ بموسيقى شعر
الخلييل ، لان الذوق المصري لا يستهويه (او يستتيمه) غير النبرات الظاهرة والموسيقى
الصاخبة والحركة والجلجلة في التوقيع .

وفي رأى السحرتي (٢) ان طغيان الفكرة في كثير من شعر مطران قد الجأ الى البحور
الطويلة والنغم المستطيل الذي لا يثير هزة في النفوس ، ولا نبضا قويا في القلوب ، ولهذا لم تكن
انغام مطران من الانغام الجاذبة الآسرة .

(١) ادهم ، خلييل مطران ص ١٠٨

(٢) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف الشعر المعاصر ص ١٢٦

ويضيف ادهم الى ذلك سببا آخر منزع مطران من ان يجدد تجديدا كبيرا كما من في طبيعة اللغة العربية نفسها التي تقصها الالفاظ الدالة على المعنويات بحيث تتغلب عليها الصبغة المادية .

وذلك قوله (١) " ومن هنا كانت ثورة الابداعية على الاتجاه الاتباعي ، من حيث ترسم الابداعية الاغراض الاوروبية في الشعر ثورة على الاغراض العربية ، ومحاولة للخروج على الروح العربية - وكما كانت هذه الثورة قائمة في حدود اللغة العربية ، فانها لم تقدر على استيعاب الاغراض الاوروبية كاملة من حيث ارتبطت بعض الاغراض العربية من جهة المعاني بالالفاظ العربية . مثال ذلك ان الالفاظ الدالة على المعنويات في العربية تتغلب عليها الصبغة الحسية ، ومهما كانت اغراض الشاعر الابداعي معنوية فانها تكتسب الصبغة الحسية من مدلولات الالفاظ . "

" والحقيقة ان الحركة الابداعية التي قام بها خليل مطران لم تكن في جميع نواحيها تجديدا وخروجا على القديم وثورة عليه ، انما كانت في بعض النواحي ، واكثرها يتصل بالاغراض العامة للشعر دون المبنى ، مثال ذلك قيام حركة مطران الابداعية على اساس ادخال الشعر القصصي والتصويري للادب العربي فهذهن الضربين يخلو منهما في الاصل الشعر العربي القديم ، كما يخلو منهما الشعر الاتباعي الحديث . ولا شك ان ادخال هذين الضربين كان على اساس خبير . هو محاكاة الاشياء في صورها الخارجية محاكاة موضوعية . وهذه كانت نتيجة للاخذ بالخيال الاوروبي ، ولهذا تطور في الشعر الابداعي الحديث الخيال الشعري من الهواتف والاصداء التي تسمعها الآذان والصور التي تراها العين ، الى صور واشباح تبرز للمخيلة وتمثل للذهن مستكملة اسباب وجودها الموضوعي في الخارج عن الشاعر . "

العلامج الرومانتيكية في شعر مطران

قلنا ان خليل مطران يمتاز بشعره الرومانتيكي ، وقلنا ايضا ان رومانتيكية مطران تعود الى تأثيره بالثقافة الافرنسية والى شدة حساسيته وتأثره بمجالس الطبيعة واحوال الناس . وكانت جميع هذه المشاهد والمرثيات تمتزج في بخيلة نفسه يلونها الخيال وتراقبها المعاودة .

ويذكر مندور (١) ان الآراء تشعبت في البحث عن مقومات شعر خليل فسماه البعض شاعرا ابداعيا اي رومانتيكيا ، وسماه آخرون شاعر العصر ، وذلك فضلا عن القاب التفضيم التي لا تفيد تخصيصا لمذهب او ايضاحا لمنهج مثل شاعر القطرين وما اليها من القاب . ومع ذلك فان الاجماع يكاد يعتقد على ان خليل مطران يعتبر رائدا للمدرسة الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، حتى ليكاد يختط طريقا يشبه الطريق الذي اختطه في الشعر العباسي مدرسة الهدية على رأسها ابو تمام ، في مواجهة مدرسة عمود الشعر وعلى رأسها البيهقي ، وذلك عندما يقارن النقاد بين مدرسة البارودي وشوقي وحافظ وغيرهم ممن ساروا على عمود الشعر العربي ، والمدرسة الحديثة التي تنتسب الى مطران وتمتد في جماعة ابوللو (٢) خلال احمد زكي ابوشادي وابراهيم ناجي ومن سار على دريتهم من الشعراء الناشئين في مصر وغيرها من البلاد العربية . وهذه المدرسة تختلف هي الاخرى عن مدرسة شعراء المهجر التي لم تختر على الشعر العربي التقليدي في موضوعاته وافكاره واحاسيسه فحسب بل وفي قوالبه وصيغته .

ان مطران يصوغ احاسيس وافكار عصره في ديباجة قديمة بمتانة لغتها وسلامة اسلوبها وروعة صياغتها .

وهو يعرف الشعر في رثائه لاسماعيل صبري (٣)

الشعر تلبية القوا	في والشعور بها مهيب
وبه من الايقاع ضرر	ب لا تحاكيه الضروب
هو محض موسيقى وحسات	تصورها الضروب
هونق ساقية شككت	لا قدر ما يحوى القليب

(١) مندور محاضرات عن خليل مطران ص ١١

(٢) الصواب بلام واحدة

(٣) الديوان ٣ : ١٩

معيار ما جرت الغروب
جرائها نفس صبيـب

هو ما بكاه القلب لا
هو انة وتسيل من

وهذا تعريف رائع للشعر الرومانتيكي :

ورومانتيكيته صافية واضحة نتلمسها في بعض قصائده اولها (بدر ويدر) (١)
حيث يقول :

والروض زاه نضـير
والليل را حـسير
ورب شاك شكـور
من الهوى وزقـير
تذوب منه الصخـور
على المروج يـدور
يرويه عنها العـبير

لم انس حين التقينا
اذا العيون نيام
نشكو الغرام دعابنا
وفي الهواء حنين
وللمياه انين
وللنسيم حد يـث
وللازاهر فـكر

وفي (مشاكة بيني وبين النجم) (٢) يخاطب الشاعر النجم ، سمير العشاق المسهدين ، فيقول :

احل به مثل ما حل بي ؟
ويهرب من مهده مهريسي
فاما بنا فهو لم يرحب
انيسي عن جانب المركب
ففي الشرق آنا وفي المغرب
يوأخيك في حملك المنصب
شريك لذي الكلف المتعب ؟

ارى مثل سهدى في الكوكب
يهيم هيامي من وجده
ونجتاز هذا الفضاء رحيبا
اذا سرت بحرا اراه
وان سرت برا يتجارى خطاي
رفيق السرى فيك جمر يندب وان سـال
اسر هو اك الى صاحب
اما كل ذي كلف متعب

وهكذا يجعل الشاعر النجم شريكا له في سهاده وحبه ، ويقوم بتوثيق الروابط بينه وبين النجم
الجماد ، فيجعله رفيق السرى ، وصاحبه الكلف المتعب . ثم يجعله مشوقا الى الشمس يطاردها
كما يطارد المحب محبوبته :

(١) الديوان ج ١ ص ٢٣

(٢) الديوان ج ١ ص ٢٩

مشوق الى الشمس طلابها
مجد على شقة المطلب
ثم يعود الشاعر ويطنش النجم الى انه واياه سواء في الحب والعذاب ؛
وبي مثل ما بك من شاغل
ولي مثل ما لك من مأرب
فتاة كصوغ الضياء اليها تاهت مني قلبي الموصوب
من الحوردان فوادى بها
فان كنت يا نجم طالعتها
وقد سمرت لك في مرقب
فانت اذن في الهوى فاذرى
ولست لسهدى بمستغرب

ففي هذه القصيدة تجلي رومانتيكية مطران بكل وضوح فهو عاشق مسهد يشكو سهاده وحبسه الى النجم الذي اصابه ما اصابه فاحس معه ورق له . وما الرومانتيكية سوى التعبير عن الذات - ذات الشاعر - الذي لا يكتفي بوصفه الاشياء المجردة بل يصفها من خلال مرورها في نفسه ؛ فالشاعر الرومانتيكي يستخدم الظلال والالوان ويترك الخطوط فيوهي بدلا من ان يعرض ملتجئا الى الخيال الذي ينقل القارى الى عالم الايحاء بمالم الوهم والمخيلة ، والخيال هو الذى يسبغ صفة الرومانتيكية على الاشياء - ان انه ليس هناك شي رومانتيكي بطبيعته (١)

والخيال ان يتيح للشاعر ان يعبر عن ذاته فيصور عواطفه واحاسيسه ومشاعره نفسه ينقل القارى الى ما وراء عالم الحس الى حدود رحبة من الروى الملونة (٢)

ويعود الشاعر في المقطع الاخير ويكشف عن سبب سهاده وشكواه فاذا هو الحب وان بها فتاة رائعة الجمال احبها الشاعر ووحدها في حبه ولكن حيل بينه وبينها فيوصي صديقه النجم ان يقوم بدور رسول الخير ويتطوع لنقل رسائل الغرام .

فهذه القصيدة الرومانتيكية الاولى التي تطلعك في ديوان الخليل ، وشأن الشاعر الرومانتيكي ، يغني مطران حبه ، ويمزج هذا الحب في الطبيعة وتجييش عاطفة الشاعر ولان العاطفة متفاوتة بين الناس اجمعين ، كان الاختلاف بين الشعراء والادباء في عر في المشاهد ذاتها ومن هنا كان خضوع الشعر للعاطفة اولا وليس للعقل ، لان العقل عنصر

Babbitt I, Rousseau & Romanticism Page 260. (١)

(٢) المرجع نفسه ص ٤١

مشترك بين الناس بحيث لا يختلف عقلان سالمان على حقيقة ما :

ولما كانت العاطفة تتجمع اشد ما تتجمع في الحب ، اخذ الشعراء الرومانتيكيون
يقدرسونه ، فالله محبة ، والحب هو الذى يربط العوالم بعضها ببعض ، وكل ما في الطبيعة
يحب حتى الجماد يحب ، ومن هنا اصطفت الرومانتيكية بالصيغة الصوفية ، واصبح حب
الرومانتيكيين حبا مثاليا غير مدنس بشهوة جسدية عابرة . (١)

ففي (تبرئة) (٢) يخاطب حبيبته :

وان الذى عاب منك المسفو	ركن قال للشمس يا سافر
واني اهواك مل عيو	ني ومل حشاشتي الصابره
ومل الزمان ، ومل المكا	ن ، دنياى اجمع والآخره
فان يستملك الي الهوى	وعين العفاف لنا خافره
ليس الهوى روح هذا الوجو	د كما شاءت الحكمة الفاطرة ؟
فيجتمع الجوهر المستدق	بآخر ، بينهما آصره ؟
ويألف الذر وهو خفسي	فيمثل في الصور الظاهره ؟
ويحتضن الترب حب البذا	ر فيرجعه جنه زاهرة ؟
وهذى النجوم اليست كدر	طواف على ابحر زاخرة ؟
عقود منثرة بانتظا	م على نفسها ابداء دائره ؟
يقيدها الحب بعضا وكل	الى صنوها صائره .

وهكذا يبعث الشاعر حبه العنيف العنيف الذى يضيق عنه المكان والزمان . والحب هو
روح الوجود وهو الذى يولف بين دقائق الاشياء ، في الكون ويربط بين المخلوقات والخالق
بين التربة والبذرة ، وبين الكواكب ونواميس الكون .

هذه هي رومانتيكية مطران التي تجعله يسمو بالحب من قضية شخصية عاطفية
قائمة بين شخصين ، الى الكون الشامل ، الى عالم الطبيعة ، عالم النبات والجماد . وانما بالحب
يسمو ويرتفع حتى يشمل الله الذى هو بدوره محبة .

(١) Bernbaum, E. Anthology of Romanticism P. xxvii

(٢) الديوان ج ١ ص ٥٣

ويرى حبه في الطبيعة ، يراه في (الحمامتان) (١) حيث يصور حب حمامة لاليفها ،
كانت تسبح على فمها فقد لها الى ان اعيها التعب وهو كان بدوره يسعى اليها حتى اذا
سمعت صوته اسلمت السرح .

وفي " قلعة بعلبك " (٢) ذكرى طفولة الشاعر وذكرى حبه الاول - اعتماد المؤلف
للمنتخبات الادبية ان ينتقي من هذه القصيدة في كتب التدريس الابيات التي يصف فيها
الهيكل ، اما انا فارى عكس ذلك ، ارى ان الابيات الجميلة ، الرائعة التي تستحق ان تنتخب ،
مع الاعتراف بجمال وصف القلعة وروعته ، هي تلك التي تحمل عاطفة الشاعر وتفتح عن براعم
طفولته وحبه لهذه الفتاة التي يسميها " هند " ومنها نعلم ان قصة حبه ترجع الى عهد
الطفولة ، ومن هنا كانت قوته وحرارته فقد نما هذا الحب وترعرع وقوى واشتد حتى ملك على
الشاعر احساساته وعواطفه . -

يقول مخاطبا القلعة بعد غياب طويل متذكرا طفولته ومرحه وحبه :

ذكريني طفولتي واعبيدي	رسم عهد عن اعيني متواري
يوم امشي على الطلول السواحي	لا افترار فيهن الا افتراي
نزقا بينهن غرا لعويبا	لا هيا عن تبصر واعتبار
مستقلا عظيمها مستخفا	ما بها من مهابة ووقار
يوم اخلو " بهند " نلهو ونزهو	والهوى بيننا اليف مجاري
كفراش الرياض ان تتباري	مرحا ما له من استقرار
نلتقي تارة ونشرد اخرى	كل ترب في مخبا متداری
فاذا البعد طال ظرفة عين	حشنا الشوق مؤذنا بالبدار
وعداد اللحاظ نصفو ونشقى	بجوار ، ففرقة ، فجوار
ليس في الدهر محض سعد ولكن	تلد السعد محنة الاكدار
كلما نلتقي اعتقنا كأننا	جد سفر عاد وا من الاسفار
قبيلات على عفاف تحاكي	قبيلات الازداه والاسحار
واشتباك كضم غصن اخاه	وكلشم النوار للنوار
قلبنا ظاهر وليس خليا ،	اظهر الحب في قلوب الصغار

(١) الديوان ج ١٠ ص ٢٣

(٢) الديوان ج ١٠ ص ٩٧

فاغتدى حين شب جذوة نار
كل شيء الى الردى والبيوار
فدمار يمشي بدار دمار

كان ذاك الهوى سلا ما وردا
حبذا " هند " ذلك العهد لكن
هد عزمي النوى وقوض جسمي

هكذا بيد و خليل مطران شاعرا رومانتيكيا في معرض وصفه للقلعة ، ليست القلعة
عنده مجرد صخر محكم النحت والصفة ، ليست مجرد اعمدة ، وهياكل زاهية نسي
القضاء ، انما هي مبعث ذكرى حبيبة ، ذكرى طفولة الشاعر ومرحه وحبه البريء الطاهر
وعهد هو احلى ما في العمر ، فيشبه لهوه بغراش الرياض وقبلاته البريئة تحاكي قبلات الاندا
والاسحار وكضم غصن اخناه ، وكلثم الزهر للزهر . كل هذا الرجوع الى الطبيعة دليل
على رومانتيكية الشاعر وعلى حبه العفيف الطاهر . فاذا وجدان الشاعر وعاطفته يستفيقان
من بين الخرب والاطلال ، واذا برومانتيكيته تبد وفي لون جديد هو لون الالم والكآبة
واذا به يصف ما يجول في دخيلة نفسه من الم وحزن ولوعة وحب وكآبة . واذا بالهياكل
الخالدة توحى له بالردى والدمار " كل شيء الى الردى والبيوار " وفي هذا الم وفيه مرارة
تبلغ اوجها في قوله :

فدمار يمشي بدار دمار

هد عزمي النوى وقوض جسمي

فلو تناول هذا الموضوع - وهو وصف لقلعة بعليك - الشعراء العرب الذين سبقوا مطران
وعاصروه لكانوا اكتفوا بوصف القلعة وصفا تصويريا فوتغرافيا دون ان يتعرضوا لمشاعرهم واحاسيسهم
ولنقارن بين وصف مطران للقلعة وسينية البحترى الشهيرة في وصف ايوان كسرى .

لقد اكتفى البحترى بالوصف الدقيق والتصوير الرائع دون ان يدخل عنصر العاطفة
والذاتية في هذا الوصف فبقيت القصيدة في موضوعها المحدود ولم تخرج منه الى ارجاء فسيحة
لا تحد .

هذا فضل مطران ، وهذا ما تفرد به دون سواء من شعراء الجيل الماضي .
ثم نصل الى قصيدة (المساء) (١) وهي بدون شك رائعة . ففي هذه القصيدة
تبدو رومانتيكية مطران اجلى وارقى ما تكون . وهي القصيدة التي نظمها في الاسكندرية
وهو عليل .

كتب في نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالا عنوانه "رحلة صيف" نستطيع ان نستدل منه على الظروف التي نظم فيها قصيدة المساء . قال : ذهبت الى الاسكندرية ، وفي تقديري ان اقضي ثمة يومين ، وفي تقديري الله ان اقضي شهرين . فما هو الا ان خلت ليلة حتى باغتني داء ، فضرب واقل ، ثم تمكن فاعضل ، ثم اناخ بكلكل . فما صحت بعد ايام من سكرته ، ونجوت من مضطرب غمرته ، نهضت ببقية الجسم الباقية كما تلبس الخرقة البالية . قال الطبيب : فعليك بالمكس ، حسن هوؤها وجل رؤها . فقصدت المكس وما ادراك ما هي عليه الآن . وقال نثرا يصف الطبيعة بالمكس : " والبحر شديد الخقوق لا يمل من مداعبة الصخور بمثل خشونة الضواري في تداعبها ، المنظر على الجملة يديع في مطلع الشمس وفي مغربها . وللشمس فيها تجليات باهرة خلال الغمام ، وللغمام شكل وتلون فاتان ، وللانق تألق عجيب في ترتيب قدر المنطقة التي يتحزم بها وابرازها في ابداع زينة" .

ونستطيع ان نقول ان الاسكندرية ، حاضرة مصر الثانية ، قد فازت من مطران باحدى روائعه واصدقها دلالة على مذهبه الجديد في الشعر .

وفي هذه القصيدة يقول واصفا داءه :

دء الم فخلت فيه شفاثي	من صبوتي ، فتضاعفت برحائي
يا للضعيفين ! استبدا بي وما	في الظلم مثل تحكم الضعفا
قلب اذا بته الصباية والجوى	وغلالة رثت من الادوا
والروح بينهما نسيم تهمد	في حالي التصويب والصعدا
والعقل كالمصباح يغشى نوره	كدرى ويضعفه نضوب دماثي

فانظر كيف يبعث الداء عاطفة الشاعر ويفجرها اروع تفجير . ولكن المعاودة التي فطر عليها الشاعر ما تلبث ان تسلط العقل على هذه العاطفة فيكبح جماحها ذلك لان الشاعر لا يترك لعاطفته وخياله العنان فهو لا يريد ان يفرق القارىء بالمه ويأسه ، فيلتفت الى حبيبته التي كانت قد فارقت الى الأبد والتي لم يعد له منها غير ذكرى معضة تشترك مع دائه للقضاء عليه .

فالشاعر الرومانتيكي اذا احب قدس محبوبته . واذا اخفق في حبه هذا لجأ الى ذكرياته يستوحىها ويعيش على ما ترشحه عليه من سعادة ، معزوجة بالم . وهو يحب ، مع

حبه لحبيبتة ، الخير والحق والجمال . (١)

فقد احب الشاعر الرومانتيكي الجمال وجعله غاية ، وكلف بالمثالية مما يجعله يسعى الى الاصلاح وطلب الحرية والبساطة والسلام في الحياة (٢) وفي حين وجد الشاعر الرومانتيكي الشرفي العالم والفساد في المجتمع نغم على هذا العالم وثار على هذا المجتمع فعاش في يأس وألم وحزن هو ما نعبر عنه بالملنكوليا . (Melancolie) التي كانت محببة الى قلوب الرومانتيكيين اذ ان في الالم ما يجعل المرء يرى نفسه في ترفع عن باقي الناس . وقد تغنى روسو كثيرا في الالم (٣) وكذلك موسيه الذي تأثر به مطران والذي يقول "الرجل متدرب والالم سيده" (٤)

والقائل ايضا : " لا شي " يجعلنا كبارا كمثل الالم الكبير . (٥)
او كما يعبر شيللي "Shelley" بقوله : "اجمل اغانينا تلك هي التي تخبر عن اشد الافكار حزنا" . (٦)

فيقول مطران :

من اضلعي وحشاشتي وذكائتي
لم يجدرنا بتأسفي وبكائتي
ببيانة لولاك في الاحياء
اغتم لذي عقل ضمان بقيا

هذا الذي ابقيته يا منيتي
عمرين فيك اذعت لو انصفتي
عمر الفتى الفاني وعمر مخلص
فغدوت لم انعم كذي جهل ولم

(١) بيت ، ا روسو والرومانتيكية ص ٢٣٦

Bernbaum, E. Anthology of Romanticism P. xxvii (٢)

(٣) بيت ، ا روسو والرومانتيكية ص ٣٠٧ - ٣٠٨

Musset, A. de: Poesies Page 210 - 211 (٤)

"L'homme est un apprenti, la douleur est son Maitre".

(٥) المصدر نفسه

"Rien ne nous rend si grands qu'une grande douleur".

Shelley P.B. "To A Shylark" Complete Poetical works (٦)

Page 382."

"Our Sweetest Songs are those that tell of
Saddest thought".

ثم يقول ان الحب احب شقا :

حاشاك بل كتب الشقاء على الورى والحب لم يرح احب شقا

وسايلبت الشاعر ان يصور له وحبه حتى يدخل عنصر الطبيعة ، كعبة الرومانتيكيين
ومحبتهم .

وهذا الرجوع الى الطبيعة كان نتيجة امرين رئيسيين ، اولا : دعوة روسو الى العودة
الى الطبيعة : وثانيا : الاخذ بفكرة الحلول في الوجود - حلول الله في الطبيعة - التي
جاء بها سبينوزا . (١)

ففي اللجوء الى الطبيعة سلام وطمانينة وساطة وهرب من المجتمع الفاسد ،
والطبيعة مجال رحب للخيال والتأمل .

فيقول مطران :

متفرد بصباوتي ، متفرد	بكأبتي ، متفرد بعنائي
شاك الى البحر اضطراب خواطري	فيجيني براحه الهوجاء
ثا وعلى صخر اصم وليت لي	قلب كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كعج مكارهسي	ويفتها كالسقم في اعضائي
والبحر حفاق الجوانب ضائق	كدا كصد ري ساعة الامساء

فيشارك البحر والصخر ومغيب الشمس ، واذا به يحل في الطبيعة ويجعلها حالة فيه
تشاركه الله وشقا ، ويقوم خيال الشاعر الذي يحده العقل الواعي بجمع شتات الصور
حتى لتبدد الطبيعة كأنها قطعة من نفس الشاعر او الشاعر جزء من اجزاء الطبيعة .

ويبدو للباحث ان نظرة مطران الى الطبيعة نظرة جديدة بمفهوم حديث ، فان
الشعر العربي مليء بوصف الطبيعة . غير ان مطران لا ينظر الى الطبيعة نظرة
فوتغرافية عابرة يصف فيها الاشياء وصفا حسيا بحيث تبقى بعيدة عن نفسه ، وانما ينظر
اليها من خلال نفسه وينظر الى كائناتها وكأنها كائنات حية فيجسدها ويجعل لها عقلا وقلبا
وروحاً وورا ، كل ذلك اعتق مطران فلسفة تربط بين عوالم الطبيعة وبينه هي الحب .
فالحب يجمع بين الطيور والازهار وادق ما في الطبيعة وبين الكواكب والافلاك الواسعة

(١) عوض ، لويس مقدمة " برومتيوس طليقا " لسلي ص ٤٢

ونواميسها وهو الذي يربط بين هذه الاشياء كلها ، صغيرها وكبيرها ، وبين الله في نطاق وحدة الوجود ، ونظرة مطران هذه نظرة رومانتيكية شرقية ممزوجة بالصوفية ورومانية الشرق .

ومن المصائب يقول مندور (١)

" هذه قصيدة وجدانية قوية ، ولكن وجدانية مطران تغاير ما ألفه الشاعر العربي في وجدانياته ، وذلك لانها مركبة . لا تصدر عن عاطفة موحدة تنشق من القلب مباشرة ، بل تمتزج بالخيال الشعري ، وسيطر الفكر على صياغتها .

والواقع ان طبيعة مطران الشعرية تستند الى الخيال اكثر من استنادها الى الاحساس المباشر ، فالخيال هو الذي يثير عاطفته في قصائده القصصية ، حيث نراه يتصور المواقف والاحداث الشخصية ثم يفعل بما يتصور ولكنه لا يترك لخياله ولا لعاطفته العنان مطلقا بل يخضعها لعقله وتفكيره ، ويظهر هذا المجهود الارادي في الصياغة .

ففي هذه القصيدة نرى الشاعر مريضا منفردا بكآبته منفردا بعنائها ، منفردا بصباوته . على ان المرض لم يغير شيئا من طبيعته ولم يذهب بشيء من خصائص شاعريته المركبة ، فخياله حي يدرك الطبيعة الخارجية ، بل نستطيع ان نقول ان الشاعر يمتزج بهذه الطبيعة بفضل ذلك الخيال ، حتى يرى نفسه في مرآة تلك الطبيعة ، فكأنه يكون معها اصلا وصورة ، بحيث يمكن القول باننا نستشف في هذه القصيدة ما يصح ان نسميه بـ "الحلول الشعري"

"pantheisme poetique" فالشاعر حال في الطبيعة او الطبيعة حالة فيه . فرياح البحر الهوجاء صدى لاضطراب خواطره ، والصخرة الصماء ينتابها موج كعوج مكارهه ، والبحر خفاق الجوانب ضائق كعذرا كصدر الشاعر ساعة الامساء ، وكذرة البرية صاعدة الى عينيه في الاحشاء ، والافق معتكرقريخ الجفن . . وهو يرى خواطره بعينه كدامية السحاب ، والدمع يسيل من جفنه مشعشعا بسنى الشعاع الغارب ، والشمس في انحدارها الاخير بين السحاب كأنها آخر دمعة للكون تمتزج بدموع الشاعر لترثيه . ومن كل هذا تتكون المرآة التي يرى فيها الشاعر نفسه ، او تحل الطبيعة في الشاعر كما يحل فيها . وهذه خاصية تتميز

(١) مندور - الدكتور محمد محاضرات عن خليل مطران ص ١٧

بها وجدانية مطران المركبة التي تمتزج بالطبيعة وتباد لها المعاني والاحاسيس، وكان الطبيعة عنده كائن حي يتمتع بكافة خصائص البشر من خوالج واحاسيس*.

فقد تمكن مطران كما يرى ادهم^(١) عن طريق خياله غير المحدود والمتنوع من ان يجعل الشعر العربي يحمل صورا وضروبا من الشعر لم تكن العربية تحتويها من قبل . الى ان يقول : لا شك ان الاغراض الشعرية بلغت الغاية في يد الابداعيين من جهة تسلسل المشاعر واطراد الخواطر واتساق الخيال ، حتى ان مطران انتهى الى روائع من الشعر آية في الاعجاز في السنين الاول من قيامه بحركة التجديد*.

وفي(العالم الصغير مرآة العالم الكبير ، فنجان قهوة)^(٢) يجعل مطران من فنجان القهوة فلكا كهلك السماء وعالما كعالم الارض والنجوم :

سر الكيان وآية الزمان	* ليلي * اجيلي الطرف فيه تنظري
فتانسة الابداع والاتقان	تجدى سماوات وسعن عوالمنا
جمعا بما لا تدرك العينان	منثورة الافراد او منظومة*
مرتادة في البحث كل مكان	سيارة بين الجهات حوائرا
حتى يدانيه فيلتصقان	كل يصير الى حبيب مرتجى
وكذاك يحيا بالهوى الصنوان	فيذوب كل منهما في صنوه
كتوحد الحبيين يقتربان	جسمان يفتديان جسما واحدا
شبه الصبا والطيب يمتزجان	روحان تمتزجان حتى تصبحا

ففي هذه الابيات ايضا تبدو رومانتيكية مطران الذي يجعل الحب الرباط الذي يشد العوالم ويجمعها ويجعل الطبيعة تشاركه حبه وتبلغ الرومانتيكية عنده حد الصوفية فيذوب الحبيب بحبويه ولا شك في ان مطران قد اضاف الى الرومانتيكية لونا جديدا من صوفية الشرق . هذا الذوبان والتلاشي في ذات المحبوب كمثل الذوبان والتلاشي في ذات الله وهو ما نعبر عنه بالسطحة الصوفية عند المتصوفة*.

(١) ادهم ص . ٢٢

(٢) الديوان ١ : ١٥٥

وكان مطران لشدة حساسيته وحبته لمشاركة الغير فيما يصيبهم من مصائب
والم يتغنى بالأمهم ويشاركهم في شقاوتهم وإذا به يتناول الحادثة البسيطة ويجعل منها
موضوعاً رومانتيكياً رائعاً : كما يفعل ب (في تشييع جنازة) (١) حيث يخرج من منزله فتطالعه
جنازة فيسأل عن الميت فيقال له انه شاب انتحري، فيشارك في تشييعه ويأخذ في رثائه
رثاء لا تفرضه المعرفة ولا الصداقة ولا المنفعة ولا الرياء بل يفرضه الشعور بالاخوة الانسانية (التي ذكرها في
وراءه ان
قصته حب
الذين ذكرها في
الذي)

وحب المشاركة بالمصائب.

وكذلك يفعل في (الجنين الشهيد) (٢) التي يصف فيها مأساة فتاة مسكينة اسمها
(ليلي) جاءت القاهرة واخذت تشتغل في الحانات لتعيل ابويها ثم يأتي شاب فيغربرها
ويتركها حاملاً وتنتهي القصة (ولن اتوسع هنا في شرح هذه القصيدة، بل اتركها للحديث
على قصص مطران) وهي تريد ان تقتل طفلها هذا فلماذا يعيش وليس له اب يعيش للفقر
والعذاب والذل والهوان :

فيا ولدي المسكين فلذة مهجتي ويا نعمة عوقبت فيها بنقمة
ومن كنت ارجوه لسعدى وبهجتي وكان يناجيه ضميري بعنيتي
وأمل ان يحيا ويرجع لي بعلي وتموت ولما تستهل مبشرا
وتحيا صغار الطير دونك والنحل تموت ولم تغرب فيه عذبت اشعرا
وأمك تسقين السموم لتصرعا وتغيبك من جوف به كت مودعا
من الحزن والآلام والفقر والذل فان تلقى وجه الله في عالم السنى
فقل ربي اغفر ذنباي محسنا فما اقدرت شيئا ولكن ابي جنى
علينا فعاقبه بتعذيبه لنا وامطره نارا تبثليه ولا تبلي
فحفوك ابني ما ابوك بمذنب كبرت بحبي في اشتداد تغضبي
وامي زنت حتى جنت ما جنته بي فقل : رب امي اهلكتني لا ابي
فزدها شقا واجزها القتل بالقتل

(١) الديوان ١ : ص ٢٠

(٢) الديوان ١ : ص ٢٢٣

وهكذا يستفيق ضمير المرأة وتأبى رومانتيكية مطران الشرقية المزوجة بالصوفية
الا ان ينتصر الضمير الانساني عند (ليلي) فتقربانها شريكة في الجريمة .

ولنقف الآن عند " حكاية عاشقين " (١) وهي القصيدة التي يقال انها تمثل قصة
حب الشاعر . فلا شك في ان الخليل قد عرّف الحب كما عرفه اكثر الناس ولكنه عرفه اعرق
واعرف من معرفة الناس العاديين له . غير ان مطران الكتوم ابى ان يفصح عن هذا
الحب فراح يلف ويدور ، يلتمح ولا يصحح ، فاذا محبوبته " ليلي " واذا بها " سلمى " او " هند "
او " سعاد " او غير ذلك من الاسماء التي يستعملها الشعراء كناية دون ان تدل على شخص
معين .

وفي قصيدته (هوانت) (٢) يقول :

يا منى القلب ونور العين منذ كت وكنت
لم اشأ ان يعلم النسا س بما صنت وصنت
ولما حازرت من فظنتهم فينسا فظنت
ان " ليلاي " و " هندي " و " سعادى " من ظننت
تكثر الاسماء لكن المسمى هوانت

وحب الخليل هذا حب عذرى عفيف شأن الحب الرومانتيكي . وكان ان ماتت هذه
الفتاة ، التي احبها الشاعر بمرض السل وكان قد حيل بينه وبينها قبل ان تنتقل الى
دنيا الآخرة لانها كانت من عائلة ارفع من عائلته ولكن الشاعر ظل امينا على حبه محافظا
على ذكراها حتى نذر حياته للعزوبية وابى ان يتزوج بعد فقد تلك الحبيبة .

ويعترف الشاعر بانه كتم حبه حيث يقول :

كتمت هواك دهرا لا لخوف
ولكني حرصت عليك منهم
وكم عاتبت فيه النفس لوما
كجرح قد الطفه بلمسي
وما انا من يرعه الحمام
ولو اودى بمهجتي الغرام
فان عوتبت راعني السلام
وان هو مسه غيرى اضام
الى ان بات وهو بنا سقام
ظلمت عليه اخفيه واشقى

(١) الديوان ١ : ص ١٨٤

(٢) " ٢ : ص ٣٢٦

ثم يتحدث عن الحب وعقريته فيقول :

من لم يحب فما الصفاء له
صفو وما كذوبه كدر
ينجاب عن وجه الحياة كما
تجباب عن مرآتها الصور

ومثل ذلك قوله :

والحب الزم للارواح ما عظمت
وقد يكون لها ادعى الى العظم
ويعرف الحب بقوله :

الحب في المعنى العميم الكامل
معنى المراحم والقداء الشامل

ثم يصف حالته النفسية بعد موت حبيبته :

ابيت طوال الليل والدا مسهدى
اعنف نفسي وهي لم تقترف جرما
على ذكر عهد كان لي منك موعد
بتجد يده لو لم تحل دونه الحمى

ثم ينفجر بعد ان تولمه الذكرى كما ينفجر النبع :

احبك حتى لا سرور ولا منى
ولا شمس الا ان اراك ولا نجما
احبك حتى ينكر الحب رسله
جميلا وقيسا والاولى استشهد واقدما
ولو لم تكن في الموت سلوى اخافها
لا حبيت حتى الموت فيك ولو ذما

هذا حب جارف وشعر رائع يتكشف عن نفس مكتوية بنار الحب ، فالخليل يعبر عن خلجات
فؤاده ويعصر نفسه التي مزعتها لوحة الاسى ويقفز في هذا البيت الاخير القفزة الرائعة حيث
يقول لولا خوفه من ان الموت يسلبه حبيبته لكان احبه واقبل عليه .

وتبدو رومانتيكية مطران في تفاعله مع الطبيعة ، مع الزهر والسحب ، والغصن

والطير :

من علم الزهر ان يفتر لي كذبا
ونائج الطير ايلامي بمنطقه
وماش الغصن اغرائي بعطفته
وباكي السحب ان يندى وما صدقا ؟
كأنه شاح حالي بما نطق ؟
فان دنوت تسامى نافرنا فرقا ؟

وفي مناجاته لحبييته :

فيا منية للقلب كنت بقرها
ويا جنّة النعمى لشاد تشوقه
بروحي افدى وردة قد حفظها
اقبلها في كل يوم تشوقا
واحبي بها آثار حبك شاكيا
ارى كل عسرفي الزمان يسارا
على الدهر ما شاق الربيع هزارا
لذكراك اسقيها الدموع حرارا
لمن نسجتها للغرام شعارا
واسمع نجواها دجى ونهارا

ومطران موحد في الحب لا يشرك فيه احد وفي هذا دلال على اخلاصة في حبه :

اقسمت ما اشركت فيك ولم يكن
لي في الهوى دين سوى التوحيد

ويأتي صديق له من رفاق صباه ويخبره ان حبييته الغائبة مصابة بمرض عضال فيهيج ويضطرب
ويود لو ركب اليها وامض البرق فينصحه خليله بالتعقل وعدم الذهاب اليها لانها اذا رآته
سوف تسوء حالتها ولكي لا يعرض نفسه للداء الاثيم .

غير ان الشاعر يقرر ان يذهب اليها حتى ولو اصيب بعدوى المرض :

لئن كان موت في مقبل ثغرها
خلقنا لكي نحبي ونقضي في الهوى
فان ساءنا دهر ائيم بفرقة
واحبي بهذا الوصل بعد انفصالنا
سأرشفه مقهة شهيا مطيبا
اليقين يا بني الحب ان نتشعبا
فزعننا الى قبر رحيم فقربا
ويا موت انت المستغاث فمرحبا !

وتعوت هذه الحبيبة ولم يشفع لها دعا الشاعر ولا صلاة الحبيب ، ويبقى للشاعر الألم والذكرى
فيقول :

كنا وكان الحب ينصبنا
لا شيء يحزننا ويغضبنا
وسريرنا عال على السحب
ملكين تاج السعد يعصبنا
والدهر يخدمنا ويرهبنا

وتخطر له حبييته الراحلة وقد سمع قينة تتغنى وتضرب العود فيقول :

ان لي قلبا خفوقا
يشبه الطائر منها
واهمن العزم كسير
ضال الجناحين اسيرا

ان لي في الغيب القا
هجبت منه الليالي
منية قد اصبحت في
فارق الدنيا وابقا
ابتغي السعي اليه
قد نأى عني نفورا
مني الصبح العنيرا
خاطر الدهر ضميرا
ني جزوا مستظيلا
حيثما بات قـريرا

فاذا ادركته اطفأ
واتحدنا فاغتنينا
وتآلفنا على الدهر نسيمنا وعبيرنا
او شعاعا ان تبينت فنور ضم نورا .

ان لي قلباً خفوقاً
يشبه الطائر منها
ايها القينة يهنيك الصبي غضا نضيرا
واسلمي دهرا طويلا
يستعمر منه جناحين فوادى ليظظيرا
ويشب حتى يفوق ال
واهن العزم كسيرا
ض الجناحين اسيرا
واغمني صوتا مشيرا
انجم العليبا كسيرا
دونه ذرا نثيرا

ويعثر الشاعر في صوانه على منديل ابلاه الزمن ولم يسلم منه سوى الموضع الذي طرز عليه
حرفان من اسمها . فأثار ، ذلك الباقي من المنديل اشجانه فانطلق بيكي :

اعد ايها المنديل ذكرا محببا
واظن بما تحكيه عنها فانه
فذلك ذكر الحب انت تعيده
وما بك من نشر في القلب مشله
وانطق به الطيب الذي فيك مطريا
اذا سا اطناب حبيثان مطببا
بل العراش هي ما يكون واعذبا
طواه الهوى قدما وما زال طيبا

وهكذا يستطيع الشاعر المبدع ان يجعل من شي * تافه مثل * المنديل *
موضوعا رومانتيكيا رائعا ، وقد ذكرت سابقا انه ليس هناك شي * رومانتيكي بطبيعته وانما يصبح
الشي * رومانتيكيا عندما يضي عليه الشاعر المبدع خياله وعاطفته فيلونه من خلال نفسه وينقل
قاره الى اجوائه وهواله * وهكذا فعل مطران بهذا الذي بقي من المنديل *

ويختتم قصيدته هذه بقوله :

وما زال هذا الحب في مؤيدا	مكينا نبت عنه السنون وما نبيا
وما زلت يا منديل * ليلي * ملازمي	تشقني الذكرى نسيما مطيبيا
اصابك ناب قارض من فم البلى	الى موضع منه اسمها فتجنبيا
وغال فوادى اليبين الا بقية	قضى الحبان احيا بها فاعذبا *

يسرى بعض النقاد ان مطران متكلف في غزله شأن من سبقه من شعراء او من عاصروه امثال
شوقي وحافظ ، وانه يتغزل وينسب ويستهل قصائده بمقدمات الغزل دون ان يعرف الحب او
يعرف المرأة *

ولكني ارى ان الكلام على غزل مطران مثل الكلام على غزل شوقي والقليل الذي عند
حافظ منه تجن وبهتان اذ انه يتضح مما عرضت من شعر مطران ان عاطفة الشاعر وحبه ليمسا
طلاء وتزييفا كما في غزل شوقي :

مال واحتجب	وادعى الغضب
ليت هاجرى	يشرح السبب

ويقول ابوشادى (١) وعاطفة الحب التي الهبت فواد مطران في صباه ثم القته في لجة
الحزن العميق بقية حياته ، هي دعامة الزاوية في بنيان شعره الوجداني *

وهو الذى يخاطب قلبه :

يبغى الشفاء من الروع	ولا شفاء مع الروع
الف الصباية فهي ام	مرضع وهو الرضيع
والطفل يشقى بالفظام	فكيف يقبله مطيع

ويأتي الريح فيذكره فيها ويبكي ويقول :

يا للريح وزهره	شوك وانهره دموع
يا للشباب ولا سرور	رولا غزا ولا هجوع
من كان مفقود الحبيب فلا	شباب ولا ربيع

فانظر الى هذه الكآبة تمشح قلب الشاعر الشاب ، والشباب ربيع العمر ، والريح شباب الدهر ، وانظر الى هذا الحب الذي يتجدد مع كل ربيع .

هذا هو مطران الحساس الرقيق الحواشي الذي صور نفسه بقوله :
والذي درعه نواد رقيق
وصور قلبه فقال :

وقلبي مسموع الخفوق معلق
بمنهدم الاركان اجوف معتل
فحب مطران حب صادق عفيق وهو القائل :

وكم عرضت لي الغانيات ، فعفتها
وصنت ضميري ، واللسان المشيبا

لم يتزوج فينحصر حبه لزوجته واولاده بل احب الناس اجمعين ، احب الانسانية فنجح لفرح الناس وبكى لبكائهم . وبلغ الحب عنده ارفع درجات الرومانتيكية ان جعله الرباط المقدس بين الافلاك والعوالم وجعله روح الطبيعة وبهجتها فالحب بين الطيور ، والفراشات والازهار . ذلك يعود الى وجدان الشاعر وعاطفته الملتهبة وخياله السامي وحساسيته ورقة حاشيته . فالحب عنده سر الوجود وظل الله على الارض .

وهو موحد في حبه لا يشرك فيه احدا . وهذا يدل على اخلاق الشاعر الكريمة الذي حافظ على حبه لحبيبته التي ماتت ولم يتكرر لها وعاش حياته اعزبا ، يذكرها كل عام ويرسل لها قصيدة يسأل عنها الفراشات والازهار والطيور .

ولا شك في ان مطران كان معجبا بالشاعر الفرنسي الكبير الفرد موسيه "Alfred de Musset" فقد قرأه وتأثره وترجم له " الليلي " "Les Nuits" ولا شك في

ان مطران قد تأثر بحب موسيه ورومانتيكيته وهو القائل فيه :

منشد للخمر لم يشد الا
شاعر كان عمره بيت تشبيب
ان في نظمه لحسا لطيفا
كان انشاده نواحا شجيا
وكان الانين فيه الرويا
باقيا منه في السطور خفيا

هي ابيات كتبها مطران على الصفحة الاولى من ديوان موسيه تعبرا احسن تعبير عن شعر
الشاعر الفرنسي الكبير وكذلك تنطبق على وصف مطران نفسه فكأنه قد وصف حاله
لما وصف حال موسيه :

ويقول ادهم (١) "ومما لا شك فيه ان الخليل وجد من طبيعته الشعرية
ومن العوامل التي اكتتفته - واهمها حبه - ما ازجى به الى عالم الشعر: ومما لا ريب فيه
ان حب الخليل جعل نفسيته تفتح وارتار قلبه تهتما امام مشاهد الحياة ومجاليتها . وهذا
يظهر من مقارنة شعره ، الذي نظمه في الفترة التي جاءت قبل عام ١٨٩٧ والتي سبقت تاريخ
حبه ، بالشعر الذي قاله ايام حبه (١٨٩٧ - ١٩٠٣) او في الفترة التي جاءت بعد
ذلك . بيان هذا ان حب الرجل جعله متفتح النفس يحس بادق النبرات ويشعر بأرق الخلجات
مما جعل له - بحكم طبيعته المعادة من نفسه - مقدرة على تصوير خلجات النفس ولوامعها
وبدراتها ، الشيء الذي لم يظهر الخليل من قبل حبه براعة فيه ."

و (الاسد الباكي) (٢) التي قالها وهو معتكف في "عين شمس" حوالي سنة ١٩١٢
وقد انتابه حزن شديد على اثر مضاربة قام بها فخر ثروته ، هي احدى روائعه .
وقد عرفت هذه القصيدة "بساعة يأس" لان الشاعر كان قد ضاق بالحياة وضاق
بالناس وعزم على الانتحار لو لم يتداركه اصدقاؤه الكثر ويخففوا عنه .

ومطلع هذه القصيدة جميل رائع .

دعوتك استشفني اليك فوافني
على غير علم منك انك لي آسي

والشاعر ، وهو كتلة من احساس وعاطفة ، يشارك الناس افراحهم واحزانهم ويأبى ان يشاركه
المه ويأسه فينزوي عنهم ويبكي نفسه لنفسه ، متكلفا السرور والمرح مخفيا المم وحزنه بأبأ ما بعده
ابأ وشهامة ما بعدها شهامة .

هناك ابيح الشجون نفسا منيعة
يمر بي الاخوان في خطراتهم
اهش اليهم ما اهش تطفنا
على الضيم مهما يفلل الضيم من باسي
اولئك عوادى وليسوا بجلاسي
وفي النفس ما فيها من الحزن والياس

وتتكشف رومانتيكية الشاعر في نهاية القصيدة كما ابتدأت في مطلعها:

انا الالم الساجي لبعث مزافرى
انا الاسد الباكي ، انا جبل الاسى
فيا منتهى حبي الى منتهى المعنى
دعوتك استشفي اليك فوافني
انا الامل الداجي ولم يخب نبراسي
انا الرمس يعشي داميا فوق ارماسي
ونعمة فكرى فوق شقوة احساسي
على غير علم منك انك لي آسي

وينتهي الشاعر بهذا الهمس الجريح يخاطب به حبيبه المجهول البعيد فهو شفاؤه
ودأوه اليه يضرع ان يرثه من المه - على غير علم منه .

والشعر الراقي كما قيل ما هو الا نقل التجربة نقلاً حيا للاذهان ، وهكذا يفعل
مطران "الذي ينقل القارىء الى جوهه وبذلك هو الشاعر الحق على حد تعبير دونالد آدمز (١)

ففي مثل هذا الشعر الرائع يقف مطران وجبهته تتطخ السماء . يكفيه ان يكون
له قصائد ست مثل هذه القصيدة الرائعة لكي يطاول الاعمدة الستة في بعابك ويشمخ عليها
ويخلد :

وقد يوفق مطران في ساعات التجلي فيسعه الخيال والعاطفة ويأخذ عقل
الشاعر مكانه من العربة وتأتي الصياغة الفنية وقد قصت على قد فلا زيادة ولا نقصان كلام
منسجم منسق وابيات مترابطة متألفة تشكل وحدة القصيدة او الوحدة الشعرية - وهي الرباط الذي
يضم التجربة ، والصور ، والانفعالات ، والموسيقى ، والالفاظ في وشاح اثيرى - وبهذه الوحدة
مبتكامل القصيد وتدب فيه الحياة . فهل اروع من هذا القول وابلغ : (انا الاسد الباكي ، انا جبل
الاسى) (فيا منتهى حبي الى منتهى المعنى)
(دعوتك استشفي اليك فوافني)
(على غير علم منك انك لي آسي)

فمطران كما يقول مندور (١) يحتفل بالصياغة ولكن هذا الاحتفال يختلف اختلافاً بينا عن احتفال مدرسة ابي تمام بها المسماة بمدرسة البديع ، وعلى هذا الاساس لا يمكن ان يوصف شعر الخليل على انه شعر مصنوع ، على نحو ما يوصف شعر البديع ، فالصنعة فيه محكمة الى حد الخفاء ، حتى ليصح القول بانها من صميم الخلق الشعري .

وعناصر الرومانتيكية قائمة في هذه القصيدة ، وفيها حتى الهرب من المجتمع الفاسد والانفراد واللجوء الى الطبيعة وذلك حيث يقول :

الى "عين شمس" قد لجأت وحاجتي
اسرى همومي بانفرادي آمنًا
طلاقة جولم يدنس بارجاس
مكايد واشرا ونعائم دساس

وحبه لفتاته الذي لا ينسأه يذكىه الالم ويبعثه الحزن ينساب خيطا دقيقا خلال القصيدة كأنه الطيف :

فقا لله لولا ذلك الطيف والهوى
ومن (غريب الى عصفورة مغترية) (٢) وقد نظمها الشاعر في جنيف بقرب تمثال جان جاك روسو ، زعيم الرومانتيكيين الاكبر ، وقد رأى على شجرة طائرا يشبه ان يكون مصريا . هي خطرة فكر للناظم الف ان يرسل مثلها في موعد من كل عام تحية الى فقيد عزيز في عالم الغيب . وقد جعل مدارها في هذه القصيدة على عصفورة اشبهت عليه ان تكون مجلوبة من مصر للاتجار او قاطعة من قواطع الاطيار .

يستهل الشاعر هذه القصيدة استهلالا رومانتيكيا رائعا :

يا من شككت الي معي
شكواك الطف بلسم
ما اعلق الشد والرخيم
غني اهازيج النوى
طيبته في سمعي
لجراحة المتوجع
بكل قلب مولوع
وعلى نواحي اوقعي

ويعد ان يذكر مصر ويمتدحها ويصف السرب وكيف يتجمع وكيف يسير اجمل وصف واروعه ، ويحمد عصفورته المرححة الطليقة يطلب منها ان تعود الى مصر وتزور قبر حبيبته وتبلغها سلامه وتذكر

(١) مندور ، خليل مطران ص : ١٥

(٢) الديوان ٢ ص : ٢١

لها بانة لا يزال على عهد من الحب والهوى :

سيري وولي صدرك ال	مشتاق شطر المريع
حتى اذا ما جئتسه	وشرعت اعذب مشرع
وشدوت ما شاء السرو	ر على ارتقاص الافرع
عوجي ببستان هنسا	لك في العراء مضيع
صفصافه متساوح	والنور يادى الدمع
لي في ثراه دفينه	كالكنز في المستودع
تخفي الازاهر قبرها	عن اعين المستطلع
كانت مثلا للمحسا	سن في مثال اروع
فتحولت لطف السى	طيف ارق وابعدع
طيف يشف به البلى	عن رفعة وتمنع
قولي له ان جئتسه	يا انس هذا البلقع
اتحسن في هذا الثرى	نبضات قلب موجع ؟
هذا حنين من فوا	د محبك المتفجع
عدت العوادى جسمه	عن قسرب هذا المضجع
فمضى باحزن ما يكو	ن اخوالاسى وباجزع
ونوى الضريح اضره	كواك يوم المصرع

عند الملائك ، فاشفعي .

نعم الشفيعه انت لسي

فلا شك في ان هذه القصيدة من القصائد الرومانتيكية الرائعة يشحنها الشاعر بالحنين الى تلك الحبيبة التي لم تفارقه ذكراها . وفي مطلع القصيدة الرائع يجعل الشاعر العصفورة تشاركه المم ، ففي شدوها الحزين الم يستطيه الشاعر ، الوحيد ، الغريب ، فهو لم يكتف بان يتلذذ بالالم من حيث ان يشعر به ويحسه بل ويجعل حاسة السمع (طبيئته في مسعني) تشارك ايضا حاسة الشعور فتشترك حواسه بهذه اللذة التي يبعثها الالم .

وكان الشاعر قد اعتاض عن فقد ها بضريحها يزوره ويسقيه دموعه ويبثه اشجاناه فحرم

حتى من قسرب هذا الضريح فزاد الم الما :

كرواك يوم المصراع

ونوى الضريح اضره

وهكذا فان صاحبتة - التي كانت قد ماتت - كما يقول ادهم (١) بما كانت قد تركته في نفسه من ذكريات كانت تحضر في ذهنه كل عام فيتحرك في صدره الشجن فينظم فيها مرثاة جديدة ، وهكذا ظل مطران يرثيها مدة عشرين سنة .

ومن قصائد الذكرى هذه ، قصيدة بعنوان (وردة ماتت) (٢) يشبه فيها الشاعر حبيته الميتة بالوردة التي تموت في عنفوان العمر فترحب بها الارض وتفتح لها صدرها ويذبل الريحان حرقه عليها وتغمض عيون النرجس ، والفراشات - شبهات الطير - حائرة تنوح على قبر هذه الوردة التي تمام بين الازهار والورود . وقد اخذ الشاعر يسأل هذه الفراشات :

شبهات الطير ؟ قالت وابانت :
ههنا محبوبة عاشت وعانت
ملكك بالحق ، والجنة داننت
هبطت عن ذلك العرش وبانت
اثرها او نتلقى حيث كانت *

ما الذي تبغين من جودك يا
نحن - آمال الصبي - كانت لنا
كانت الوردة في جنبتنا
ما لبثنا ان رأيناها وقد
فترانا نتحرقى ابدا

وهنا يبدو وجليا هذا التعاطف بين الشاعر والطبيعة . فكان الارض والزهر والفراشات والغصون تشاركه في حنوه ولوعته ، فقيدته لم تعد فقيدته وحده بل اصبح له في فقدتها شركاء ، واصبح الفاقد الاصيل يسأل شركاءه عن فقيدته .

همت بأخذ ذبولها وبلثها
اهوى بمعطفه ومال لضمها

فاذا دنت في سيرها من زهرة
او جاورت فرعا رطيبا لينها

والروض الذي يصفي لطيب حديثها :

تصفي لطيب حديثها ولنمها .

والروض ساكنة الى نسمايتها

وتتضح هذه الفكرة اكثر في قصيدته (النرجسة) (٣) حيث يروي قصة شاب لبي نداء الوطن

(١) ادهم ص: ٢٩

(٢) الديوان ٢: ص: ١٠

(٣) الديوان ١: ص: ٦٣

فحزنت عروسه لفراقه وغرست زهرة نرجس تسليها الى ان يعود ؛ وكانت تتعهدا وترعاها
الى ان جاءها نعي زوجها فشقت مرارتها عليه ولما تفقدت اليقتها النرجسة فاذا بها تموت
وفي عينها دمعة .

سفرا وجاء بنفسه متطوعا	داع دعاه الى الجهاد فازمعا
فناى وودع قلبه ان ودعا	غلبت حميته هواه بعرسه
في الحزن غير امينة ان تفجعا	وقضت " امينة " بعده ايامها
لتكون سلوتها الى ان يرجعا	غرست بصحن الدار زهرة نرجس
ترعى عيون الام طفلا مرضعا	كانت تبالغ في رعايتها كما
نبأ اصم المسمعين وروعها	حتى اذا ما جاءها عن بعلها
من هول ذاك الخطب ان تتصدعا	شقت مرارتها عليه واوشكت
مما شجاها لم يكن متوقعا	وكان ذاك الرزق قبل وقوعه
كانت سلتها حسرة وتوجعا	فتفقدت صباحا اليقتها التي
عين اسال الحزن منها مدمعا	فاذا نضارتها زوت وكأنها

لا شك في ان في هذه القصيدة منتهى التفاعل والمشاركة بين الانسان والطبيعة .
وعلى ذلك يعلق نجيب جمال الدين (١) :

" ان انعدام الكائنات كافة ، احيائها وجمادها في وحدة الوجود الشاملة في ذهن
الشاعر ، وتحسسه العميق بهذه الوحدة ، يتسق واعمق التأملات الفلسفية في الحياة والفن ،
ثم ان الانفاضة بها عن صفحة وجدان الشاعر ، لفتح جديد في ادب العرب ! " .

وفي (غزل) (٢) يصف حبيبته ويعترف بان ذكراها لا تفارقه :

اعيت محاسنه بياني	يا مائسا عن فصن بان
اني اضعت جميل صبرى	اني اضعك وافتتسانني
هل يلام على افتتسان ؟	من يعبد الشمس المنيرة ،
لورثيت لذل عساني	رحماك يا طلق المحييا
لك في سواد القلب حاني	ابدا يظل على مثيا

(١) جمال الدين ، نجيب خليل مطران شاعر العصر ص ٤١ : (٢) الديوان ص ٤٠ : ص ١٩٥

كل بآن غير ذكرك فهو شغلي كل آن

والطبيعة ، لا يغفل عنها مطران فهي حرم الرومانتيكي الاكبر ففي (البنفسجة) (١)
يقول :

الحسن كل الحسن في الطبيعة انظر الى آياتها البديعة
ماذا تقول الزهرة الوديعة ؟

ومطران شأن الشاعر الرومانتيكي ، مولع بالجمال يتعشقه ويتبعه : فهو في وجهه حسنا
او منظر جميل او زهرة حلوة .

وكذلك احب مطران الخير والحق مكملا الاقنيم الثلاثة ، فعاش حياته محبا
للخير ساعيا له داعيا مطالبا بنصرته .

ولا شك في ان حبه لفتاته لم يكن لانها جميلة كما صورها وحسب ، بل لانها
جمعت بالاضافة الى الجمال الرقة واللفظ والعطف والدماسة والحنو والكرم :

وبصور مطران حبيبته هذه مظهرا شخصيتها في قصيدته (العصفور) (آ) حيث
يصف نزهة كان يقوم بها بصحبتها في المساء وبينما هما عائدين وانا هما بالقرب من
منزل حقير استأذنته الفتاة وهرولت نحو المنزل فارتاب الشاعر ولحق بها فاذا هو امام ام تبكي
واطفالها السبعة وبينهم " ليلي " كالملاك تجزل لهم العطا . فاعجب الشاعر بما رأى ورجع
الى السوراء ولما عادت فتاته ابدى لها اعجابه من تلتفها بالعطا فتصلت واكرت حيا فكانت
لاول مرة تكذب وفي ذلك يقول :

فتصلت كذبا ولم
ولربما كذب الجوا
يخفي الكريم مكانه
يسبق لها قول افترأ
د فكان اصدق في السخا
فتراه اطيبار السما

ولم يقف حنو فتاته عند العطف على البوسا الساكين فما اكمل طريقهما يتجانبان اطراف الاحاديث
اذ بعصفور صغير يهوى مرتجفا من احدى الشرف فامرعت " ليلي " تلتقطه بحنو ورفق وتأخذه

(١) الديوان ج ٤ ص : ٢٤٩

(٢) " ج ١ ص : ١٠١

أخذ الام لطفلها تدفئه وتعيد له الحياة فأكبر الشاعر لها هذه العاطفة .

ويصيب ادهم حين يقول (١)؛

"كانت حبيبة مطران فتاة ذات حسن وجمال . ويظهر من مطالعة شعر الخليل فيها انها كانت فتاة غنية الاحساس ثرية الشعور تفيض بهما على صاحبها وتغمره فاذا باوتار نفسه تيمتر واذا بصحنة وجدانه تتكشف لها وشائج الصلة بين حياة الحب التي يحيها وحياة الطبيعة التي تبدو^{له} في مجالها ومشاهد^{ها} ."

ومهما يكن من امر فان مطران شاعر الرومانتيكية الاول في شعرنا الحديث . يرتكز شعره هذا - شرط ان يصغر - على العاطفة والخيال والفكر . وتمتاز عاطفته بالعمق والاتساع والغنى ، وخياله مصور رائع يوزعه الفكر ويوجهه ومن اثر هذا الفكر انه خلغ على عاطفة الشاعر الثبات وخفت الموسيقى الشعرية وجعلها هادئة ناعمة ، وعنه يقول السحرتي؛ (٢)

"ان مطران قد حمل شعلة الابداعية منذ اكثر من اربعين عاما وشعره يعد نقطة تحول في الادب العربي المعاصر ، وقد اكتفى الرجل بأداء رسالته تاركا للشباب تطوير الشعر الحديث ، وتجديده موضحا واسلوبا ، وقد ازهرت لحسن الحظ براعم هذا التجديد ، فاخرج بعض شباب الشرق العربي نماذج فريدة في الشعر الابداعي والواقعي ."

وخلاصة القول ، فاللامح الرومانتيكية التي تبد وبارزة في شعر مطران هي :

- ١ - تقديسه للحب وجعله الرابط الذي يربط العوالم بعضها ببعض (بدر ويدر) (العالم الصغير مرآة العالم الكبير) .
- ٢ - حبه لفتاته (حكاية عاشقين) .
- ٣ - تقربه من الطبيعة والنظر اليها نظرة جديدة ومشاركتها له في احساسه والحلول فيها . (مشاكة بيني وبين النجم) (من غريب الى عصفورة مغترية) (البنفسجة) (المساء) .
- ٤ - تقديسه للالم (المساء) (الاسد الباكي) .

(١) ادهم ص ٧٧

(٢) السحرتي مصطفى عبد اللطيف الشعر المعاصر ص ٢١٧

- ٥ - الكآبة "Melancolie" (حكاية عاشقين)
- ٦ - حبه للجمال (حكاية عاشقين) .
- ٧ - نغمته على الفساد في المجتمع وهربه الى الطبيعة (الاسد الباكي) .
(المساء)
- ٨ - خروجه الى صوفية شرقية (العالم الصخير مرآة العالم الكبير) .:

اغراض شعریہ

أ - شعر القصص

قلنا في حديثنا عن مطران الشاعر في معرض الكلام على تجديده انه جدر في الشعر القصصي وكان بحق اول شاعر عربي نضج عنده هذا الفن .

وقصص مطران ينقسم الى قسمين :

١ - قصص تاريخي يأخذ مادته من التاريخ اما باستغلال القصة التاريخية استغلالا تاما ام يتناولها الخيال بشي من التحوير . مثال ذلك : (مقتل بزرجمهر) (١) (نيرون) (٢) (فتاة الجبل الاسود) (٣) و (فجنان قهوة) (٤) وهو في قصصه هذا تائر على الظلم والاستبداد يتخذ قصص التاريخ يلف بها بندور ثورته ونقته .

٢ - وقصص اجتماعي لم يأخذ مادته من التاريخ بل التقطه من صميم الحياة

الاجتماعية والبيئة التي يعيش فيها وسكب فيه ما شاء من احاديث . امثال : (بنت شيخ القبيلة) (٥) و (الجنين الشهيد) (٦) و (حكاية عاشقين) (٧) و (الوردة والزنبقة) (٨) و (الطفلان) (٩) و (وقاء) (١٠)

وهو ، شأن من عصره من الشعراء ، درس التاريخ واستفاد من كبار احداثه واصدق ما يدل على هذا القول انه يفتتح ديوانه بقصيدة تاريخية (١٨٠٦ - ١٨٢٠) يصف فيها انتصار نابليون الاول على الالمان في معركة يانا ودخوله برلين ثم انتصار الالمان على نابليون الثالث ودخولهم باريس . واولى تأليف مطران كانت في التاريخ فقد الف كتابا سماه "مرآة الايام في التاريخ العام" في جزئين صدر الاول منهما سنة ١٨٩٢ وفيه يجمع آراء كان قد قرأها في كتب التاريخ .

وقد ساعد مطران من طريق آخر على بحث القصص ووضع هذا اللون ، الجديد

على الادب العربي ، بين ايدي القارى وتحويله عليه كي يألفه ذوقه فيقبل عليه . وكان ذلك عن طريق ترجمته لروائع مسرحيات الغرب . فقد ترجم لكورني : Cornell السيد "Le Cid"

(١) الديوان ١ : ١٢٠	(٦) الديوان ١ : ٢٢٧
(٢) " ٣ : ٥٠	(٧) " ١ : ١٨٥
(٣) " ١ : ١٧٩	(٨) " ١ : ١٣٤
(٤) " ١ : ١٤٨	(٩) " ٢ : ٦١
(٥) " ٤ : ١٠٦	(١٠) " ١ : ١٠٥

٠٢ سينا Cinna ٠٣ بوليكت Polyuote وترجم لراسين Racine بارانيس
Bérénice وترجم لشكسبير Shakespeare ٠١ هاملت Hamlet ٠٢ ماكبث Macbeth
٠٣ عطيل Othello ٠٤ تاجر البندقية The Merchant of Venice و٠٥ الملك
لير King Lear وترجم بالاضافة الى ذلك رواية "هرناني Hernani لفكتور هييجو
Victor Hugo

هذا بالاضافة الى ما خطه قلمه من روائع .

واني سوف امسك الكلام على قصص مطران التاريخي الى فصل يفرد للشاعر
الخبير ، لان هذا القصص يدور جميعه على الثورة والحريه .

واتناول الآن قصص مطران الاجتماعي الذي استطاع ان ينال بواسطته قصب السبق
في هذا اللون الجديد من الأدب .

ففي (وفاء) (١) يقص الشاعر قصة فتاة عوادة جرت في مصر وقد حضر الناظم
ختمها . ويبدأ قصته بوصف محاسن الفتاة التي آثرت الطواف متسولة محافظة على شرفها رافضة
كل ما يبذل لها من ثمن لو ارتضته لعاشت في نعيم . وكان ان رآها فتى وسيم الطلعة غني ،
فغازلها فأبت واعرضت عنه وحاول ان يشتريها بالمال فصدته ثم صادفها ذات يوم في روضة واخذ
يتوددها فاستبانست في كلامه صدقا وكشفت له عن رقة حالها وضعة حسبها وعن انه لا يمكن ان
يكون صادقا في طلب يدها وهو له ما يشاء وباستطاعته ان يجد فتاة اجمل منها وارفع مجدا
وجاها . ولكن الفتى اكد لها صدق كلامه :

واسقام قلبي الواله المتوجع
وما حولنا من نورها المتفرع
وما فيه من زهر وعطر مضوع
وهذي الشعاع المومئيات بانزع
وهذي الغصون المصغيات بمسمع
ومهما تسبهن صبوتي فيك اخضع

فقال لها : بل يشهد الله بيننا
وتشهد هذي الشمس عند غروبها
ويشهد ذا الروض الارضود ووجه
وهذي الظلال الباسطات اكفها
وهذي المياه الناظرات باعين
باني لا ابغي سواك حليمة

فتهش لحد يشه وتتأبها نشوة من السرور وغدت كالملاح يرى منارة :

له بلقا اهل وصحب ومرسع

ولا آنس الملاح بشرى مغارة

وتعاهد ا على الحب والوفاء .

ويقتربان ، ولا يمر عام حتى ينزل بالفتاة داء قاتل فيجنو عليها خليلها ، وينسلخ على اساه قلبه ؛ يظهر لها البشاشة ويخفي الجمر المصتعر ينهش هديره نهشا . واذا بها تدعوه وتخبره بان اجلها قد دنا وتطلب منه ان لا يبتعد عنها لانها تحس دنو الموت اذا ما عنها حبيبها ابتعد . وتذكره بالعهد الذي قطعاه ، فالموت يفي الامانات وتطلب منه ان يتمتع بشبابه بعدها فهو في حل من عهده يكيها ان يحتفظ لها بصورة في اصغر زاوية من قلبه .

ولكن الفتى الوفي يأبى ان تموت حبيبته ويعيش بعدها فما ان ذهبت في التراب حتى قتله الياس ولحق بها الى العالم الآخر :

وهكذا تنتهي القصة وقد صور فيها مطران الوفاء احسن تصوير . وقصته هذه التي تنتهي بمأساة ، ان يموت البطلان ، متأثرة فيها : شروط القصة من عرض وعقدة وحل . فقد يعرض مطران قصته عرضا رائعا من حيث الحيك والسبك بلغة سلمة وشعر رفيع ونغم داخلي لا يشور حتى ليهدأ .

و (الوردة والزنبقة) (١) قصة فتاة ابعد عنها الياف صباها وابى اهله تزويجه منها لانها فقيرة . وهي على شكل رسالة من ليلى الى عزيز . تبدأ القصة وليلى تشكو لحبيبها ما تعانيه من جوى الحب وحرقة البعاد . ولم يبق من وسيلة تجمع بينهما غير الرسائل تأتيها من حبيبها فتعيد لها الحياة . والذي يزيد في المها ان دارليهما تتقابلان ولكن ليس لهذا القرب من فائدة ، وتظلم الدنيا في عينها فلا شيء تأمله غير الموت فلا السروض يخفف عنها ولا الزهر يروق لها . وتنزل سحرا الى حد يقتها تبه الأزهار من نومها تجمع باقة تحاول بها سلوم صابها فتبدر لها وردة كئيبة حزينة في ذبولها قصة حب عنيف للزنبق الذي يشمخ بقربها يطاوع ریح الصبا فيعطف عليها مقبلا فتم الفتاة يقطفها تين الزهرتين فاذا بوالدها يمسك يدها

والدمع في عينيه ويقول لها ، دون ان يعلم ما وقع كلامه على فتاته ، هفوا يا بنيتي ترفقي
بهتين الزهرتين العاشقتين ولا تقضي عليهما وان يكن الموت يريجهما من عذاب الحب ، دعينا
نشهد قصة حبهما وخاتمتها كيف تكون :

اذ الالف فياس المعاطف اميل
يسر اليها سر من يتغزل
ويعرض عنها لاعبا ثم يقبل
دموع الندى خمرا رحيقا فيمثل

فقد جاورت هذى الوفية الفها
فكان اذا مرت به نسـم الصبا
يداعبها جهد الصباة والهوى
ويرشف كل من جنين حبيبه

ولكن غصن الزنبق ما يلبث ان يجف ويلتوي فتحزن الوردة لفراق اليغها الموشك ، ويلوى الحزن
فغفها حتى ليبد وانها سوف تسبقه الى الموت .

وما كانت قصة الوالد التي تدور على حب الوردة للزنبق الا قصة فتاته وحبيبها، فالوالد
الذى يبكي الزهرتين كان اجدر به ان يبكي فتاته ويرثى لحالها :

رأها ابي في الزهرتين تمثل
لصان لنا الدمع الذى راح يبذل
حد يشهما بين الازاهر ينقل
كأنى للنائي الحبيب اقبل
اراني بمرآة اموت واذ بـ

فوا رحمتا هذى حقيقة حالنا
بكى جزعا للزهرتين ولو درى
هما صورتانا في الهوى وحد يثنا
اقبل ذاك الغصن كل صبيحة
وانظراختي في الشقاء كأننى

وهكذا تنتهي القصة التي يجبلها مطران برومانتيكيته ويصورها بخياله .

قصة حب وحرمان ينتهي بموت اكيد .

وارقى قصصه الاجتماعي (الجنين الشهيد) (١) يقدم لها بقوله : " هي قصة جرت
في مصر حضر الناظم وقائعها كما شهد حكاية العاشقين ووصفها بحقيقتها لتكون تذكرة
وعبرة : "

وفي ذلك اعتراف صريح بأن القصة واقعية وليست من نسج الخيال ، ^{التقطتها} التقطتها عدسة الشاعر من البيئة التي يعيش فيها .

والقصة طويلة تقع في اثنتين وعشرين صفحة تدور على صبية حسنة فقيرة جاءت القاهرة من الصعيد مستعطي وتتسول لتعول أهلها . ويصور الشاعر شقاءها وقرها ثم جمالها واكتمال انوثتها وافتح كسوز صدرها تصويراً رائعاً .

وتبدأ العقدة حين يعرض الأب ، وقد شاهد اكتمال انوثة فتاته ، على زوجته ان تعمل " ليلي " في إحدى الحانات ففي ذلك دخل وافرى كفيهما مؤونة السؤال ويهيى لهم جميعاً عيشاً افضل . فتقتنع الام وتتودد من ابنتها وتعترف لها بانها هي بلسم لها ولوالدها . وللحال تظهر الفتاة رغبتها في ان تعمل كل ما تشير اليه امها اذا كان في ذلك اسعاد للوالدين . فتكاشفها الام بما هيأ لها من عمل في إحدى الحانات وتدفع الفتاة في طريق الخواية والضلال .

ويقبل طلاب المجنون على (ليلي) يخطبون ودها ويطلبون رضاها يتغنون في وصف محاسنها والتودد اليها ومداعبتها . وابوا ان يصدقوا ان الفتاة عذراء وراحوا يهزؤون منها ومن عفافها .

غير ان احد الرفاق استاء من تصرف رفاقه وقد ازججوا الفتاة واسمعوها كل كلام وقع فيها جهم ودافع عنها . وتدور الخمرة في الرووس ويشمل الصحب وكلهم نكأب يتسابقون الى افتراس نعجة ودبعة ، وهي تتدلل وتعرض عنهم فتزيد في رغبتهم فيها . وتتقن الفتاة صنعتها وتحسن صيد العشاق المتييمين . فتتهال عليها الاموال لتنتهي بها الى والدتها تبتاع بها حلى وتعيش في سرف ونعيم .

وتتزلق " ليلي " نحو الرذيلة تبيع جسد لها وعفافها ، تتقن المكر والكذب والخداع ، وهنا يستفيض الشاعر في تحليل الشرف والعفاف وتصوير نفسية الفتاة الساقطة . وهو في ذلك ينظر نظرة اجتماعية خلقية وينتهي بان الخداع يستطيع ان يظهر البغي اذا احتشمت ولبست لباس التعفف مظهر الحرة الابيعة بحيث يختلط الامر في التمييز بين الاثنين ؛

وهل في ضياء الشهب فرق لمستجلي ؟

ولكن فتى جميلا ندلا كان يعيل الى ليلى ويظهر تودده وهي تصده وتميل عنه
وظل يجالسها ويلاصقها الى ان عدها بالزواج فراق ذلك لها وماذا تبغي فتاة مثلها غير
صدر زوج تسند رأسها عليه وتتصرف عن حياتها البائسة . وانتهت مماطلتها بالقبول واحبته
وكذبت ما روته صديقاتها عنه ، ويجي " جميل فتقبل عليه وتخفل سائر الناس وكان بين جلاسها شيخ
متصاب يبذل لها المال وتبذل الود لسواه . فيلومها على ذلك ويغلظ لها القول فينتصر لها
" جميل " ويوسع الشيخ لكما وضربا . وزادها ذلك المشهد حبا لجميل الذي وجدت فيه نصيرا
ومدافعا . ويستغل حبا له ويختم الفرصة ويقودها الى مكان قفر معد لكل محرم :

فعمت ، فمناها ، فزادت تمنعا

فاقسم الا ان يموتا اذا معا

طعيني حديد بين كفيه مستل

ويبالغ في اغرائها ويقسم لها انه من الخد يكون بعلمها فيرفع شأنها ويعيل اهلها .

وكان الدجى قد رق حتى تصدعا

وهب بشير الصبح يرتاد مطلععا

فما زال يجلو خافيا ومقنعا

الى ان نضا ادنى الستور وقد وعى

بما طاهرا اجراه اثم فتى نذل

وقد ذكر هذا المقطع في الطبعة الاولى من الجزء الاول من ديوان الخليل في ص ٢٢٢
على شيء من التحوير :

وكان يهم الصبح ان يتطلععا

ويغترز ازرار السما ليسطععا

ويرفع ثوب الليل عنه ليخلععا

فلم يطومنه النذل الا وقد وعى

دما طاهرا جراه اثم فتى نذل

ويعلق ادهم على هذا المقطع بقوله : " فيه صنعة شعرية ماهرة متقنة . اراد الشاعر
ان يصور اعتداء الشاب على الفتاة وفض بكارتها قبل ان يتنفس الصبح ويشهق . فوصف الجو
وكأنه كان يصف عملية الاعتداء وما يسبقها وما يرافقها من فك ازرار وانزليج استار وخلع ثياب :
فجعل الصبح يغترز ازرار السما ليسطع ويرفع ثوب الليل جاعلا للسما ازارا وللليل اثوابا ثم ذكر
ذيل الردا " وهنا انتهت عملية " التشليح " فارك الدم - ان مطران هنا يشبه الكمر تاركة
لك ما حذفته المراقبة لتعود وتظهر لك دما احمر تستدل منه على ما جرى تاركا لخيلك ان

يشارك دون عينيك بما حدث . لقد قصد مطران الى هذا الطباقي وتعمدته قاصدا الى جعل الصورة مزدوجة كأنما وضع مرآة داخل مرآة .

وتسقط الفتاة وتحمل ويجفوها الناس وجميل يسلبها ما كانت قد ادخرت من مال وهي تعطيه مخافة ان يتحول عنها وهو ينفق ما تعطيه في البذخ والترف يسيء اليها وتغفر له ، وتقبل منه المرء . وتسوء حالها وتمرض وتطلب منه ان يرد لها ما اعطته من اموال لكي تستشفى فيعدها وينصرف الى غير لقاء . ويتركها حاملا مريضة جفاها اهلها وازور عنها الناس .

وتفقد كل ما كانت تملكه حتى الخاتم الذي كان قدمه لها . وتتصرف الى طلب المغفرة تضرع الى الله تسأله ان يترفق بجنينها الذي جنت عليه . ثم تصم على قتل الطفل فلماذا يحييا وليس له اب اتركه يحييا للذل والفقر ؟ . اما عاشت هي في الذل والفقر وانتهت بها الطريق الى حيث انتهت ؟ .

ويصف مطران هذا الصراع في ضمير المرأة فهو ولدها وفلذة كبدها ائتمنيه للذل ام تقتله وترتكب اثما فترجحه من حياة ليس فيها غير الشقاء ؟ وتقتله آخر الامر .

الا لم هذا الطفل يحييا ولا ابا له ؟ اليسقى شقوتي ويعذبنا ؟

.....

تموت ولما تستهل مبشرا تموت ولم انظر محياك مسفرا

تفارق قبرا فيه عذبت اشهرا الى جدت منه ابر واطهرا

وتحيا صنار الطير دونك والنحل .

فان تلق وجه الله في عالم السنى فقل ربي اغفر ذنباي محسنا

فما اقرت شيئا ولكن ابي جنى علينا فعاقبه بتعذيبه لنا

وامطره نارا تبتليه ولا تبلني

ويستفيق ضميرها وتعترف بانها شريكة في الجريمة :

كفرت بحبي في اشتداد غضبي فعفوك يا ابني ما ابوك بمذنب

فقل : رب ابي اهلكتي لا ابي وامي زنت حتى جنت ما جنته بي

فزدها شقاء وارجزها القتل بالقتل

وتسقط جنينها لتعود بعد عام وتسلموا فعلت . وجميل ناعم البال حتى اذا التقت
عيناه بليلي لهما لذكرى الشهيدين . البكاره ، والطفل .

وتلاحظ ان هذه القصيدة التي يندران يوجد مثلها في الشعر العربي قديمه وحديثه
تكاد تحوى جميع مميزات شعر مطران . فالخيال ، والعاطفة ، والتصوير ، وحسن السبك ،
ووحدة القصيدة ، جميعها تجدها فيها .

وحدة القصيدة التي قلنا ان مطران امتاز بها واكيد عليها وهو فهم القصيدة
انها وحدة عضوية متماسكة وليست ابياتا مفككة تنقل وتبدل دون ان يتأثر المعنى او يختل
القصيد .

واكثر ما تبتد ووحدة القصيدة في شعره القصصي ذلك ما يؤكد منسدر في قوله^(١) :
" ومد رسة الجديد في الشعر العربي الحديث لم تهاجم تفكك القصيدة لتباين اغراضها
وانتقال القوى فيها من غرض الى غرض فحسب ، بل هاجمت ايضا التفكك في الغرض الواحد .
وطلبت بالا تقتصر القصيدة على وحدة الغرض بل وان تبنى بنا عضويا بحيث لا يستقل عما سبقه
وما لحقه . ولا يمكن ان ينقل من يوضعه الى موضع آخر الا اذا امكن ان ينقل الذراع او الساق
او العين من مكان الى آخر في الجسم البشرى ، وهذه الوحدة العضوية للقصيدة مبداء دعا
اليه خليل مطران في مقدمة ديوانه واخذ به في طوال قصائده القصصية والدراماتيكية
بل وفي سائر القصائد : "

فلا شك في اننا لا نستطيع ان نعبث في قصص مطران فلا سبيل الى تقديم او تأخير
او زيادة او نقصان ، وهذا بدهي اذ ان مطران يروي قصته متسقة الحوادث فلا مجال الى
الاخلال في سياقها .

ويرى شفيق المعلوف^(٢) انه ليس غلوا قولنا ان خليلا قد بسز في فن الشعر القصصي
كل من تقدمه من شعراء العرب . ولو تتبعنا نتاجه الادبي لوجدنا ذلك النوع غالبا في معظم
شعره ، واليك ما قاله في احدي بواكير قصائده في وصف فاجعة :

(١) منسدر ، الدكتور محمد الشعر المصري بعد شوقي ص ١٥

(٢) المعلوف ، شفيق العصبية مجلد ١٠ (١٩٤٩)

خطيبة شهر سابق الموت بعلمها إليها فاغواها ولكن على ظهر.

فقد جاء هذا البيت وحده قصة كاملة في بضع كلمات ، ودل دلالة واضحة على ما لمطران من نقاء فكرة وصفاً خيال ، ودقة وصف ، ويزاومة سرد كانت من أبرز صفاته ، ويدت باظهر مجاليتها في ما خلفه بعد ذلك من آثار .

وفي (غرام طفلين) (١) يروي قصة طفلين فتى وفتاة شبا معا على الهوى ثم يترقان كل الى مدرسة فيتألمان لهذا الهوى ويتراسلان - وهما بعد لا يحسنان الكتابة - بالذكر تراسل القلب للقلب . وما ان عرفا خط الحروف حتى كتب الفتى "سلمى" وخطت الفتاة "يوسف" فكان هتين اللفظتين جمعاً كل المعاني .

ويبقى اسم "سلمى" محفوراً على قلب "يوسف" الذي يظل على نار البعائيت اشواقه الى حبيبته :

وكذلك تتألم الفتاة في مدرستها . اهلها يبغون لها ان تهنا بتحصيل العلم وهي ترى في ذلك كل الشقاء وتأسف لعهد الصبي يضيع بغير حب . وتتمنى لو كانت مثل الطيور تمح هائثة كل اليق واليفته .

و (الطفلان) (٢) قصة شبيهة (بغرام طفلين) تدور على طفلة ثرية ذات حسب وطفل وضيع فقير كان اجيراً للفتاة اتخذها اهلها لتسليتها والهائها . وتشتد اواصر الصداقة والحب بين الطفلين في غفلة عن اهل الفتاة كلما كبرا في السن : كثيراً ما يمثلان عرساً فيتعانقان ويغمركن بعضهما بالقبيل ويسأل اهل الطفلة من تريد شريكاً لحياتها فتدل على الغلام . وما ان يكبرا حتى يفرق بينهما فتبتعد الفتاة عن الفتى ويقل اللقاء وكانت هذه مشيئة اهل الفتاة فيحزن الشاب ويقرر ان يذهب في سفر فيجي الفتاة مودعاً شاكياً حزنه وغرامه انه فقير حيل بينه وبين من يحب ؟ فليضرب في مجاهل الارض ويجمع المال اذا كان المال هو الوسيلة الوحيدة للحصول على فتاته . وقضى امواماً وراء البحار يجمع الذهب والفتاة ترقب عودته

(١) الديوان ٢٤٥ : ١١

(٢) ٦١ : ٢٢

وتحفظ حبه . ولكن ما تلبث ان يجيئها خطيب ثرى متهدم فتزج منه مكرهة . فلم تذق طعم الهناء تعيش على ذكرى حبيبها الغائب . وما تلبث ان تعتل وتموت في ريعان الصبي .

ويعود فتاها وقد اصاب ثرا وجاها عظيمين وما يلبث ان يعلم بالمصاب فيحزن اشد الحزن ويهاجم مجتمعا مجرما قضى لهما بالشقاء ، تباع فيه الفتاة كالسلعة ، وطلق بيكي فتاته ويندبها واذا بصوت يناديه من خلف الزمن : ان اللقاء في الجنة حيث الخلاص من شرور البشر .

و (نت شيخ القبيلة) (١) تقص قصة هواها وتذكر سعادتها بزواجها من "حسن" الذي احبته وآثرته على حبيب آخر يدعى "عمر" .

وهي قانعة بما قد اغدقه الله عليها من نعيم . فوالدها غني له الدور والقصور والجنائن .

وكان اول لقاء لها مع حسن على البئر حيث كانت مع بعض اترابها يملآن جرارهن فاذا بحسن وهو كمي ظمان ، جاء يطلب الماء فتسقيه وقد اعجبها حسنه ويسألها عن والدها وينصرف على ان يعود في الغد ويجتمعان ويقع كل في غرام الآخر وكانت ساعة من اطيب ما في العمر لولم يفاجئها "عمر" خطيبها الاول ، ولكنها تأبى ان تبدل "حسن" بـ "عمر" وتقرن به ويعيشان ~~بها~~ ~~بها~~ .

وهكذا نرى ان مطران في قصصه الاجتماعي نائر على اوضاع المجتمع الذي يحتقر الحب ويقف في سبيله ، ويقدم عليه المال ، فيرى الزواج تجارة وليس الة ومودة ، يرتبه الاهل دون ان يكون للفتاة فيه يد ، والذي يخاف الفاسق الفاجر يسلب الفتاة المستضعفة مالها وعفافها ويتركها هزئة للهازيين . ومطران يعرض الى هذه الآفات عرضا رومانتيكيا رائعا دون ان يغلب عنده موقف الوهظ والارشاد .

وفي هذه القصص تظهر شخصية مطران واضحة جلية . فهو اجتماعي ، دقيق الملاحظة ، يعالج مشاكل الحب لما كان له من تأثير عليه . وهو عطوف رؤوف ينتصر للمظلوم ويدافع عنه . عدسته مفتوحة متهيئة للتقاط المشاهد ، فيصف الوفاً ويصور الفقر ومآسي الحياة والفوارق الاجتماعية ويدعو الى الحرية وانصاف المظلومين .

شعر الثورة والحرية

شعر الثورة والحرية

لا تقل ثورة مطران على الاوضاع السياسية وعلى الظلم عن ثورته على
الاضاع الاجتماعية من جهل وفقير ومرض .

وثورته هذه التي يعكسها شعره تنقسم الى نوعين : نوع يقع
تحت القصص التاريخي يلجأ اليه الشاعر ويفرغ فيه نغمته على الظلم دون ان
يعرض باحد من الحاكمين ، يتناول شخصية تاريخية عرفت بالاستبداد
امثال كسرى ونيرون ويسكب فيها ثورته على الطغاة الظالمين يقرع الشعوب
المستكنة المتخاذلة وينفخ نار الثورة عن طريق غير مباشر .

والنوع الثاني هو قصائد نائرة متحررة صريحة يقولها الشاعر دون
خوف او وجل يتحدى السلطان ويتناول حوادث معينة يشجبها بجرأة وصراحة .

علمنا من مراجعة حياة الخليل انه نشأ نشأة حرة متحررة فكره
الظلم والاستبداد . ولا غرابة في ذلك فهو قد تربى تربية حرة ودرس
الادب والتاريخ الافرنسيين وهما حافلان باخبار الثورة وافكارها . وكان ان عاش
وتعرض في وطنه لبنان وهو تحت السيطرة التركية والاستبداد العثماني .
فثار الفتى على الظلم وكان يذهب الى اعالي الاشرفية مع بعض رفاقه ينشدون
" المارسييز " نشيد الثورة ورمز الاستقلال فارتابت السلطة التركية المتحكمة
في نشاط الشباب وهو لم يكن يبلغ السابعة عشرة من عمره ودبرت له
من يفتاله وكان ان نجا من الاغتيال وسافر الى فرنسا . ولم يطلق حبه للحرية
فاتصل بجماعة " تركيا الفتاة " مما جعل الحكومة التركية تطلب من الحكومة الفرنسية
ابعاده (١) .

كل هذا يدل على ان مطران نشأ نشأة الشاعر الناصر الحر . وكل شيء كان مهيئاً له ليكون كذلك : شعبه مستعبد ، وهو متعشق للحرية متشرب بروح الثورة الفرنسية ، وهو مضطهد ملاحق مهدد بالقتل . وهو فوق هذا وذاك شاعر حساس يتجاوب مع نفسه وبين قومه .

وفي حديث مع الشاعر يجيب على سؤال يتعلق بغرض الشعر يقول (١) :

لقد رايت ان الشعر كان عاملاً قويا في نهضة الدول ، فيجب ان يكون له غرض خاص في كل مقام . يجب ان لا يكون مجرد مدح و ذم و مراعاة للظروف والاحوال . ويجب ان يكون للقصيدة غرض واحد ، وان تكون صادقة بالنسبة لغرضك منها . هذا هو القصد الاول الذي من اجله عملت . والى جانب هذا كنت ارى آلام الشعوب وتعاساتها وانكرها واعتقد انها متأتية للشعوب منها لنفسها . اردت ان تشعر الشعوب بمسؤولياتها .

ان تشعر بحقها في الحياة الحرة السعيدة ، وان لا تنزل عن هذا الحق مرة واحدة لان رجلا حمل سكيننا واراد منها ان تفعل ذلك . ومن اجل هذا الغرض نظمت قصائد كثيرة التي تؤلف المجموعة الضخمة التي ازمع على نشرها بعنوان " الطفاة " (٢) من قصيدة (السور الكبير) الى قصيدة (نيرون) وما بعدها . التي عرضت فيها صور التاريخ وعبره ومسؤولية الشعوب ، وحقها ، بل واجبها في تقرير مصيرها . وفي جميع القصائد التي قلتها تأتي هذه الصورة على اشكال مختلفة :

بناء الناس قام جبابة ولو ذوبوا تذهيبه لجرى دما

(١) - حديث مع خليل مطران مجلة الطريق م ٤ عدد ١٤ ص ٣

(٢) - قام بهذا العمل الاستاذ رثيف خوري وجمع قصائد مطران التي تتناول الحرية وقدم لها بكتاب سماه " الطفاة " . . . / . . .

وقد ساعد الزمن على تطوير الفكر ، واشاعة هذه الاهداف ، وهذا المفهوم الجديد للشعر ، بمعاونة الحركات العامة العنيفة التي جرت في العالم من ثورات وحروب ، وتحولات في دول الشرق والغرب وانهيار الدولة العثمانية ونهضة البلاد العربية التي ادت الى عزل الرجعيين الجاحدين وانتصار روح الكفاح والتجديد في كل مكان وكل ميدان .

وينتقل من ذلك الى الحديث على المظالم الاجتماعية فيقول : * ان هناك نوعين من الشكوى : الشكوى من تصرفات القدر كالمرض والموت وغيرها والشكوى من الظلم الاجتماعي كالفقر والحرمان والاستبداد ، وقد يقول الشاعر ان الناس لا يكفون عن الشكوى ، فما لي اعيد ما يقولون ، ولكن الشكوى هي صرخة النفس المعذبة وصرخة الفكر الراغب في الاصلاح . وقد شكوت انا في قصائدي كثيرا ، فليس من قصيدة كتبتها الا وفيها تنديد بالظلم الاجتماعي وتطلع الى المساواة والحرية والعدل .

وكيف السبيل الى الرضى وتجنب الشكوى في بلاد كان اديب يقول عنها : * نفوس تحترق تحت رق لـ .

... فان الظلم والتفاوت وتحكم القوى في الضعيف ، امور غير

طبيعية يجب ومن الممكن ان تهزول * .

فمطران ، الشاعر الحسامي ، عاصر السلطان العاتي عبد الحميد وشارك شعب بلاده في تدمره وتأفقه من اللطفيان الترك ، ولمس انتفاض الشعوب البلقانية على استعمار الاتراك ووصف ذلك في (فتاة الجبل الاسود) (١) . وفي اول صباه غزا الانكليز مصر ، ثم جنوبي افريقيا

في الحرب الشهيرة بحرب البوير (الطفلة البويرية) (٢) . كما غزا الافرنسيون افريقيا الشمالية والطلينان طرابلس الغرب (عتاب واستصراخ) (٣) والدول العربية كانت تنتقل من استعمار الى استعمار تارة باسم الحماية وطورا باسم التمردن فلا بد للشاعر الحر من ان يتجاوب مع هذه الحوادث ويشور على الظلم . وكان من حظ الشعر العربي ان مطران كان بحق اول شاعر نائم متحرر لم يعيش في بلاط فيكون شاعرا رسميا كما كان شوقي ، ولم تقيده الوظيفة الرسمية كما قيدت حافظا في آخر ايامه فكان اكثر حرية وتجاوبا مع آلام الشعب ، وهو لم يكن يتخذ الحادثة السياسية العابرة بقدر ما كان ينظر الى مهاجمة الظلم من حيث هو بغير قيود ، والمطالبة بالحرية ليس لشعب او امة دون امة بل لجميع الناس على السواء .

وكان مجموع ما نظمه من شعر ثوري تسع قصائد هي :

١ - الاهرام ٢٠ - في ظل تمثال رعمسيس ٣٠ - السور الكبير في الصين

٤ - مقتل بزرجمهر - ٥ - فنجان قهوة - ٦ - نيرون - ٧ فتاة الجبل الاسود .

٨ - حرب غير عادلة ولا متعادلة - ٩ - عتاب واستصراخ .

فان مطران قد درس تاريخ الثورة الفرنسية بعلاوة على ذلك كله .

واخذ بها واحب نابوليون الاول ، ابنها البار ، وذكره في شعره مرارا :

١٠١ (١٨٠٦ - ١٨٧٠) (٣) يذكر انتصار نابوليون الاول على روسيا في معركة (يانا) .

(١) - الديوان ١ : ١٦٢

(٢) - = ٢ : ٧١

(٣) - = ١ : ١٥

٠٢ (نابوليون الاول وجندى يموت) (١)

٠٣ (نابوليون وهويرقرب السماء في اخريات ايامه) (٢)

ثم ان مطران كان على صلة حسنة برجال مصر الاحرار وخاصة

الزعيم مصطفى كامل .

يقول الرافعي (٣) : " كان بين مطران والزعيم مصطفى كامل صداقة

وود داما طول العمر ، كان مؤيدا لدعوته نصيرا لرسالته ، دافع

عنها في حياة مصطفى ، وظل وفيها لها بعد مائة ، ويبدو مبلغ اعجابيه

وتقديره لعبقريته في قصيدته التي انشدها سنة ١٩٠٨ في حفلة الاربعة

لوفاته . وقد نشرها في ديوانه وصدرها في طبعته الاولى بهذه الكلمة

التي تعد في ذاتها قصيدة من النثر المنظوم ،

قال : " مصيبة الشروق في رجله الفرد ، وبطله الاوحد ، مصطفى

كامل ، ايتها الروح العزيزة ! ان في هذا الديوان اختتمه برثائك ، نفحات

من نفحاتك ، ودعوات من دعائك ، فالى هيكلك المدفون بالتكريم تحية

الاخ المخلص للاخ الحميم ، ووداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم . "

ويظهر ولاءه له في قصيدته هذه حيث يقول :

جزع النصارى واليهود لمسلم هو خير من والي واوفى من وفى .

وكذلك قل عن سعد زغلول ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش

وسواهم من رجال مصر الاحرار .

... / ...

(١) - الديوان ٤١ : ١

(٢) - ٥٩ : ١

(٣) - الرافعي ، عبدالرحمن : شعراء الوطنية ص ١٦١

هَذَا، وَاذَاعِدْنَا إِلَى شِعْرِهِ مَاذَا نَجِدُ؟ نَجِدُ قَصِيدَةً
وَاحِدَةً، بِلِ مَقْطُوعَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ بَعْشَرَةَ آيَاتٍ فَقَطْ نَظَمَهُمَا حِوَالِي سَنَةِ
١٩٠٩ هَمَا (مَقَاطَعَةٌ) (١) وَ (تَهْدِيدٌ بِالنَّفْيِ) (٢)، يَجْهَرُ فِيهِمَا بِنَقْمَتِهِ عَلَى الظُّلْمِ
وَالْإِسْتِبْدَادِ .

أَيْنَ ذَهَبَتْ نَقْمَتُهُ فِي مَطْلَعِ شَبَابِهِ؟ . لِمَاذَا سَكَتَ، هَلْ تَغْيِيرُ
سِيَاسَةِ الْإِتْرَاقِ؟ أَمْ هَدَأَتْ ثَوْرَةَ الشَّبَابِ؟ أَمْ خَافَ فَسَكَتَ؟ .

لَا لِمِ تَغْيِيرِ سِيَاسَةِ الْإِتْرَاقِ وَلَمْ يَشْمَلِ الْعَدْلُ دُنْيَا الْبَشَرِ وَلَكِنْ
مَطْرَانَ لَمْ يَصْمَتْ بِلِ أَخْذِ يَظْهَرُ أَفْكَارَهُ الثَّائِرَةَ بِلِبَاسِ التَّارِيخِ فَيُنْظِمُ الْقِصَصَ
وَالْعَلَّاحِمَ وَالْقِصَائِدَ فِي ظُلْمِ الْحُكَّامِ الَّذِينَ مَدَّ لَهُمْ ضَعْفَ الشُّعُوبِ وَجَهْلِهِمْ
وَخُنُوعِهِمْ .

وَفِي رَأْيِ أَبِي شَادِي (٣) . قَدْ يَمْجِدُ مَطْرَانَ لِابْتِدَاعِهِ الْمَنْوُوعِ فِي
جَمِيعِ ضُرُوبِ الشُّعْرِ، وَلَيْسَ أَهْوَنُهَا الْقِصَصَ - وَلَا يَحَاقُّهُ بِمَا تَرَكَ لِغَيْرِهِ،
لَا عَنِ عَجْزٍ بِلِ عَنِ سَمَاحِهِ، كَالشُّعْرِ التَّعْثِيلِيِّ، وَقَدْ يَمْجِدُ، كَمَا مَجَدَ فِعْلًا
لِزِيَادَتِهِ الْعَمَّازَةَ فِي فَنُونِ الْإِدْبِ، وَلَكِنْ تَبْقَى الصِّفَةُ الْإِهْمُ لِمَطْرَانَ وَالنِّعْتُ
الْأَكْرَمُ، فَانْ شَاعَرَ الْحُرِّيَةَ الْفَنَانَ الْمَلْهُمِ أَوَّلَ الشُّعْرَاءِ الْإِحْرَارِ فِي الْعَالَمِ
الْعَرَبِيِّ جَمِيعِهِ بِأَسْمَى التَّقْدِيرِ .

وَلِنَأْخُذِ الْآنَ الْقِصَصَ التَّارِيخِيَّ الَّذِي وَضَعَ فِيهِ مَطْرَانَ ثَوْرَتَهُ عَلَى

... / ...

الظلم واخلاصه للحرية .

(١) - الديوان ٢ : ٩

(٢) - = ٢ : ٩ - ١٠

(٣) - ابوشادي، احمد زكي الاديب ١٢-١٠-١٥٣ ص ٣-٤

في (مقتل بزرجمهر)^(١) يعالج مطران موضوعا تاريخيا يتناول فيه كسرى ملك الفرس الذي اشتهر بالعدل ، فاذا كان هذا شأن العادلين من الحكام فما حال الملوك الظالمين ؟ . غير ان الشاعر يريد ان يصور اسطورة عدل كسرى الذي يمثل الحاكم المستبد الذي يقتل وزيره بزرجمهر لغير ما سبب ولم يستطع احد ان يقول له ما اجمل الكحل في عينيه ذلك لان الشعب الضعيف المستسلم لم يكن يجروء على محاسبة مليكه المستبد فلم يكن له الا ان يطيع ويعيش على الذل والخنوع ولم يقف في وجه كسرى ، الذي يمثل الطك المستبد العاتي ، سوى فتاة هي بنت الوزير بدت سافرة تغرى الجموع تقول للظالم شلت يدك ، وقد سرفت الفتاة لانها لم تربين الجموع رجالا :

هذا ما كانت البرياد
من هذا العبير السوي

ما كانت الحسناء ترفع سترها لوان في هذى الجموع رجلا لا

يبدأ الشاعر بتصوير كسرى وقد الهه شعب فارس ومسجدوا له وغفروا وجوههم فبغى وطفى ومرد ذلك الى استكانة الشعب وجهلته وضعفه فهو شعب ذليل ليس له ان يريد ، ولا يحسن الا ان يطيع :

ما كان كسرى ، ان طفى في قومه الا لما خلقوا به فعلا لا
هم حكموه فاستبد تحكما وهم ارادوا ان يصلوا ، فصلا
... لكن خفض الاكثرين جناحهم رفع الملوك وسود الابطالا

ففي هذه القصيدة يرمز مطران (بكسرى) الى الملك المستبد وشعب فارس الى كل شعب جاهل خانع مستضعف . وفيها يظهر مطران كرهه لكل حكم مستبد ظالم ويدعو الى الشورى والحكم العادل :

... / ...

والحكم اعدل ما يكون جدا لا ؟

وهولا يلوم كسرى الذى يستبد ويتجبر بقدر ما يلوم شعبه

الذى يرخي له العنان ويقف منه موقف المشرج كانه قطيع نجاج

تقاد قانعة راضية الى المذبح .

وفيهما مغزى آخر هو تعجيد المرأة الصارخة في وجه الظلم

والاستبداد . فالصيحة جاءت من المرأة . والمرأة الشرقية لم تتعود ان يكون لها

حساب فشاء مطران ان يصور ابنة بزجهمر صورة الفتاة الثائرة على

التقاليد البالية تفرض رايها وتجاهر به دونما خوف او وجل . ففي

موقفها هذا جعلت الرجل يخجل من نفسه ، وضعت امام مسوءلياته ونفخت

فيه روح الحماس والثورة .

هذا ما اراده مطران نقد استغل قصة من قصص التاريخ

القديم وافرغ فيها ثورته ونقمته على الظلم والطغيان وحث الشعب على

المطالبة بحقه والمدافعة عن حريته والفناء في سبيل كرامته .

وفي قصة (فنجان قهوة) (١) يروي قصة ملك طاغ احبت ابنته

جنديا جميلا من حراسه ، وتواعدا على اللقاء سرا تحت جناح الليل ،

بواسطة مربيتها ، وعند اللقاء كان ابوها الملك يجلس على هضبة . فسمع

ورأى على غير علم منهما ، رآها وهي تقابله ، ورآه واقفا قبالتها كالتمثال ، ووقعت

الفتنة صريعة الخوف والرهبنة ، وانتهى امر الحارس بان احضره الملك وامر بان

يسقى فنجانا من القهوة مسموما - وقد ادى مطران قصته هذه تادية مرسله

.../...

لم يتقيد فيها بالقافية وان تقيد بالبحر ونجده قد جمع فيها جميع
العناصر الدراماتيكية فبدأ بجورهييب يتواءم مع المأساة ، وادار فيها
حوارا نسبيا ، واوجد المازق ، وانتهى بنهاية شجيه توافق بدايتها
التي هيأ لها جوارهييبا فالبحر سراج ولا حراك ، والليل كأنه قطيع
نساء فلا نجم ولا سراج :

البحر سراج والسكينة سائدة والليل داغ والمدينة راقدة
غمر الظلام هضابها وجبالها وقلاعها وصروحها ، فازالها
لا نجم في الافق المحجب سافر خلل السحاب ولا سراج ساهرا

وهذه القصة ايضا مأساة تنتهي بموت البطلين ، فاكثر قصص
مطران الاجتماعية تدور حول الحب الذي يحال بينه وينتهي بهلاك
المحبين .

وفي (فتاة الجبل الاسود)^(١) ، التي يستمدها من التاريخ
الحديث يصور فيها ثورة الجبل الاسود على الاستعمار التركي ، ويصور
الحرب التي تدور رحاها بين الاتراك الغاصبين وشعب صغير استميت في
الدفاع عن حرته وكرامته ، ولكي لا يفتح عيون الاتراك عليه ، وهو عدوهم
القديم يصور امة الترك امة باسلة متمرسنة على الحروب ، وهو
في تصويره هذا ، من طريق غير مباشر - يمدح اهل الجبل الاسود
الذين يحاربون دولة قوية عاتية وليس ضعيفة مستضعفة .
وينتصرون .

.../...

وما الترك الا شيوخ الحرو ب ومرضعوها من المولد
 اذا القحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسوء

ولكن شعبا يدافع عن حرته لا يهاب الموت :

ولكن قوما يذودون عن حقيقتهم من يد المعتدي
 وتعصمهم شامخات الجبا ل وكل مضيق بها موصد
 ويدفعهم حب اوطانهم ويجمعهم شرف المقصد
 لو الموت مد اليهم يدا لردوه عنهم كليل اليد

وبينما فريق من جنود الترك على راس منحدر نصبوا مدافعهم واحاطوا بها
 كالليوث اذ بفتى يافع كالغصن الرطيب يفاجئهم .

لهيب الحروب على وجنتيه والنقع في شعره الاسود

ويفرغ نار مسدسه على الاعداء ويعمل سيفه يمينا ويسارا الى ان يسقي الصخر
 من دمائهم . ثم تمكنوا منه وقيده وساقوه الى قائدهم فاصروا ان يقتلوه
 غداة غد :

فاقصى الفتى عن حراسه وشق عن الصدر ما يرتدي
 وابرز نهدي فتاة كعا ب بطرف حي ووجه ندي
 كحقي لجين بقلبي عقيق وكنزيرين في رصد مرصد
 فكبر لما راه الامير وهلل اشهاد ذاك الندي
 وراعهم ذانك التوا ما ن وطوقاهما من دم الاكيد
 ووثبهما عندما اطلقا بعزم الى ظاهر المجسد
 كوثب صفار المها الظامئا ت نفرن خفافا الى مورد

يبدع مطران في وصف النهدين وتظهر مقدرته على الوصف الرائع .
وترخي صفائر شعرها وتخاطب جنود الترك ، الذين تعودوا ان يوردوا سيوفهم مهج
النساء ، طالبة منهم ان يقتلوهما ويأروا لدماء قتلاهم . وكان امير الترك يصغي لما
تقوله هذه الكاعب الحسناء فاعظم نفسها واكبر بأسها ويأبى ان يقتل فتاة تدافع
عن وطنها دفاع المستميت ، ويوصي بها خيرا لتعلم ان في امة الترك اخلاقا . ثم
يخاطب رجاله قائلاً :

انهلك شعبا غزت داره . فقال الجيوش فلم يخلصد ؟
فما بلد تقتديه النساء ، كهذا الفداء بمستعبد

و (نيرون) (١) - احدى طوال الملحميات في الشعر العربي تساق في عمد على
قافية واحدة - يقدم مطران لها بقوله :

تعلمون ان الشعر العربي ، الى هذا اليوم ، لم تنظم فيه القصائد

المطولات الكبرى في الموضوع الواحد ، وذلك لان التزام القافية الواحدة ، كان ،
ولم يزل ، حائلا دون كل محاولة من هذا القبيل . وقد اردت بمجسود نهائي ختامي
ابذله ، ان اتبين الى اى حد تتمادى قدرة الناظم في قصيدة مطولة ذات غرض
واحد ، يلتزم لها رويًا واحداً ، حتى اذا بلغت ذلك الحد بتجربتي بينت
عندئذ لاخواني من الناطقين بالضاد ضرورة نهج مناهج اخر لمجاراة الامم الغربية
فيما انتهى اليه رقيها شعرا وبيانا .

وادي التزام مطران القافية الواحدة لقصيدة بلغ عدد ابياتها ٣٢٧ بيتا

الى اقحام كلمات نبشت من بطون المعاجم . امثال (اقمطرا) (طثرا) (ترا)
(يحذئرا) (القمرا) (سيطري) (ازهر) (خزرا) (مسبكرا) (ترا) (هطرا)
(مسجهر) (مصقرا) (شزئرا) (اثبجرا) .

وما الى ذلك من كلام سمج كسيف ابعده ما يكون عن موسيقى الشعر .
والقصيدة تتناول قصة من قصص التاريخ الروماني القديم تدور على
الطاغية الشهير نيرون الذي احرق روما بغية ان يتسلى وينظم في ذلك شعرا .
فيصور مطران المنكرات التي ارتكبها نيرون من قتل امه وزوجه واحراق روما واضطهاد
المسيحيين واطعامهم للوحوش الجائعة .

ومطران يشجب حكم الفرد ويلقي اللوم على الشعب المستسلم .
انما يبطش ذوالامر اذا لم يخف بطش الولي ولسوء امرا .
كان نيرون اول امره رفيقا بقومه ولكنه ما ان وجدهم مطيعين له حتى اخذ يبطش
فيهم ، واول ما فعله قتل امه التي كانت قد قتلت عمه لكي توصله الى الحكم .
ثم ولي " قليقولا " الذي ولى حصانه (قنصل) على اعيان روما . ويذهب
الغرور بنيرون كل مذهب فيدعي الحسن والطرب والتصوير والتمثيل والشعر
حتى يحرق روما . ويبعد مطران في وصف الحريق :

زحفت رابية مضرمة	تلتقيها في عناق الوهيج اخرى
جمعت اقسام " روما " كلها	في جحيم تصهر الاجسام صهرا
فالمباني تتهاوى والجذى	تترامى والدمى تنقض جمرا
والاناسي حيارى ذهل	غامروا هولاء وساء الهول غمرا

ثم يصف الحريق " شعرا " و" تصويرا " و" سماعا " .

ويذهب نيرون بعد ذلك يتهم النصارى بانهم هم الذين احرقوا المدينة ،
والنصارى قوم مستضعفون فليقرّف بهم في اشدق الوحوش الكاسرة وليكن ذلك
X المشهد خير تسلية للشعب .

ولم يبق لنيرون ظلم يقترفه وشريعلمه فيقضي منتحرا .

وينتهي مطران من قصيدته بموعظة رائعة :

من يلم " نيرون " ؟ اني لائم
 امة لو كهرته ارتد كهرا
 كل قوم خالقوا " نيرونهم " " قيصر " قيل له ام قيل كسرى !

ولمطران غير القصائد القصصية النائرة نثات اخرلا تقل عن سابقاتها قوة وحسن
 اداء . ففي (السور الكبير في الصين)^(١) يدبر الحوار بين شاعر وملك ، فيسأل
 الشاعر الملك ، وقد بدا عليه شيء من الهم والكآبة ، ما سبب هذه الكآبة .
 فيجيب الملك بانه قد مني برعية خانعة لا الظلم يثيرها ولا هي تغضب فيريد
 ان يبني لها مصورا يحجبها عن الناس . فيجيب الشاعر الحلیم انه لو رفع الجدار حتى
 بلغ الكواكب فلسوف يصنع الانسان ما ينسف الجبال ويدك السور ولن تختنق الصين
 وتعزل عن العالم .

لقد صحت نبوءة مطران وهدم جدار النذل .

وفي (شيخ اثينة)^(٢) - وهو آخر فذ ير لها ايام انحلالها على ايدي الرومانيين
 ودخولها في اعمال دولتهم - يندب الشيخ الاثيني مجد امته ويطلب من الدهر
 ان يزيد في هوانه لعل ذلك يحرك الشعب المتخاذل .

فبعد ان كانت السيطرة لاثينة وكان لها العز والمجد باتت خاضعة لروما ،
 فهي نفحة عز وكرامة ينفخها شيخ مسن في شعبه لعله يعي ويستعيد مجده .

وفي (الاهرام)^(٣) تظهر ثورة مطران على الظلم فليس بيت القصيد وصف
 الاهرام من حيث هو ضخامة وروعة وتراكم اجيال ، انما هو رمز للظلم والاستبداد وتسخير
 دم الشعب لبناء جدث لفان ، ويهيب مطران بهؤلاء الفراعنة ان :

... / ...

(١) - الديوان ٦٠ : ١

(٢) - = ٦٤ : ١

(٣) - = ١٠٤ : ١

قوموا انظروا السوق فيما حولكم تدوس هامات الملوك همدا
قوموا انظروا العدو في دياركم يحكم فيها مستبدا ايتدا .
فمطران يلقي بذور ثورة سياسية اجتماعية في هذه الابيات فالملوك الذين
حكموها وطغوا ونغوا تدوس على هاماتهم السوق . مجد الملكية مجد زائل ،
لا يبقى غير وجه ريك وصالح الاعمال .

براعة مطران انه يطلب من الاموي ان ينظروا الى العدو والاجنبي المحتل
يتحكم في مصر مستبدا ، هذا تقريع للاحياء وحث خفي على الثورة وطلب الحرية
وخلع نير الاستعمار .

واذا قابلنا نظرة مطران الى الاهرام بنظرة شوقي (على سفح الاهرام)^(١)
نجد انه يخالفه تماما . شوقي يمجّد الاهرام ويرى فيه عملا جبارا يخضع له
ويخشع ويدعو الى تقبيله :

قل للاعاجيب الثلاث مقالة من هاتف بمكانهن وشاد
لله انت فما رايت على الصفا هذا الجلال ولا على الاوتاد
لك كالمعابد روعة قدسية وعليك روحانية العباد
اسست من احلامهم بقواعد ورفعت من اخلاقهم بعماد

×××

... قم قبل الاحجار والايدي التي اخذت لها عهدا من الابد

من هنا كان مطران رائد الشعراء الاحرار .

وفي (الطفلة البويرية) (٢) - وقد نظمت في اول الحرب بين بريطانية والبوير -

يصف الشاعر طفلة ترى والدها مضطربا وامها تبكي دون ان تعرف السبب فتنام لتنهض

في الغد وتعلم بان اباه سار الى الحرب وان قوما من الغاصبين جاءوا ليفنوا امتها

.../...

(١) - الشوقيات ١٣٥ : ١

(٢) - الديوان ١٦٢ : ١

وسلبوا ما عندها من ذهب، فتهب امة البويروهي القليلة العدد والعدة
لتدفع جيشا عظيما مدريا ومجهزا . علمت الفتاة كل ذلك ولما جاء المساء ركعت
كالملاك بالقرب من سريرها تسأل الله وتضرع له ان يحيي اباها وينصر قومها .
هذا شعب تحق له الحياة ، كلهم جنود لدرء العدوان لا فرق بين
رجل وفتاة حتى اطفالهم تضرع الى الله ان يحيي لهم وطنهم .

وفي (حرب غير عادلة ولا متعادلة بين امة كبيرة وامة صغيرة) (١) يخاطب

الشاعر نفسه وبهيب بقلعه ان يكون بجانب المظلم :

فيم احتباسك للقلم والارض قد خضبت بدم ؟
سدد قويم سنانه في صدر من لم يستقم
نبه به ام النزوا ل فعله يحيي الرسم

وهو يدعو ابناؤه ووطنه بان يقوم كل واحد منهم بواجبه نحو وطنه .

فالشعب الخانع لا امل له بالحياة .

وهو معجب برئيس الدولة الصغيرة يهب مع شعبه للدفاع عن الوطن

وقد تغلبوا على اعدائهم وتفروا عنهم . ولكن العدو ما يلبث ان يجرد حملة هائلة

ويشن غارته على حين غره فينكل فيهم شر تنكيل .

فيسخط على الظالمين ويغبط من مات في سبيل حريته .

و(في استئناف حرب جائرة) ، بين امة كبيرة وامة صغيرة (٢) يمجّد

بطولة الدولة الصغيرة المستضعفة التي استطاعت ان تقف في وجه امة كبيرة عاتية

وينتهي الشاعر وهو يقرع مصره، مصر العزيزة على قلبه، ليت (مينا) يرى

كيف تحيا امة ذليلة مستضعفة . ثم يصور حالتها وفساد مجتمعا احسن تصوير :

.../...

(١) - الديوان ١ : ١٧١

(٢) - = ١ : ٢٥٤

كيف يقوى معشر عدتهم
 ابخوف الغول يرجس عندهم
 ام بآداب والحن يهـي
 فارفع الصوت وايقظهم فقد
 ما " لمصر " شبه قبر واسـع
 هزلهم ، والمشرفيات ، النكات ؟
 خلق البأس وترجس العظـمات ؟
 معها العزم وتقوى الشهوات ؟
 طال عهدا بهم هذا السبات
 منذ فرعون ، ومن فيها رفات ؟

وفي (اقوال صريحة) (١) يهيب بيـني الشرق ان يتنبهوا ويستفيقوا ويلقوا عنهم الترهات :

بني الشرق فلننفضه حقيقة حالنا
 يصل علينا الجهل غير مدافع
 ويعوزنا الاخلاص في كل مطلب
 افي ظنكم ان المحاق يزيله
 اشـرط المعالي ان نقول " بودنا"
 الى اي حين في ونى وتفاعس
 الى اي حين في قلى وتخاذل
 الى اي حين والصروف زواجـر
 لننجوا ويقضى القضاء المحتم
 بجيش له في كل ربح مخيم
 ويعوزنا الخلق المتين المقوم
 عزيف بالات وغوغاء تنام ؟
 ويمنع ازماع ويحبس درهم ؟
 تدفعنا الدنيا اماما ونحجم ؟
 وشمل شتيت والعدى تتحكم ؟
 نعيش كما يقضى علينا التوهم ؟

وفي (مقاطعة) (٢) التي نظمها على اثر اضطهاد الاحرار وتسليط قانون المطبوعات على الانكار :

شردوا اخيارها بحرا وبرا
 انما الصالح يبقى صالحا
 كسروا الاقلام هل تكسيرها
 قطعوا الايدي هل تقطيعها
 اطفئوا الاعين هل اطفاءها
 اخمدوا الانفاس هذا جهدم
 واقتلوا احرارها حـرا فحـرا
 آخر الدهر ويبقى الشرشرا
 يمنع الايدي ان تنقش صخرها ؟
 يمنع الاعين ان تنظر شرشرا ؟
 يمنع الانفاس ان تصعد زفـرا
 وبه منجاتنا منكم . . . فشكرا

ولما انتشرت هذه الابيات انتشار النار في الهشيم ووصلت الى رياض
باشا رئيس الوزارة المصرية في ذلك الحين توعد الشاعر بالنفي ثم من مصر ،
فاجابه مطران بعنوان (تهديد بالنفي) (١)

انا لا اخاف ولا ارجي	فرسي موهبة وسرجي
فاذا نبا بي متن بسر	فالمطية بطن لسج
لا قول غير الحق لي	قول وهذا النهج نهجي في
الوعد والايعاد ما كانا	لدى طريق فلسج

ففي هاتين المقطوعتين نجد مطران يهاجم الظالمين معرضا نفسه
للنفي والاضطهاد دون خوف او وجل .

و (في ظل تمثال رعسيس) (٢) نرى ان الملك العاتي ينعم على شقاء
شعبه ، فالشعب الذي يوصل ملكه الى المعجد لا يجني غير الفناء والشقاء
وخمول الذكر .

مسخرا قومه طرا لخدمته	وما بغى ، رب سوء محض احسان
بحيث آب وكل الفخر حصته	ولم يوء ب غيره الا بحسـرمان
كم راح جمع فدى فردوكم بذلت	في مشتري سيد ارواح عبيدان
لموقع الامر فيهم كل تكرومة	ومنفذ الامر فيهم كل نسيان

وفي (اللين والدم) (٣) يصور مطران اميرا ظالما قدم له طعامه وهو
لبن فما ان مد اليه يده حتى تحول الى دم احمر واذ بصوت هونذير الغيب يخبره
بان هذا انذار له كي يكف عن بغيه وظلمه .

وبعد هذا العرض لشعر مطران الذي يعبق بالحرية لا اجدني مضطرا
لسياق اي دليل وذكر اية حجة واطافة اي برهان .

(١) - الديوان ٢ : ٩ - ١٠ (٤) الديوان ٢ : ١٧٥ - ٣ - الديوان ٤ : ٨٣

وخلصة القول ، ان قصص مطران الشعرية هي صور من الحياة البشرية بعضها واقعي واكثرها محتمل الوقوع يلونها خيال الشاعر الخلاق كيفما يشاء . ومطران في شعره القصصي هذا يراعي القصة من عرض وعقدة وحل ويتقيد بها في اكثر الاحيان . ويلجأ احيانا الى المفاجأة كما في " فاجعة في هزل " حيث يظن ان الفتى حي يتظاهره انه ميت فاذا هو ميت حقا ، وفي " فتاة الجبل الاسود " حيث ينقلب الشاب المهاجم الى فتاة . وان يكن ينحنا في بعض قصصه منحي كلاسيكيا بحيث يحافظ على وحدة العمل ووحدة الزمان كما في " فتاة الجبل الاسود " فهو في اكثر قصصه رومانتيكي يمزج بين الواقعية والخيال . " فنجان قهوة " " الجنين الشهيد " " مصرع بزجمهر " " نيرون " ، وغيرها .

ومما يراه ادهم (١) " ان الحياة تندرج في وجدان الخليل من وجهها العام ، الذي يشترك فيه كل الاحياء . وهذا يثبت ان نظرة مطران رغم عمقها واتساعها فهي لا تزال نسبية لا تصل الى ابعد من رؤية الحياة العامة الكلية ممثلة في شخصه . بيان ذلك انه ينطق في قصصه الشعرية الشخصوس على اساس اعارته شخصيته لهم ، ولهذا تبقى شخصوس قصصه ناقصة من حيث انها لا تدل على الانماط خاصة وشخصيات خاصة تنتهي شخصياتها الى الجزئيات والتفاصيل التي تقوم بها ، والتي تختلف باختلاف الافراد " .

وعنصر التصوير ظاهر في قصص مطران فالالوان مضبوطة بقدر والاشكال منقولة بقوة ، والحركة ملائمة للسرد والعرض والحوار ، ذلك واضح في " فتاة الجبل الاسود " " فنجان قهوة " " غرام طفلين " و " نيرون " وغيرها .

... / ...

ومطران في شعره القصصي يؤمن بالفضيلة ويدعولها، وهو ينزع نحو
التعليم والتهديب " الجنين الشهيد " . " وفاء " . وهو شغوف بالمآسي
فكثيرا ما تنتهي قصصه بمأساة فيموت البطل او البطلان . " وفاء " " فنجان
قهوة " " الطفلان " .

ويميل مطران احيانا الى التحليل في قصصه فيحلل شخصياته تحليلا
نفسيا واف كما في " الجنين الشهيد " حيث يصور الصراع الذي يجول في نفس
الفتاة .

والحب والبطولة يذهبان بنصيب كبير من شعره القصصي ، وشعره
هذا على العموم متين السبك حسن الديباجة .

مرویتہ واخلاصہ لکھنؤ

عروبته واخلاصه لمصر. (١)

والى جانب هذا التفرد بالتقديـد بالملوك الطغاة ، فقد كاد يتفرد ايضاً بالاشادة بالعروبة ، ولم يقف حبه على وطنه الاول لبنان ، ولا على وطنه الثاني مصر ، بل امتد الى جميع البلاد العربية فاستحثها على مناهضة الاجنبي الدخيل لتخلص لها قوميتها ويعود اليها مجدها العتيـد وفي ذلك قوله :

فاستأنفي في الخافقين عسلاك	داع الى العهد الجديد دعماك
اهي الفخار نعيته ونمساك	يا امة العرب التي هي امننا
وهواك منا في القلوب هواك	يعضي الزمان وتفضي احداثه

وبز مطران النظراء في مناصرته قضايا الحرية في البلاد العربية ، وتفرد بالحملة على حكم الملوك الظالمين والحكام الجائرين . وله في هذه الناحية قصائد رائعة تعد فخرا للعربية . ففي حين كان شوقي وحافظ في شبابهما يترنمان بذكر السلطان عبد الحميد كخليفة للمسلمين ، كان مطران في شبابه يحمل عليه ، وعلى جورره واستبداده .

ويرى المقدسي (٢) " انه لم يكن القطر عربي من الاسباب الممهدة لظهور ادب قومي عربي النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعثت فيه الروح العربية الاستقلالية ."

ثم يقول : " واذا قلنا ان الادب المصري كان متشعبا بروح التشيع للخلافة والجملة العثمانية فحكمتنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من السوريين فكانوا فئتين متطرفتين ، فئة تجارى المصريين في عثمانيتهم ، وفئة تنكروا عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا ."

ومن الفئة الاولى خليل مطران : اذ تتجلى النزعة العثمانية في شعره وفي ادب مطران وسيرته ما يدل على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعه في قصيدته (فتاة الجبل الاسود) يقول :

(١) كتب هذا الفضل بعد استمزاز رأى الاستاذين فؤاد صروف. واميل الخورى .
(٢) المقدسي ، انيس الخورى - العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ص ١٥١

وما الترتك الا فحول الحروب
اذا لقحوها الدماء فلا
رضيعو لظاها من المولد
نتان سوى الفخر والسعود
عواقب مسعاهم تحمد (١)

وتظل هذه الحماسة فيه الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر - ففي هذه وما يماثلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطني مصر * وما يقوله ادهم (٢) ان مصر كانت في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ - ١٩١٤) ملتقى آمال شباب العرب وملجأ احرار العثمانيين . ذلك ان مصر كانت قد نالت في ظل الاحتلال الانكليزي شيئا من الحرية ظهرت آثارها فيما كان يتمتع به المصريون في ذلك العهد من الحرية الشخصية التي لم يكن يتمتع بها المواطنون العرب والترك خارج مصر في كل الدولة العثمانية . وقد هاجر الى مصر من سوريا ولبنان جمهور كبير في تلك الفترة تخلصا من الجوالخانق الذي تعيش فيه شعوب الدولة العثمانية *

* وكانت مصر مسرح العاملين في الحقلين : حقل الجامعة العثمانية وحقل الوحدة العربية ، على اننا يمكننا ان نقول ان المجرى العثماني كان غالبا في مصر حتى اعلان الدستور في انحاء الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ .

ومطران الذي شاهدناه في شبابه يهاجم السلطان التركي ويشور على جور الترك واستبدادهم بهنبي قومه في لبنان وشاهدناه يعمل بجانب جمعية * تركيا الفتاة * في باريس ويشاركها في المطالبة باصلاح شؤون الدولة التركية . ومهاجمة السلطان عبد الحميد تشاء الصدف ان ينزل مصر في اول حكم الخديوي عباس حلمي الثاني سنة ١٨٩٢ فيقدمه له بشارة تقلا بلشا ويساعده شوقي فيما بعد في التقرب من الخديوي فتوثق الصداقة بينهما ويرافق مطران الخديوي في سفرته الاولى الى تركيا حوالي سنة ١٨٩٣ . وكذلك تحسن صلة مطران بوالدة الخديوي ام المحسنين . وكان الخديوي ، كما كانت والدته ، تركي الهوى يميل الى مشايعة السلطنة العثمانية ويكره الانجليز . فلماذا وجه مطران نفسه مجاريا للشعور المصري العام وخاصة شعور عباس حلمي الثاني في التشيع نحو تركيا . ولكن تشيع

(١) بينت في مكان آخر ان القصد من هذا الشعر اظهار بطولة * الجبل الاسود * اكثر مما هو مدح للاتراك

(٢) ادهم ص ٧١

معتدلا

مطران هذا كان تشيعا حضا كما يقولون . فلم يكن مطران مؤمنا بالمجد التركي ولم يكن يقول بالخلافة العثمانية شأن المتعصبين لذلك فهو يعرف كل معايب الحكم التركي وفساد انظمتها ، ولكن قوله بالعثمانية كان بمثابة كسب شرعي للحصول على جلاء الانجليز . ففي مصري ذلك الحين ، كان الطاغية المحتل الانجليز وليس الاتراك وكان القول بالعصبية العثمانية السبيل الوحيد للتخلص من حكم الانجليز .

ويقول الرافي (١) " ان مركز مصر الشرعي لغاية الحرب العالمية كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠ ، والتي تعتبر صكاً دولياً التزمت الدول باحترامه واهم احكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر في اسرة محمد علي ، وبقاء السيادة العثمانية عليها ، وفي سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطاني فعصت بالاستقلال المعترف به لمصري تلك المعاهدة ، ونزل بها الى مرتبة المستحمرات التي للحاكم العام البريطاني فيها مطلق التصرف في شؤونها ، فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوتة الوطنية كان واجبا عليه ان يحصر جهاده ضد الاحتلال البريطاني ، لانه رأى بحق ان الجلاء هو الرمز الحقيقي للاستقلال ، اما السيادة العثمانية فان التخلص منها من ايسر الامور بعد التخلص من الاحتلال - وبخاصة لان هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء . "

ويقول بعد ذلك (٢) ان موقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفا قوميا حكيما ، وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الاجنبية ، فلم يكن ينادى بالغائها بل كان يقول باحترامها ، لكي لا يستعدى الدول والجاليات الاجنبية في الوقت الذي يجاهد فيه الاحتلال ، وهو بذاته موقف " الوفد المصري ، تجاه الامتيازات الاجنبية . "

وخلاصة القول ان فكرة العسوية حتى زمن مصطفى كامل لم تكن قد تبلورت في الانهاس ، وهي لم ترسخ الا على زمن سعد زقفلول .

فقد بات واضحا ان الروح التحريرية في ذلك العهد ، اى على زمن عباس حلمي الثاني كانت متصلة اتصالا وثيقا بتركيا وكان التسود الذي تركيا هو الحجة للتخلص من حكم الانجليز . لم يكن في كتابات مطران في الاهرام وقت ذاك اية دعوة لتركيا وانما كان يتخذ من مهاجمته لتركيا ذريته للمطالبة بجلاء الانجليز .

(١) الرافي عبد الرحمن - مصطفى كامل ص ٢٢٢

(٢) " ص ٣٤٠

مطران هذا كان تشيعا ^{معتدلا} حقا كما يقولون . فلم يكن مطران مؤثرا بالمجد التركي ولم يكن يقول بالخلافة العثمانية شأن المتعصبين لذلك فهو يعرف كل معايب الحكم التركي وفساد انظمتهم ، ولكن قوله بالعثمانية كان بمثابة كسب شرعي للحصول على جلاء الانجليز . ففي مصر في ذلك الحين ، كان الطاغية المحتل الانجليز وليس الاتراك وكان القول بالعصبية العثمانية السبيل الوحيد للتخلص من حكم الانجليز .

ويقول الرافي (١) " ان مركز مصر الشرعي لغاية الحرب العالمية كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠ ، والتي تعتبر صكاً دولياً التزمت الدول باحترامه واهم احكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر في اسرة محمد علي ، وبقاء السيادة العثمانية عليها ، وفي سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطاني فعوض بالاستقلال المعترف به لمصر في تلك المعاهدة ، ونزل بها الى مرتبة المستعمرات التي للحاكم العام البريطاني فيها مطلق التصرف في شؤونها ، فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوتيه الوطنية كان واجبا عليه ان يحصر جهاده ضد الاحتلال البريطاني ، لانه رأى بحق ان الجلاء هو الرمز الحقيقي للاستقلال ، اما السيادة العثمانية فان التخلص منها من ايسر الامور بعد التخلص من الاحتلال - وبخاصة لان هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء . "

ويقول بعد ذلك (٢) ان موقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفا قوميا حكيما ، وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الاجنبية ، فلم يكن ينادى بالغائها بل كان يقول باحترامها ، لكي لا يستعدى الدول والجاليات الاجنبية في الوقت الذي يجاهد فيه الاحتلال ، وهو بذاته موقف " الوفد المصري ، تجاه الامتيازات الاجنبية . "

وخلال القبول ان فكرة العروبة حتى زمن مصطفى كامل لم تكن قد تبلورت في الازدهان ، وهي لم ترسخ الا على زمن سعد زقلسول .

فقد بات واضحا ان الروح التحريرية في ذلك العهد ، اى على زمن عباس حلمي الثاني كانت متصلة اتصالا وثيقا بتركيا وكان التسود الذي تركيا هو الحجة للتخلص من حكم الانجليز . لم يكن في كتابات مطران في الاهرام وقت ذاك اية دعوة لتركيا وانما كان يتخذ من مهاجمته لتركيا ذريته للمطالبة بجلاء الانجليز .

(١) الرافي عبد الرحمن - مصطفى كامل ص ٣٣٢

(٢) " ص ٣٤٠

ومن الصواب ان نقول ان مطران كان يهاجم الانجليز ويطالب بإجلائهم
عن مصر . وموقفه منهم كان على العموم موقف مصر اى مناهضة الاحتلال وكل ما
يتفرع عنه من تدخل في شؤون مصر وتوجيه سياستها .

وقد كان ذلك من اسباب عطف عباس حلمي عليه ، اما موقفه من فرنسا فكان محاولة
الاستفادة من مناوئتها للاحتلال البريطاني لمصر . غير ان موقف فرنسا هذا تحول سنة ١٩٠٤
فقد تم الاتفاق بينها وبين انكلترا في (التحالف الودى) الذى تنازلت بموجبه انكلترا عن
كل مصالحها ومطامعها في المغرب لقاء تنازل فرنسا عن كل ما كانت تدعيه من حقوق فسي
مصر . ففقد طلاب الاستقلال صديقا كانوا يحاولون الاستفادة من مناوئته للانكليز ولم يبق
لهم غير الالتفات نحو تركيا .

ليس في شعر مطران ما يدل على انه شايخ الفرنسيين . يقول الاستاذ صروف (١)
انه فيما يعرف ، لا يوجد اى دليل لا في شعر مطران ولا في سيرته على مجاراته لسياسة
فرنسا في الشرق . ولكن هذا لا يمنع ابدا انه كان متأثرا بآدابها وانه في شعره وفي حياته
كان يكرم شخصيات فرنسية كما كان يكرم غيرهم .

غير ان تشييع مطران للتركية كان متزنا ومقرونا بالرغبة في المطالبة باصلاح حال
الدولة التركية التي كانت تلقب بالرجل المريض لما اصابها من فساد وانحلال بسبب رداءة
الحكم وجور الحكام . وقد ثار مطران على هذا الظلم وهاجم السلاطين المستبدين
والحكام العتاة متمترا بستار التاريخ حينما مستغلا قصص الظالمين او مبتدعا شعرا قصصيا يهاجم
فيه الطغاة الظالمين ايا كانوا دون تسمية وتعريض .

وعلى كل حال لم تكن دعوة مطران الى العصبية العثمانية قوية مثل دعوة
زميله شوقي ذلك لان مطران لم يكن مسلما فيدعو الى خلافة السلاطين الترك هذا
على الرغم من انه كان عربيا ، ولم يكن يتعصب لدين .

ولم يكن يجرى في عروقه دم تركي كما كان يجرى في عروق شوقي . ومن سيرته
يتضح انه كان نائرا على السلطنة التركية ، في شبابه ، لفساد حكمها وجورها ، هاجمها
في لبنان وعمل ضدها في باريس . ومن اسباب ذلك ايضا انه كان محبا للحرية ، داعيا

للثورة على الاستبداد والاستعمار، كارها الظلم والظالمين مؤمنا بحق كل انسان زنجيا كان او ابيضاً في ان يكون سيدا في وطنه . فكيف ينساق في ركاب دولة كانت سببا من اسباب الظلم والاستعمار، في هذى الديار؟ . وهو يدافع عن المظلوم ايا كان حتى ولو كانت تركيا نفسها . لهذا نراه يقف بجانبها حين اعتدى عليها من قبل الطليان الذين ارادوا ان يسلبوا عنها طرابلس الغرب .

واخيرا فاذا ساير مطران شعور المصريين المتشيعين لتركيا في قليل جدا من شعره فلا يعني ذلك ان حبه لتركيا حب اصيل فقد كان لا يدع فرصة حتى يهاجم رجالها الطغاة وعلى رأسهم جمال باشا .

ومما يسند هذا الرأي قول الدكتور محمد حسين (١) : " ثم ارتكب الرجل الفظ (جمال باشا) الذى كان من أكثر الاتحاديين تطرفا في عصبية الطورانية فعلته الحمقاء حين بطش بمن وصلت اليهم يده من زعماء العرب، بعد ان شرد ضباطهم وفرقتهم في مختلف الميادين، فذهبت فعلته هذه بالبقية الباقية من اخلاص العرب للترك . وخيّم على العرب حزن عميق نائر، تجدد صورة منه في قول خليل مطران في (دمعة على الشام ايام الطاغية جمال) (٢)

يرقى الذرى ويعيش مقتبطا	شعب على اعدائه خشن
شعب يحب بلاده، فأذا	هانت فما لبقائه ثمن
تبكي العيون "الشام" ترأسفة	في القيد محدقة بها المحن
اتعز امصار بفتيتها	وتهون تلك بهم وتمتهن
اشقى اليتامى في مراتبه	شعب يعيش وماله وطن

في ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ خلع الانكليز الخديوى عباس حلمي الثاني وولوا السلطان حسين كاهنل . فزاد ذلك في كره الانكليز وقوى الدعوة الى المطالبة باستقلال مصر والقول بأن مصر للمصريين . وبعد تلك السنة تلاشى تشيع مطران لتركيا بسبب خلع عباس والتكيد الذى اصاب العرب من المسؤولين الاتراك وخاصة جمال باشا .

(١) حسين الدكتور محمد . الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢٠ ص ٩١

(٢) الديوان ٢: ص ٢: ١

فاذا لم يكن مطران من دعاة الخلافة العثمانية المتحمسين فقد كان اول الداعين الى العروسة ومن ذلك قوله مخاطبا شوقي في حفلة تكريمه ومبايعته بامارة الشعري في القاهرة (مبايعة شوقي) (١)

يا باعث المجد القديم بشعره	ومجدد العربية العربية
اليوم عيدك ، وهو عيد شامل	للضاد في متباين الارجاء
في "مصر" ينشد من بنيتها منشد	وصداه في "البحرين والزور"
عيد به اتحدت قلوب شعوبها	ولقد تكون كثيرة الاهواء
كم ريم تجديد لغابر مجدها	فجنى عليه تشعب الآراء ؟

ونرى مطران يهب في شعره للدفاع عن طرابلس الغرب يوم اعتدى عليها الطليان (وفي هذا تشارك عرويته وعثمانيته)

- (اعانة طرابلس) ج ٢٠ ص ٦٧
- (عتاب واستصراخ لمعونة طرابلس) ج ٢ ص ٧١
- (الهلل الاحمر) ج ٢ ص ٧٩
- (بعثة من الاطباء الى ميدان القتال بطرابلس ج ٢ ص ٨٥
- (الشهيد الطرابلسي عمر المختار) ج ٤ ص ٨١

ويشور لنكبة دمشق :

- (اعانة دمشق) ج ٢ ص ٤
- (دمعة على الشام) ج ٢ ص ٢٠١
- (نكبة دمشق) ج ٣ ص ١١٣

ويدعو لاعانة منكوبي الاناضول :

- (اعانة منكوبي الاناضول) ج ٢ ص ١١٩

ولبنان وطنه الاول له نصيب من العطف في شعره

(اعانة بيروت) ج ٢ ص ١٢١

(مراجعة لبنان) ج ٢ ص ٢٠٢

(عيد استقلال لبنان في اميركا) ج ٢ ص ٢١٩

(كارثة كوكب الشرق في بيروت) ج ٤ ص ١٨٦

وقل مثل ذلك على مصر والسودان وذكره لملوك العرب من فيصل وسعود وسواهما .

ويقول بشير فارس^(١) ان الخليل رتل نصف قرن انخاما فيها طي الحياء ونشر الشجاعة ، وفيها قبض الحذر وسط النصيحة . ويا لها من انغام مكنت في اعتقادنا ان الاخلاص خلوا ، وان الوفاء احلى ، وان العروبة الشهمة ذمة في اعناقنا شرف لا لسنتنا ، وان مصر باب من ابواب الجنة .

ولم تكن دعوة مطران الى العروبة دعوة سياسية فحسب ولكنها قد شملت ايضا اللغة العربية التي ارادها ان تتجدد وتساير روح العصر في ذلك يقول^(٢) :

لنعش معاش زماننا ولننتبـز	فرص النجاح نغزبه أو نسلم
لن ترجع العربية الفصحى الى	ما كان منها في الزمان الاقدم
ما لم يعد ذاك الزمان واهله	والعاد والاخلاق حتى جرهم
للجاهلي لسانه ، ومن الذي	ينفي من الفصحى لسان مخضرم ؟
ان التجدد للسان حياته	ومن الذي يحييه غير القدم ؟
في عصرنا للضاد فتح باهر	ريدت به فخرا ، فهل من ماثم ؟
من فرق الاخوين يستبقان من	طرق لرفعتهما ، اليس بمجرم ؟

ومثل ذلك قوله في (عتب اللغة العربية على اهلها) (٣)

سمعت بأذن قلبي صوت عتب	له رقرق دمع مستهـل
تقول لأهلها الفصحى : اعدل	بريكم اغترابي بين اهلي ؟
الست انا التي بدمي وروحي	غذت منهم وانمت كل طفـل ؟

(١) فارس ، الدكتور بشير الاديب مجلد ٨ عدد ٨ (١٩٤٩) ص ٢٠

(٢) الديوان ٣ : ص ٣١

(٣) الديوان ٤ : ص ٦٥

أغد واليوم ، والمغمور فضلي ؟
فضاعت ، ما مصير القوم ؟ قل لي
وما دعوى نمار مستقل ؟

انا العربية المشهود فضلي
اذا ما القوم باللغة استخفوا
وما دعوى اتحاد في بلاد

ونظرة مستوعبة الى شعر مطران تظهر لنا ان شعره دار حول : الاشادة بحب مصر ،
ومشاهدتها ، وآثارها ، وتاريخها ، كما تتناول احداثها السياسية الكبيرة ، والتخني
بحريتها والدعوة الى حكم الشورى وتمجيد الوطنيين والمجاهدين والادباء والمفكرين
والمنادات بالاصلاح الاجتماعي والحث على طلب العلم وحفز الهمم ، الى عواطف البر والرحمة
والاحسان .

فقد كان مطران موزع الهوى بين وطنه الاول لبنان ، الذي فارقه وهو في مقتبل
العمر ولم يعد اليه الا مرات معدودات زائرا فكان يلقي الترحيب والاكرام ، ووطنه الثاني
مصر الذي عاش فيه ٥٧ عاما وغناه في شعره واكبره ووصفه ودافع عنه ومجد ابطاله :

مصر كهف الاحرار في كل عصر
وملاذ المرويين الابساء ! .

فقد عاش مطران في مصر عيشة هنيئة وكان راضيا مرضيا . فهو بين اهله ، والكل يحبه
ويخلص له ويحترمه فقد استطاع مطران بفضل شخصيته المحببة القريبة من كل قلب
ان يكسب صداقة الجميع .

ولست اجارى هنا الدكتور ادهم في حديثه عن خفول ذكر مطران (١) : " . . .
وحين نتكلم عن هذا الخمول ، فانما نتكلم عن حقيقة لا يتنازع في شأنها . فالرجل خامل
الذكر ، لان ذكره على الوجه الذي هو عليه بمصر ، اضعف من ان يتسق مع خصائص
شاعريته التي لو وجدت في واحد من الذين ينتهزون الفرص ويحسنون خوض معارك الحياة ،
ليبلغ من ذبوع ذكره وشيوع شعره مبلغا لا يدانيه احد من معاصري الخليل . . . على ان
هناك اسبابا اخر وقفت في وجهه الرجل وذبوع ذكره اجتمع فيها العامل العنصري
مع العامل الديني " .

قد لا يكون من طبيعة مطران السعي في طلب الظهور والتودد من اصحاب الشأن
ليكتسب شهرة على شهرة ومكانة على مكانة :

اما ان نقول ان مطران كان خاملا الذكر فهذا كلام مبالغ فيه . الا اذا قصدنا ان نقارنه بشوقي . فشهرة شوقي كما ذكرت سابقا تعود لكونه (شاعر البلاط) وشعره اقرب الى ذوق الشعب وفهمه لغنائيته فقد غنته ام كلثوم وغناء عبد الوهاب وغيرهما فذاع على كل شفة ولسان ، ولان شعر شوقي اسهل واقرب الى الذوق العام من شعر مطران الصعب . الا في فهمه مشقة الا على المثقف ثقافة عصرية واسعة .

وهذا ما يشرحه الدكتور طه حسين بقوله : (١) " يجب ان نكون منصفين ، وان نعترف بأن من شعرائنا من تكبره طبيعتهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب ان تظهر آثار هذا كله في شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من قرائهم تشجيعا ، ولا يرون من اقرانهم الشعراء الا حسدا وحقدا وحرما شعوا" تعلن عليهم جهرا مرة ومن وراء الاستار مرة اخرى . وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين اذ كرفي مصر منهم خليل مطران . ولكن كثرة القراء تؤثر على شعر هؤلاء شعر شوقي وحافظ وهي تؤثر هذا الشعر لان حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين : فاما ان يذعنوا لهؤلاء القراء ليرج شعرهم ويثبتوا لمنافسة خصومهم ، واما ان لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا في مذهبهم الشعري لانهم يقولون الشعر لانفسهم قبل ان يقولوه للناس ، ومن الذين يذعنون للقراء فيسيئون الى انفسهم والى الشعر ويؤخرون تطور الشعر ، تأخيرا عليهم اثمه : مطران . فانا امرقه من اشد الناس ميلا الى القراءة والدرس ، ومن احرصهم على ان يكون شعره مظهرا لعقله وخياله معا . وقد قرأت له شعرا اشهد اني لم اقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس ببهرج اللفظ وزخرف الاسلوب . ولكنه يحسن من قرائه فتورا ، ومن اقرانه امراضا وازدرا" فيجاري اقرانه ويقول من الشعر مثلما يقولون ، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون ."

اسا ان نقول ان العامل العنصري والعامل الديني اشتراكا في حصول ذكر الشاعر فهذا غير صحيح لان مطران ما تدمر ابدا وما تحدث قط بانه كان مضطهدا . فجميع الذين عاصروه يعرفون انه كان مقربا من جميع الاسر المصرية والشخصيات السياسية سواء

(١) طه حسين شوقي وحافظ ص ١٤٧ - ١٤٨

كانت مصرية الاصل ام متمصرة . ومن يستعرض ديوانه يجد انه نظم شعرا كثيرا في افراح واحزان هولاء ، لانه كانت تربطه بهم علاقة وصدقة وحب واحترام متبادلين . هذا ما جعله يحرص في ان يبقي شعر المناسبات ، الذي كان نتيجة هذه الصداقات ، في ديوانه ويرد طلب اللجنة المشرفة على طبع الديوان التي ارتأت حذفه . (١) فهو يهني* سمو الخديوي عباس وپرثي والدته ام المحسنين . ويهني* بزفاف الوجيه عمر سلطان بك وپرثي الشعراء والادباء الكبار امثال البارودي وصبري وشوقي وحافظ . وپرثي اعلام الحرية وقادة الفكر امثال مصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد فريد وقاسم امين والشيخ محمد عبده ويهني* بعضهم في مناسبات شتى . وپرثي عمر لطفي بك وادهم باشا ويعزى عبده العزيز فهمي باشا . وپرثي محمد تيمور بك ، ومحمد ابوشادي بك ، واحمد لطفي بك ويحيي سمو الامير يوسف كمال . وله في عودة الامير عمر طوسون . وپرثي اسماعيل اباطة باشا ويكرم مصطفى ماهر باشا وئسرثيه ويهني* بشفا* سمو الامير كمال الدين حسين وپرثيه . وله في تأبين عبد الخالق ثروت باشا وتهنئة الدكتور علي ابراهيم باشا . وتأبين حسين رشدي باشا وعديلي يكن باشا . وفي تكريم محمد حسين هيكل ورناء اسماعيل شيرين باشا وتحية مصطفى النحاس باشا وجلالة الملك فاروق وتهنئة آل نقلا والصيد ناوي وغير هولاء .
كثير .

وبالاضافة الى ذلك فان الحفلة التكريمية التي اوعز الاخديوي باقامتها لتكريم الشاعر سنة ١٩١٣ والمهرجان الكبير الذي اقيم لتكريمه سنة ١٩٤٧ والاسمة والرتب التي منحت له لا كبر دليل على ان الشاعر ما كان قط خاملا الذكر .

يجدد مطران ولاه مصر ووجه لها كل حين فاسمعه يقول في قصيدته
(وداع وسلام ، براح مصر ولقاء الشام) (٢) مخاطبا مصر :

يا مصر دار السعد والهناء
عليك من هذا المحب النائي
ومهبط الاسرار والايحاء
سلام قلب ثابت الولاء
يهواك في السرا والضرا

(١) فؤاد صروف في حديث معه .

(٢) الديوان ١ : ص ٩٥

فهو في وطنه الاول لبنان يحيي مصر ويبثها شوقه عن بعد فلو كان مضطهدا
فلماذا لا يبقى في وطنه الاول لبنان بين اهله واصحابه ؟ بل على الاقل لماذا لا يسكت ؟
من يجبره على ان يتكلم هذا القول ؟ .

ومطران واضح اول نشيد لمصر (نشيد مصر) (١) نظمه في باريس عام ١٩٠٩
وهو نشيد جميل :

اللازمة

ابشرى يا مصرام المجد من اقصى الحقب
برجال اليوم من ابنائى الخسر النخب

دور

بشباب صادقى العزم كبار الفطن
وكهول لا يهابون صروف الزمن
وشيخ دريتهم محسن للمحن
هم دعاة الحق جنود السلم حزب الوطن

دور

اجمعوا أن يرفعوا شأنك بين الامم
ويردوا عنك بغى الغاصب المحتكم
ويعيدوا ما تقضى من فخر القدم
يا أباة الضيم طاب السير تحت العلم

وتبقى مصر معه في غربته ففي (من غرب الى عصفورة مختربة) (٢) التي نظمها في سويسرا
وقد مرت معنا، يقول :

في "مصر" مصرخة اللهي ف وملجاء المتفرع
"مصر" السماء الصحو، "مصر" الدفء، "مصر" المشبع

(١) الديوان ١٣ : ٢

(٢) " ٢١ : ٢

كها بريح زعزع
للمرتوى والمرتعبي
تعلى الطيور الرضح
ل ربيها يترعع

"مصر" التي مريع سا
حيث المرامي والنسدي
حيث السواقي الحانيسا
حيث الحرارة ما تسوا

وهو ساهر على مصلحة مصر يعرض نفسه الى الهلاك من قبل الانكليز المستعمرين
العتاة بخية ان يفتح امين مصر على حقيقة الاسرة مما يهيئها لها المستعمر ومن ذلك
قوله يرثي حافظ ابراهيم :

اي جيش يدريون لمصر ، ا
ورلي التدريب فيه العادي ؟

وهو يقصد الانكليز .

وهو لا يالوجهدا في حث مصر على النهوض والاخذ بركاب الحضارة ولا يدع مناسبة
تفوت الا ويعيد هذا التذكير . ومن ذلك قوله في (رأس السنة الهجرية) (١)

ويش ما قيل : شعب غير مجدود
والعام ليس اذا ولى بمردود
يفيدها قائل : يا امتي سودى
بكل خلق نبيه اخذ تشديد
وما تبالون اقدا ما بتصفيد
فالشرق ليس وقد صحت بمفود
سوى المتاع بما يضي وما يودي
سوى التفات الى الماضي وتعيد
شطر يعد وشطر غير معدود

اي مسلمي "مصر" ان الجدد ينكم
طال التفاعس والاعوام عاجلة
هبوا الى عمل يجدى البلاد فما
تعلموا كل علم وانبعوا وخذوا
فكو العقول من التصفيد تتطلقوا
"مصر" الفؤاد فان تدرك سلامتها
الشرق نصف من الدنيا بلا عمل
والغرب يرقى وما بالشرق من هم
تشكو الحضارة من جسم اشمل به

• • •

لبعث مجد قديم العهد مفقود
ولتره "مصر" بكم مرفوعة الجيسد :

أبنا "مصر" عليكم واجب جليل
فليرجع الشرق مرفوع المقام بكم

وفي قصيدته (للتأليف بين القلوب) (١) يقول :

يا ايها الاخوان من متوطني	"مصر" ، ونعمت كعبة القصاد
لا ننسحقا للكنانة واجبا	ايقأوه ولقومها الامجاد
حتى نعد اداءه من ديننا	وججوده ضربا من الالحاد
دار محضهاها الولاء ومعشر	سمح نصابيه الهوى ونفادي

وفي قصيدة (الى حافظ ابراهيم) (٢) يقول :

"مصر" الحضارة والآثار شاهدة	"مصر" الساحة مصر المجد من قدم
مصر العزيزة ان جارت وان عدلت	"مصر" الحبيبة ان نرحل وان نقم
نحن الضيوف على رجب ومكرمة	منها وانا لحفاظون للذمم
جئنا حماها وعضنا آمنين به	ممتعين كأن العيش في حلم

فهل في هذا الشعر ما يدل على ان مطران كان مضطهدا ؟ ام فيه ما يجعله يشكو من عنصريته ودينه ؟

وكذلك يقول اجمل ما يكون القول في (يا مصر) (٣)

يا "مصر" انت الاهل والسكن	رحمى على الارواح مؤتمن
حبي كعهدك في نزاهتـه	والحب حيث القلب مرتـهـن
ملء الجوانح ما به دخل	يوم الحفاظ وما به دخل
ذاك الهوى هو سر كل فتى	منا توطن "مصر" والعلمـن

ويكمل على هذا النمط الرفيع من النسخ واصفا مصر اروع ما يكون الوصف جاعلا اياها بابا من ابواب الجنة :

وفي (عيد بنك مصر) (٤) ينتهز الفرصة للتعبير عن حبه واخلاصه لمصر . فيقول

في مطلعها :

(١) الديوان ٢ : ص ١١٣ (٢) الديوان ٢ : ص ١١٦
(٣) " ٢ : ص ٢٢٦ (٤) " ٤ : ص ١٩٨

ما موقفي في مصرف للمال ؟
انا شاعر ، ما للحساب وما لي ؟
لا شي " لي فيه ، وكل كسوزه
من حيث تنفع " مصر " احسبها لي !
ان ايسرت " مصر " وفيه ضمانها
اني اذن ، فرح برقة حالي

فهل بعد هذا الايثار زيادة للمستزيد ؟

فقطران لم يكن يجد فرقا بين مصر ، وطنه الثاني ، ولبنان وطنه الاول - وهو كان معتدا بتاريخهنا - فهما عنده وطن واحد وهو يعبر عن ذلك في قصيدته (الدكتور نقولا فياض) (١)
الذي ازمع ترك مصر والعودة الى لبنان فقال يخاطبه :

سا هجرانك الرفاق ولكن
ليس بين القطرين من هجران
وطن واحد وتجمعه الضا
د لغزى في لفظة الاوطان

ولهذا لقبه مسلمو مصر اولا بشاعر القطرين اي شاعر مصر والشام ثم اضى عليه الدكتور علي العناني لقب " شاعر الاقطار العربية " وهو ، من جدارة ، يستحق هذه التسمية .

وفوق حبه لمصر فهو محب لشعبها وقد يضطر الشاعر احيانا الى المداينة والتدليس ومن ذلك قوله في (الحفلة التكريمية الكبرى) (٢) التي اقيمت له في النادي الشرقي بالقاهرة :

كلاء الله وادى النيل ، هل او
وكهذا الخصب العجيب الذي كا
وكهذا الشعب الامين الذي او
هو شعب حر السجايا ، سخي
دائب ، شاد مجده خالد الآ
باسل ، لم ترده الا ثباتا
صابر ، طاول الزمان الى ان
تبي واد كحسنة والجلال ؟
ن ، وما زال ، مضرب الامثال ؟
تبي احلى شمائل وخصال ؟
وابي عن عزة لا احتيال
ثار من بكرة القرون الخوالي
غمرات رمته بالاهوال
رد ادباره الى اقبال

هذا ما شئنا ان نسوقه بايجاز عن عثمانية مطران وهرويته وحبه الصادق لمصر .

(١) الديوان ٣ : ص ١٠٨

(٢) " ٤ : ص ٢٣٤

شعر المناسبات

شعر المناسبات او شعر الطلب اذا شئنا له تسمية اخرى ، هو ذلك الشعر الذى ينظم في المدح والرثاء ووصف الآداب والحفلات والزواج والتهاني وما الى ذلك من مواضع ليس فيها من مادة الشعر ما يهيج خاطر ويدفع الشاعر الى الابداع. وهو ذلك الشعر الذى يجد الشاعر نفسه مسوقا اليه مسايرة لصدق او قريب او صاحب شأن ينظمه بغير دافع لانفعال فاذا هو الوان بلهتة ومعان عامة مبتذلة لا حرارة فيها ولا جدة ولا نفاذ .

وهو الشعر الذى ثار عليه مخائيل نعيمة في الغريال حيث حمل على اغراض الشعر التقليديّة وبخاصة تسخيره للمناسبات " كمدح بطريارك ومطران او باشا او قائمقام او مدير او شيخ ، ولتهنئة صديق بغلام او بك بوسام ، ولتقريظ كتب " نعيم البطون " و " سلوى الهموم " ولرثاء كل من يزرر التراب .

وهو الشعر الذى ثار عليه صاحبنا (الديوان) وهاجبا شوقي لتسخيره الشعر لمثل هذا السخف الذى ليس من تحته طائل .

وفي نظره حسين (١) ان الشعر قد اصبح بفضل الشعراء وكسلهم العقلي عرضيا لا يحفل به الا للهمو والزينة والزخرف ، فاذا اراد بنك مصر ان يفتح بناءه الجديد طلب الى شوقي قصيدة فنظم له شوقي هذه القصيدة ، وان ارادت دار العلم ان تحتفل بعيدها الخمسيني كما يقولون طلب الى شوقي والجارم وعبد المطلب ان ينظموا لها القوائد فنظموا لها القوائد . واذ مات عظيم واريد الاحتفال بتأبينه ، او نبه نابه واريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء ان ينظموا للشعر في المدح والرثاء فنظموه كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى اصبح كهذه الكراسي الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والماآسم ، واصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقي او حافظ (لا ادرى لماذا استثنى مطران) كما اننا لا نتصور عيدا او مأتما بغير مثنى او مرثى للقرآن .

فاما الشعر الذي يقال لنفسه ، الذي يقال ليجلو مظهرها من مظاهر الجمال الطبيعي ، الذي يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذي يقال لا ليلمق عاطفة من العواطف او هوى من الالهواء ، فلا تلتسمه عندنا ولكن التسمه عند قوم اخرين عرف شعرا وهم لانفسهم كرامتها ، فرباؤها عن ان تكون اداة للدهو والزينة ، ثم يذهب في المقابلة بين شعرنا وشعر غيرنا من الناس فيقول = " اقترى ان لتاجور ديوانا او مجموعة قصائد وقفت على المدح والرثاء وافتتاح المصارف والاحتفال بالمدارس ؟ الست تلاحظ ان شعر تاجور شعر انساني وان شعر شعرائنا شعر اشخاص وظروف ؟ .

ولتاجور فلسفة كما للمعري والمنتبي فلسفة ، فاين فلسفة شوقي او حافظ او البارودي او مطران ؟ وتاجور ترجم شعره الى اللغات الاوروبية فاصبح شاعرا عالميا يكبره الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر شوقي او حافظ الى الانجليزية او الفرنسية او الالمانية يقرأ ويعجب ويغلب العقول ويضمن لاصحابه جائزة نوبل كما ضمنها لتاجور ؟ كلا ، وليس مصدر ذلك الا ان تاجور لا يزدري العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده ، وان اصحابنا لا يلتسمون شعرهم في العالم الحقيقي المعقول ، وانما يلتسمونه في هذا الدخان الذي يوسلون من افواههم حين يدخنون السجائر او الشيئة .

واذا كان طه حسين عنيفا في هذه اللهجة فهو صادق ومصيب الى حد كبير . وان مطران نفسه يميز بين الشعر الذي يقال لنفسه وشعر المناسبات ، هو عارف لما يجب ان يكون عليه الشعر ولكنه لم يخلص شعره من هذه الشوائب التي افسدته وانقصت من قدره .

وحين سئل عن رايه في الفرق بين الشعر العربي والشعر الغربي قال (١) يمكن ان اتقول باختصار ان الشعر العربي او الشاعر العربي ذاتي اما الشاعر الغربي فموضوعي . وكذلك

ليس في الشعر الغربي مديح اورثاء او هجو او فخر او عتاب او نحو ذلك من الاشياء التي الفناها في اشعارنا القديمة والحديثة ، وانما الشاعر الغربي خيالي يعتمد الى فكرة فيخلق الموضوع فيها ويرتب له الاشخاص والاشياء ويجمع المعلومات عنهما ويبدى عندئذ آراءه فيهما . فهو من هذه الناحية خالق مبتكر ولهذا السبب لا يجرى شعراء الغرب على طراز واحد لانهم لما كان كل منهم يعتمد على خياله في ابتكار موضوع فان كلا منهم يتميز عن الاخر وينفرد فسي الاسلوب والغاية من المقطوعات الصغيرة في وصف زهرة او صبية او غير ذلك الى الملاحم الكبرى التي ليس عندنا لا في قديمنا ولا في حديثنا مثلها . فالشعر العربي عندنا يسير كالقافلة سيرا رتبيا من عصر الجاهلية الى الان اما الشعر الغربي فمختلف . وانا اردنا التجديد في الشعر فيجب ان نسير على طرق الغرب .

ثم يجيب على سؤال آخر وجه اليه في كيف ينظم الشعر عفوا او بدهاء ، او باستعداد وتحضير ، وفي اي وقت ومكان وفي اية حالة نفسية ، بقوله = هناك نوعان من الشعر = الاول شعر الطلب في المدح والرتاء ونحوهما هذا لا يكلفني مجهودا لاني لاعتني في اتقانه فاكتبه كما يتفق .

اما النوع الثاني فهو الشعر الفني وهو يحدث لي وكاني حسب الظاهر اختاره وانما هو في الواقع بايحاء قاهر من حادثة او قصة او غاية اجتماعية ، او سياسية يخطر لي تايدها والدعوة اليها . وعندئذ تجتمع في ذهني على جملة ايام فكرة القصيدة بمجموعها واهيانا ادون ما يخطر ببالي من الافكار بشأنها في قالب النثر ثم اعود فانظمها ، واهيانا لادون هذه الافكار . ولكن المهم ان خاتمة القصيدة او الغاية المنشودة تكون حاضرة في ذهني قبل الشروع فسي النظم . ومعظم نظمي في الصباح . واهيانا انشد الخلوة الذهنية في قهوة ولا يعوقني عندئذ عن النظم كلام الاشخاص ولعبهم النود او الموسيقى . وانا اعيد النظر كثيرا فيما انظم ولا اتعجل ولكن هناك ظروف كانت تجعلني احسن النظم فاوفيه حقه ولو كنت مع ذلك مستعجلا .

فلما مات صديقي شبلي الشميل مثلا ، حزنت عليه جدا ، ونظمت رثائي فيه في يوم واحد ولكن هذا اليم كان يعدل لدى ثلاثين يوما فقد خرجت منه مجهودا مقتولا ، وكذلك حدث في وفاة كل من صديقي ابراهيم اليازجي ونجيب الحساد .

توى ان مطران يعترف بان شعره على نوعين = شعر الطلب الذي لا يكلفه كبير عناية ، واجهاد فكر وانما يسوقه كيفما اقتضى الامر ، والنوع الثاني هو الشعر الغني الخالص الذي يفرض نفسه على الشاعر فيتحضر له ويتهيأ فتختصر الفكر في ذهنه فيدونها نثرا احيانا ثم ياخذ في نظمها وجمع خيوطها . وهذا الشعر هو الذي يخلد لانه يمتاز كما يقول الدكتور طه حسين (١) قبل كل شيء ، بانه مرآة لما في نفس الشاعر من عاطفة . مرآة تمثل العاطفة تمثيلا نظريا بريئا من التكلف والمحاولة ، فاذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، او عجزت هذه العاطفة عن ان تنطق لسان الشاعر لما يمثلها فليس هناك شعر ، وانما هناك نظم لا فناء فيه .

يرد مندور (٢) اشعار المناسبات في ^{ديوان} ديوان الخليل الى اضطراره ان يعجز مسقط راسه فيسلخ حياته اما بين قوم غريبا ، كالفرنسيين او بين قوم مهما قيل في اخوتهم له وارتباطه بهم بمختلف الروابط ، فانه كان بالضرورة غريبا بينهم الى ان ياخذ نفسه بمجازاتهم في الكثير من ميولهم ونزعاتهم ومجاملة افرادهم حتى يستطيع ان ينعم بالحياة يبتئ ظهرانيتهم .

وربما كان هذا هو السبب في العثور على الكثير من قصائد ومقطوعات التي قالها في مجاملات او مناسبات اجتماعية لاتخلو من تناهة كحفلات الزواج والولائم والورود وانواع الحلوى ومداعبات السيدات والاطفال والاصدقاء .

واني اضيف الى ذلك ان طبيعة مطران ونفسيته ودماثة اخلاقه ورقة شمائله واخلاصه الود وكثرة الاصدقاء ، هذه جميعا حتمت عليه ان يكثر من شعر المناسبات ولا سيما الرثاء . والذي ينظر في مناسبات الخليل يجد انه يتناول مواضيع عديدة تناولها شوقي وحافظ وخاصة في الرثاء ، ومن هنا كان يجد نفسه مجبرا احيانا على التشبه والمسايمة ، مسايمة زميليه

شوقي وحافظ .

ويحدثنا الاستاذ وديع فلسطين في حديث له على صداقته بمطران (١) التي اتاحت له ان يقف على الشيء الكثير من احوال الشاعر الذي كان يحسبه ثريا ، كما صورته الصحف ، ولكنه وجدته فقيرا يعاني المسغبة في ابيه . اما الثراء الوحيد الذي كان ينعم به فهو ثروة الاصدقاء الذين قال فيهم :

... اني كثير باخوا
ني وما موسر له رأسمالي

ولولا عطف نخبة من اولئك الاصدقاء عليه لعز على الشاعر في اخريات ايامه ان يجد اللقمة يتبلغ بها ، وهو الذي كان يفرغ جيبه في ايدي البائسين كلما صادفه واحد منهم ، ولا سيما من المشتغلين بالادب او من الذين يدعون الانتساب الى الشعر .

ويقول الاستاذ وديع فلسطين في مكان آخر (٢) :

" وكان لخليل يطلب الصحف حتى ايامه الاخيرة ، لاليقراها فلم تعد صحته تحتل ذلك ، بل ليحرف من من اصدقائه رزي في قريب فيعزيه بالبرق ، ومن منهم اقبلت عليه الدنيا فيهنئه .

فقد كان خليل مطران مغطورا على الوفاء ، تجرى دما ، الاخلاص في دمه عن سليقة

وسجية .

ولما راي اهله ان لخليل يتاثر كثيرا بفقد رفاقه واصدقائه ، عمدوا الى اخفاء الصحف

عنه حتى لاتزداد حالته الصحية ضيقا ففسيا ، وحتى يظل نائيا عن كل ازمة تجي فتسي ركاب الحزن

المعنى ، ولكن خليل مطران كان يتشبت برايه ويصر على طلب الصحف وتلاوة انباء المجتمع ومناعي الناس

الاول

وعندى انه ليس الشاعر وحده المسؤل والآخر عن النزول بالشعر الى درك المناسبا

(١) فلسطين ، وديع الرسالة سنة ٣ عدد ٥ ، ١٥ ايار (١٩٥٢) - بيروت .

(٢) = = الاديب م ٨ عدد ٩ (١٩٤٩) ص ٤٥٠ .

بل هناك شريك له هو المجتمع الذي يطالبه بذلك ، فيمنعه حبه للاخرين من ان يرفض. ومما يرويه
الاستاذ وديح فلسطين (١) .

" كنت معه ذات امسية ، وكان جوفه يبعج حتى الماء الزلال ، وكان يشكو كلالا في عينيه
وصداعا يكاد يشج راسه ، وكان دبره قد تهرأ بسبب ادمانه على الجلوس في مقعد طوال النهار .
وبينما مطران على هذه الحال ، جاءه وفد يمثل جمعية خيرية ، وقال كبير الوفد = " سنقيم حفلة
في يوم كذا . ونطمع في تصيدة منك تهز قلوب الاريحيين . " فسكت مطران برهة ثم قال = " لكس
ما تريدون . " ولما انصرف الوفد ، قال لي خليل مطران = " رأيت ؟ لم يرحموني حتى في النسج .
وعلى الرغم من حالة الانهيار التي كان خليل مطران يجتازها ، اخذ يستحث الشاعرية الخصبة
فيه ، فابدى قصيدة بعث بها الى كبير تلك الجمعية . "

وهل تحتاج هذه القصة الى تعليق ؟ مسكين الشاعر عندنا ، يجب ان يسخر شعره
اكراما لعيون الناس ، وعليه ان ينظمه حتى ولو كان على فراش الموت .

ولاشك في ان " مناسبات " مطران تظهر حبه وطيبه نفسه ووداده الى الناس
ومشاركته افراحهم واحزانهم . ومطران الانسان حر في ان يمدح او يهني ، او يعزى ولكن عليمه
كشاعر واجب اخر هو عدم تسخير الشعر لاشياء لا تخرج عن مناسبات صغيرة حقيرة يجب ان يبقى
الشعر في مأمن منها بعيدا عنها . ذلك ان للشعر مكانة وحرمة وهو فوق ذلك فيض خاطر ونتيجة
لانفعال دون تكلف . اما ان يسخر الشعر فيتناول جميع الاشياء فهذا ما لا ارتضيه لمطران .
فلو نحى هذا الشعر الهزيل عن دواوينه الاربعة لكان من اكبر شعرائنا المعاصرين .

واذا كان مطران قد تآثر بشعراء الغرب ولا سيما (بموسيه) فهلا ترك شعر
المناسبات التي ما عرفها شعر الغرب والا فما معنى هذا التآثر ، وكيف يكون ؟ .

(١) فلسطين، وديح الرسالة سنة ٣ عدد ٥ (١٩٥٧) - بيروت

(٢) السحرتي، مصطفى عبد اللطيف خليل مطران الرجل والشاعر ص: ١٢

يحرص البعض على ان يبرثوا مطران ويردوا ذلك الى طيب اخلاقه وحسن طويته . كما يفعل السحرتي (١) في رده على روكز زايد العزيزي في مقاله " خليل مطران وشعره " (٢) حيث يقول = " ونعتقد ان العزيزي لم يكن موفقا في الحملة على الخليل لمجاملته الناس ، لان هذه المجاملة ليست مفاكلم ادعى ، انما هي نزول على اعتبارات اجتماعية ، ما كان لمثل قلبه الكريم الطيب ان يزور عنها . او يتحلل منها " .

كثيرا ما ندمج بين اخلاق الشاعر وشعره . فمطران رجل كامل من حيث اخلاقه وسيرته وعلاقاته مع الناس . هل يجعل منه ذلك شاعرا كبيرا ؟ حتى ولو كان قديسا . الشعر نتاج العبقرية والالهام وقد تكون العبقرية ابنة الشوزفای شي ، يستفيدة الشعر - من حيث قيمته الفنية - من اخلاق قائله ؟ .

ماذا نقول عن الشعراء الذين عرفوا بشذوذهم العقلي والجنسي وحياتهم الفاسقة الخليعة امثال الي نواس وبودليو ورمبو وبيرون واوسكار ويلد وبوسواهم ، وهم بالرغم من كل هذا شعراء كبار .

يجب ان تفصل بين اخلاق الشاعر وشعره وننظر للشعر ونقيمه من حيث هو شي قائم بنفسه مستقل عن مصدره ، تام الولادة مقطوع النسب الخليل

فلو استعرضت فهارس ديوان/ باجزائه الاربعة ماذا تجد ؟ . تجد شعرا رائعا يعد بحق مفخرة الشعر العربي الحديث بل مفخرة الشعر العربي كله . وتجد الى جانبه شعرا هزليا يساق في (الهرسة) وفي (سيدة زانت رأسها بطاقة فل) (يوسف افندي) (لغز في الضميرانت وفي اسم " انت ") (تهنئة بزفاف او قران) (للكتابة تحت رجم) (في اهداء باقة ازهار) (باقة مائدة) (رسالة فاكهة) (فالونج البرتقال) (تهنئة بمولود) (الشكر المرفوع الى سمو الخديوى عباس حلي الثاني) (تهنئة بالرتبة الثانية للمرحوم جورج زيدان بك) (تهنئة يوشاح النيل الاكبر) (مطبعة المعارف) (اقامة مشغل للبنات الفقيرات) (هدايا العروس)

(١) السحرتي = مصطفى عبد اللطيف خليل مطران الرجل والشاعر ص : ١٢

(٢) المجلة الجديدة مايو (١٩٣٢) عدد ٥ سنة ٦

(بين عروسين) (طبق حلوى) (النرفة التجارية بالاسكندرية) (حفلات الكنائس)
(شكر صديق اهدى ساعة ذهبية الى الشاعر) (في اليوبيل الفضي والذهبي
للأشخاص والمؤسسات والجرائد) (تزكية انتخابية لمحمد محمود جلال بك)
(تقرير) الكتب والدواوين (وعود الموظفين لطلاب الوظائف) (في افتتاح المدارس
وحفلات التخرج) (بنك مصر وشركائه) (مشروع القرش) (شطرنج اهدى
الامير طفل) (شكر على الهدية كتاب) (في حفلة تكريم) عدى عن الشكر
الكثير الذى يساق في الرثاء والتعازي والتآبين والذكر .

ومما يقوله شفيق المعلوف (١)

" ونحن اذا القينا على ديوان الخليل نظرة صادقة ، لوجدنا فيه الى
جانب ركام اللؤلؤ خزفا في وسع الشاعر اهماله ، ولكن عاذره كما يقول نسي
المقدمة ، هو انه اثر ان يدارجه القارىء مدارجة غير هائب . ان شاعر
طريقته هذه ، هو شعر المستقبل لانهم شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا ،
وليس اكسره سوى مدافع ذرفها ، ونفوسات صحتها ، وقطع من الحياة بددها ،
ثم نظمها فتوهم انه استعادها . "

" وهو قول لم يجي " على جماله مبررا لبعض ما حشرني ديوان الخليل
من شعر مناسبات مما يتعاور تراكيبه ومعانيه الابتذال ، ولا يتفجع مقام شاعر
رفيع الطبقة كالخليل عد من أينسج صيارفة الكلام بين شعراء عصره ، وكان أطولهم
بأعا في اصطیاد المعاني ، وابعدهم تحليقا في اجواء الخيال .
ويقول الاستاذ مخائيل نعيمة (١) :

" لقد شعرت وأنا اقلب اجزاء ديوانه الضخم بالكثير من الاثمة على تلك
القرحة
الفاضة ، والديباجة المشرقة ، والإلمام الواسع بأسرار اللغة وتطويع علم العروض
تنفق جميعها باسراف ما بعده اسرافه في الرثاء والتعازي والمدح ، وفي التهاني
بمولود او زفاف او وسام او عودة من سفر ، وفي تمجيد " الجمعية التشريعية " والدعاية
" للغرفة التجارية بالاسكندرية " و " للكشاف برسالاته " او في اغراض سياسية
عابرة ، ومواعظ زمنية مبتذلة كقوله في وصايا انتخابية " وهو موضوع يليق بصحفي
صغير لا بشاعر كبير . "

ويحسود نعيمة ويرفق بالشاعر بعد ان يقسو فيقول =

" لمن خان مطران ذوقه الفني فتبذل احيانا في مدحه ورثائه

وسخر شاعريته لمناسبات كان اولي به ان يترفع عنها ، ففي صناعته ولين عريكته ،
وكرم قلبه ويده ، وشدة حذبه على محبيه واصدقائه ، ما يشفع به الى حد بعيد .

ويقيني ان نجمه سيلمخ طويلا في سماء العروبة ، وانه سيحيا في تاريخ الشعر العربي كفاتح عهد التجديد وخاتم عهد التقليد ، او عهد الكلاسيكية الكاذبة . لسئن فاته مجد العباقرة البنائين فما فاته فضل الحداء والفاتحين . *

ويرى ادهم^(٢) ان مطران كان صاحب شعور اجتماعي تلون بصلاته بالناس ، وانه كان يسقرسل مع هذا الشعور فينظم في اغراض اجتماعية الكثير من الشعر . فقد خلق الرجل وفيه اللطف بسبجيته وميل لمعاشرة الناس . واذا بهذا اللطف يتداخل مع ميله للموانسة وحببه للمعاشرة فيكون محورا تدور حوله بعض اغراض شاعريته . *

لننتقل الان الى الكلام على الرثاء عند مطران ونتبع ذلك بحديث شامل

عن سائر انواع المناسبات .

الرثاء =

من يتصفح ديوان الخليل يجد الرثاء يفونر بقسم كبير منه . فله فيه ما يقارب التسعين قصيدة خلا التآبين والذكر والتعازي . ويكثر شعر الرثاء عند الخليل لانه كانت له صلات اجتماعية ككثيرة فهو صديق لعدد كبير من الناس وهو وفي ودود يحافظ على صداقته ويحزن لفقد اصحابه فيلجأ الى رثائهم وتأبينهم .

ورثاء مطران ينقسم الى قسمين :

١- رثاء يقوله في اصحاب له واصدقائه او حكام او امراء ، يلجأ اليه بداعي الالفة والصدائفة يتكلفه مسامحة ويقوله لانه يرى في ذلك واجبا اجتماعيا . فيكون في رثاءه هذا مثل النادبة المستأجرة بالنسبة الى الام التاكل ، لا يحسن ان يعبر عن اية عاطفة او احساس .

٢- ورثاء صادق لا يتكلفه ، بل يجد نفسه مدفوعا اليه ، مسوقا لقوله : هورثاؤه لابطال مصر وللخلص من اصدقائه الشعراء الكبار والاصحاب المقربين وهو في ذلك يعبر عن احساس عام وحزن مشترك ويرى في فقد هؤلاء خسارة للوطن . فياتي رثاؤه صادقا نابضا من قلبه .

ومن النوع الاول رثاؤه (للاميرة كاملة هالم) (١) حيث لا يزيد على ان

يكون كلاما عاديا :

من الملا الاسمى على ذلك القبر	ملائك حراس الفضيلة والطهر
سجود على باب الضريح الذي ثوت	به مصطفية الله كاملة السبر
سلام عليكم فالزموه وانسوا	غلالة حسن تبتلي بيد الهجر
فقد صورت نفس الاميرة في الضحى	الى الله واستودعتم صدق السدر
تحملها نير الى اجنة العلى	كي تحمل الانداء اجنحة النجر
فيا سيد الدهر المغزى بفقدها	اتخى عليك اليوم من صولة الدهر

ويا اكرم الآباء بسررا بولده
ولكنه بر عصيته يد الضرر
أنت من الرحمن أرأف والدا
بمعتاضة السررا عن السم العمرا ؟ . .

فان العاطفة واين البكاء في هذا الكلاخ العادي الفاتر ؟ . . .

وفي رثاء (نجل المرحوم الوزير يوسف سابا) (١) يقول =

ما في الاسى من تفتت الكبد
مثل اسى والسد على والسد
كم بطل عاش وهو ذوصيد
فده الثكل غير ذى صيد
اهون من رزقه عليه اذى
كفاح جيش او ملقى اسد
ساابا لك الله وهو الطف من
ياسو جريحا وانست ذ ورشيد
ان قلوبا محيطمة بك من
كرامة شاركتك في الكمد
لهني على ذلك الحبيب ذوى
منهصر الغصن ولم ينل بييد

والى ما هنالك من شعر لا يخرج عن كونه كلاما موزونا مقفى .

وبينما كان الشاعر ينظم هذه الابيات ان استوقفت قلمه الحان حزن تصدح

بها موسيقى كانت سائرة في الطريق ، فاذا جنازة تسير خلف طبل وبوق . فسأل عنها .
فقيل له انها جنازة المرحوم جبران زريق وقد مات في العشرين من عمره ، فقال =
" وهذا ياخذ حصته في الطريق " . وكتب فيه الابيات التالية ومنها (٢) .

مشهد سيرا في طبل وبوق
عظة جنات فغنت في الطريق
عظة الموت وما عهدي بها
ان تزف النعش في تدليل سوق
لا ولا عهدي بها خاطبة
عن شغور من نحاس وحلسوق .

ارايتم كم كان يجهد نفسه في هذا الرثاء ٥ .

ومطران في رثائه هذا لا يكاد يتميز عن سواء من الشعراء ، فهو عبد المبالغات ،

ومن ذلك قوله في رثاء احمد فتحي زغلول باشا . (١) .

فهو العامل المسهد في التحصيل (م) والقوم ، هادئون نيام

وهو الكاتب الذي ينشـر الدر له روعة وفيه انسجام

وهو العالم الذي يُسلس الصعب (م) فلا شبهة ولا ابهام

وهو الغيصل الذي تؤخذ الحكمة (م) عنه وتؤثر الاحكام

وهو العقول الذي يطرب السمع ويبدو في لحظـة الالهـام

احد الفرقدين من آل زغلـو ل وحسب الفخار مجد توام

وكان مطران يبكي في موثيه الصفات الحميدة والصدائة التي نهبت ، ويذكر ما كان له عليه

من فضل فكانه برثائه لهم يود بعض الدين ويقوم بما يفرضه الواجب . وهو يعبر عن

حرصه على اصدقائه في رثائه محمد ابوشادي حيث يقول (٢)

ابي الله ان الفى كغبرى مولعا بخلغ احبائي كخلع ثيابي

فما انا من في كل يوم له هوى ولا كل يوم لي جديد صواب

يراني صديقي منه حين ايايه بحيث رأني منه حين نهاب

ويرى في نهاب اصحابه واحدا بعد اخر نذيرا بد نواجل واقتراب اليقين .

وفي رثاء يوسف سابا باشا (٣) يعزى المعالي والفضل ل والامارة والوزارة والندى

والآداب والشرق اجمع فيقول =

(٢) الديوان ٣ = ١٠٧

(١) الديوان ٢ = ١٦٠

(٣) الديوان ٣ = ٣٥

عز المعالي ، مات " يوسف سابا " عز الفضائل فيه والآدابا
عز الامارة والوزارة والنسب والالباس والانساب والاصحابا
والى جميع الشرىق فانسع مهذبنا فقدا نه فى الشرىق عم مصابنا

وكذلك فى رثائه لثرىا سللم صىدناوى (١) ورثاء (السىدة بتسى) (٢) فلتراجم .

وىدعى مطران انه صادق فى شعره ىرثى او ىمدح الشىخ بعا هواهل له دون ان

ىطنب او ىضىف من عنده وىنسب له ما لا ىستحقه وفى ذلك ىقول (٣) .

ما احسن الشعر والوجدان مصدره كان هاتفه من نفسه هتفنا
اذا دعا الصدق لى طبعنا واذا دعت مصانعة ىوما عتى وجفنا
اخصى بالشعر احبابى واكرمه عن ان ىكون مداجاة ومزدلفنا
اننى عليهم بعا فىهم ولسستارى فىما اخلد من آثارهم كلفنا

قد ىكون مطران صادقا كل الصدق ولكن كما ىقولون = " وعىن الرضى عن كل عىب

كلىلة " . فحب مطران لاصحابه واحترامه لهم ىجعله ىتغاضى اىانا عن النقائص ،

التى قد لا ىخلو منها انسان مهما سما . فلا ىرى الا الاحسنات فىذكرها وىهددها

وىصورها فكانما هو لا ىصف المرء بعا هو عىبه فحسب بل وكما ىجب ان ىكون .

ورثاء مطران هذا لا ىخرج كما ىخرج رثاء ابى الطىب مثلا ، من كسوة المناسبة

الى شرفة الحكم والتأملات فى الموت والحىاة . فان ابنا الطىب الذى رثى

كثىرا من الناس ، متكلنا اغلب الامر ، جعل شعره ىخلد بفضل ما حشاه بالحكم

والفكر والفلسفات التي توسع فيها ابو العلاء من بعده .

ومن هنا تبقى قيمة رثاء مطران هذا قيمة شعر مناسبات هزلي .

فهو ما استطاع ان يخرج به عن التعزية العادية وعن ذكر اوصاف الميت

وصفاته وتعزية ذويه وذكر صلواته به وبالناس وبكباء الناس عليه ،

ذلك بين شمس وتوارى وبحار تغمر وجبال تنثر فهو يعزى الكرم والنبيل

والامارة والبلاغة وما الى ذلك من اوصاف .

وعلى ذلك يعلق الاستاذ مخائيل نعيمة فيقول = (١)

"لسوان لطران في مراثيه وتهانيه ومدحيه تنكب المبالغات المقيمة

في وصف العرشي والمهنا والمدح لهما الامر . ولكنه - كالذين سبقوه -

اذا رثى او هنأ او مدح رفع العرشي والمهنا والمدح الى حيث لم يرتفع

بعد انسان من لحم ودم ."

ايين صدق العاطفة ، ايين البكاء الصادق ايين الالم في هذا

الرثاء المأجور المتكلف ؟ فهو يرثي الاميرة المعظمة والدة صاحب السمو

الامير الجليل يوسف كمال (٢) فيبدوها بقوله =

وكان ريب قبل ريب الحمام ببالخ علياء ذاك المقام

شمس توارت بحجاب فيا للغبين ان تمسي بعض الرغام

من اية النور والأشهبها يا اسفا ان راي هذا الظلام

(١) نعيمة مخائيل الرسالة س ٣٠ عدد ٥ (١٩٥٢) بيروت .

(٢) الديوان ٣ = ١٦٨ .

يكتفي مطران بسنة ابيات من هذا القبيل في رثاء (الاميرة المعظمة)
واكبرالظن انه قال ذلك على غير معرفة بها وانما اراد ان يرضي
ولدها (صاحب السمو الامير الجليل يوسف كمال) والا ما الذي يعجل
نظمه ستة ابيات في رثاء الوالدة وسبوت خمسة وعشرين بيتا في مدح
الابن ووصفه وتعداد خلاله وحبسه لامه وغير ذلك .

وبعد فهل هذا رثاء صادق ؟ ام هورثاء يخلد ؟ .

وفي رثاءه لنوح انظرون (١) يلبيه الجناس والتورية عن

البكاء -

فيك خطب العلى فدح	اذ توليت يا "نوح"
عشرة دون روعهتسا	عشرة النسر ان جنح
ان نألابه دعوا	ك تناهى الى ترح
يئح صوت لامسة	اسف الفضل ان ييسح
يا له كوكبا خيبا	ياله متعبا رزح !

وفي رثاء للمحسن الخالد الاثار المرحوم يوسف سرسق (٢)

يردد مطران تعابير الاقدمين وينسج على منوالهم = "الخطب الذي

يفتت الصلاب" ، "والطبود الذي يشيع ويحمل على الاعواد"

انزل الروح في صلاب العماد ذلك الخطب في عميد البلاه

ومشت امة تشيع طبودا حملته ايدي على اعواد

(١) الديوان ٣ - ٢٢٣ .

(٢) = ٣ - ٢٤٢ .

وفي (١) لذكرى الثانية للمرحوم سليم سرقيس (١) يقول =

ان بالشرق بعد "سرقيس" شجوا شبرقت بالدماء منه الجفون
فل من غرب "مصر" ان يتولسى خلفها البر والولي الامين
دميت مهجة الشام ، وسالت بالصفاء في "لبنان" منه العيون
لعريدي "سرقيس" ، في اخر المعمور ، نوح مردد وانين
كل قطر للعرب ، فيه مقام او مقال له ، به تابين .

عجب ان خبا الشهاب ، وان اعقب ذاك الحراك هذا السكون
كان ملء الحياة فهي ، وقد ولى ، فراغ ، تحسس فيه المنون
اوقح الذعر حينه في نفوس خلن من ذاك عزمه لا يحين .

ويعود مطران بعد ان يصف العرشي احسن وصف = فهو الحر
وهو الصديق وهو الاديب وهو الغديم وهو الاديب الاريب الى آخر ما
يعجز عنه العبد ، الى ذكر اثر المصاب في نفسه وكيف ان الباكي
لا يبكي الميت الراحل بقدر ما يبكي نفسه . ان الميت يذهب
ويوتاح اما الذي يسلم للعذاب فهو الذي يبقى على قيد الحياة .

ايه "سرقيس" ان بكينا فان الباقي الحزن والسرور الطعين
لا على الذاهبين ، لكن علينا - حين يمضون - تستدر الشؤون
وفي (٢) المغفور له اسماعيل اباطه باشا (٢) يقول =

الى اهلها تتعسى النهى والعزائم فتي فوق ما شهوى العلى والعظام

بينك اسماعيل فيب شارق وقوض بنيان واغمد صام

فنعود الى الخسوف والكسوف وتقويض الرواسخ وزلزلة الارض .

ولك ان تراجع قصيدته في (رثاء السيد عبد الحلیم الحجارة قائمقام

بعلبك) (١) فاذا كان على الشعراء ان يسخر لموت كل قائمقام او ضابط

درك او مختار فلا شك في انه سيفقد قيمته .

وفي (رثاء المرحوم سامي قصيري) (٢) يشاء مطران ؟ على غير

عادته ؟ ان يفلسف الموت فيقول =

نأسى اذا ودعتنا الشمس في الطفل ؟ فكيف من لا نلاقه الى الازل ؟

تطوى بنا العيش انراس بلا حكم ؟ ولا نخير في الاوقات والنقل

الامر لله في الدنيا وغايتها ؟ اکت ممثلا ام غير ممثلا ؟

غلام ياسك والايام دائمة ؟ اخالد انت ؟ ام باق الى اجسل ؟

اخ لنا كان سمح القلب وافي به ؟ طلق اللسان ؟ سليم الود من علل

نسائل اليم عنه في معاهده ؟ فلا نصادف الا خيبة الامل

وفي (رثاء ميشال ذكور) (٣) يقول شعرا عاديا لا يخلو من جناس =

كيف قننت بوضت يبا علم وانطوى ذلك العلم ؟

(١) الديوان ٣ = ٢٩٧

(٢) = ٤ = ٢٧ (٣) الديوان ٤ = ٤٢

جزعا للموت والموت يجب
كيف والشاعر * عبد المطلب * ؟
والمعزى فيه جماع العرب ؟
خلتم السحر من الشعر وثب ؟

ما لهذا الخائق الواهي يجب
جلل ان يتولى شاعر
انعزى فيه اهلا وحسنى
هل قرأت شعره الا وقد

اما ان يقال ان السحر يشب من شعر عبد المطلب فهذا اكثر
من كثره ، وعبد المطلب شاعر بدوى الاسلوب واللفظ نسيه
الناس من يوم ذهب في التراب ، ليس في شعره سحر اللهم
الا ان القصد مطران بالسحر الشعرون .

غير ان مطران يحاول ان يعطي القارى صورة واضحة عن
مرثيه اقربا تكخون الى الحقيقة ، وفي رثائه للشعراء او الادباء
يسعى جهده ان يظهر مميزاتهم واسمايهم كما يفعل في رثائه
للاديب الشيخ عبد العزيز البشري (١)

وقيت لهذا فيه مالك ثان
تخالغان حلى وتألفان
نقشت براءة من الالوان
ما تشتهي من طيبات مجان ؟
قبل الروية احضر الازهان ؟
حلم الشيوخ تراة الشبان ؟
ايماض برق لا انقراض سنان ؟
غلل ، وتقضي للقلوب امان
صاني البداهة بارع التيبان
ببراعة خلابة ولسان

احدث اسلوبا وكنيت امامه
جمع السهولة والجزالة لفظه
ديباجة عربية مضربية
من اللوادر تجتني منها النهى
من اللوادر لايجود بمثلها
من للدعابة وهي قد قرنت السى
ان ثقفت لطفت وفي ضحكاتها
نهل تماقاها القلوب فتشتفي
بدوات البق كاتب ومحسنت
في جده ومزاحه متصرف

وعلى كل حال فاذا لم يستطع مطران ان يحلق في هذا الشعر ،
فهو لم ينحط وتبقى له ميزة التمسس في سبك الكلام وسهولة
النظم .

وقد تشبه الصنعة قوله مثل هذا الجناس في رثائه
(للمستراوز والد فقهي) .

بقي الذكر والرغام فني وسيحيى في الخالدين " فني " .

وفي رثائه (لمي) (١) تجعبد الى الشاعر رومانتيكيته فيوقع
اشجى التوقيع على اوتسار قلبه فيقول =

قد تولى رفاقنا وقيتنا يعلم الله بعدهم ما لقيتنا
هل من الصلاب في كؤوسك سور؟ قد سقينا يا دهر حتى روينا
اوداع يتلو وداعا ، وتأبين ، على الاثر معقب تأبيننا؟
ايها الشاعر الذي كان حيننا يتغنى وكان ينحسب حيننا
حطم العود ، ان كوال الليالي لم يغادر في العسود الا الانينا !
وقد يوفق مطران في بعض مطالبه مراثيه كمثل قوله (على ضريح
الوجيه المرحوم جورج لطيف الله) (٢) .

ما بجرح جرحته من ضاد نفذ السهم في صميم فؤاد ي
وكان رحيل رفاق الشاعر واصدقائه كان شريطاً سينمائياً يتبع
واحدهم الاخر وكما انقضى واحد بكاء الشاعر ونكس نفسه لان
ذلك يذكره ببدنواجله ، وما نفع احياءه بدون اصحاب يسوقهم
الموت واحدا بعد آخر . وهو يعبر عن نفسيته احسن تعبيري في
(كشف النقاب عن شمال مصطلفي كسامل) (٣) .

اي "مضطربى" ولست سنون وما اشتفى
عجب بقاءى بعد اكرم رقتة
حزن بعيد الغور في قلبى ، فان
وعلى كل حال فان رثاء مطران لم يكن كله مثل هذا القبيل وانما له
قصائد تعد من احسنها ما قيل في هذا الفن وهي القصائد
التي نظمها مدفوعا بدافع داخلي قوى فبكى ولم يتباك نال رثاء كاي
فمن فنون الشعر يجب ان يكون صادقا خارجا عن القلب بل
لعله اسد هذه الفنون حاجة الى ذلك .

شوقي اليك مهن جد طوال
زالسوا ولم يشاء القضاء زوالى
وجب الرثاء فانما يوشى لى .
وهذا القبيل وانما له
قصائد تعد من احسنها ما قيل في هذا الفن وهي القصائد
التي نظمها مدفوعا بدافع داخلي قوى فبكى ولم يتباك نال رثاء كاي
فمن فنون الشعر يجب ان يكون صادقا خارجا عن القلب بل
لعله اسد هذه الفنون حاجة الى ذلك .

ويرد ادهم (١) ذلك الى ان موت بنته وما كان قد تركه من
حزن في نفسه مكنه من ان يتفكر في الرثاء حتى اصبح صاحب
مقدرة على تصوير فضائل الفقيد وحكي خصائصه وتضمن شخصيته
في رثائه في صورة دقيقة لم يعرف تاريخ الادب العربي من قبل مثيلا
لها ، حتى اصبح عن حق كما اشتهر " شاعر العرائس " .

ومن رثاء مطران الصادق رثاؤه للشاعر محمود سامي البارودي (٢)
الذى يبكيه ويعتد صفاته كشاعر وقائد مجاهد :

مصابك حيا عرا جعفررا
رزئناك لم يغن منك البيبا
وهذى النهاية عقبى النهى
وخطبك ميتا عرا قيصرا
ن ولم يعصم الجاه ان تقبرا
وذاك الثراء لهذا الثرى

.....

فكنت كما تبغى عترة
وكنت معا فارسا شامرا
جميع المزايا فما للبيبا
نظيرك مبتكرا مبدعرا
وكنت كما ترغى مظهررا
وكنت معا نسدا قسورا
ن وما للغياك وما للقسرى ؟ !
شهابا سنيا ندى ممطررا

نظمت المعالي نظم المعاني
فتح الكلام كفتح القرى
وطعن السنان كنفث اليراع
وكلهما بالنهى حبرا
وضم الجيوش كسقى القريـض
وتقسيمه اشطرا اشطرا (١)

وفي رثائه للشيخ ابراهيم اليازجي (٢) ، استأذنه صاحبه الفضل
في توجيهه نحو الثقافة العربية التي ساعدته كثيرا على تجويد
شعره ، يبدأ قوله بهذا المطلع الفخم =

رب البيان وسيد القلم
وفيت قسطك للعلی فتم
م ن عن متاعبها الجسم و زر
آامها غنما لمغتنم
ما اصغر الدنيا واحقرها
في جنب ما للميت من عظم

وفيهما يطيب لمطران ان يسأل استأذنه عن الموت والخلق ، والبكاء ،
والغناء ، صاحب القول على شيء من التعمق راغبا في كشف النقاب

عن السر السمردي . وفي ازاحة الستار عن (تمثال الشيخ ابراهيم اليازجي) (٣)
يعطف مطران على قوله في مطلع رثائه الاول حيث قال =

رب البيان وسيد القلم
وفيت قسطك للعلی فتم

فيقول =

تم (٤) لا بسا ثوب الخلود وعلم
بفم الشمال الصامت المتكلم

فيكون قد وصل في المعنى بين فعلي "تم" و"تم" ، وعطف على نومة الجسد ،
بعثا للروح يحيا به في عالم الذكري والخلود .

ولا ينسى ان يذكر ما لليازجي الكبير من ايدٍ على لغة الضاد .

(١) تلفت النظر الى ما في هذه الابيات من تورية وتشبيه وجناس ، فالشاعر يجيد الصنعة ويحكمها ،

ولا ريب ، فهو في معرض رثاء شاعر كبير .

(٢) الديوان ١ = ٢٩٠ (٣) الديوان ٣ = ٣٢٦ (٤) الديوان "عد" .

ويرى في فقد مصطفى كامل كارثة على المسلمين والنصارى
واليهود جميعا فيقول (١) =
جزع النصارى واليهود لمسلم
هو خير من والى واوفى من وفى .
ثم يلتفت الى "مصر" التي فقدت اعز ما يفقد =

"مصر" العزيزة قد ذكرت لك اسمها وارى تراكب من حنين قد هفا
وكانني بالقبر اصبح منبرا
وكانني بك موشك ان تهتفا
باعتز منك ، ولم تعز باحصفا
"مصر" التي لم تحظ من نجباها
"مصر" التي لم تبغ الا نفعها
في الحالتين ملاينا ومعنفا
بصبيب دمك جاريا مستنزفا
"مصر" التي غسلت يداك جراحها
متصدرا لرماتها مستهدفا
"مصر" التي سقت الجيوش منا قبا
ومنى لتكفيها المغير المجنفا
"مصر" التي احببتها الحب الذي
بلغ الفداء نزاهة وتعنفا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا
من شملها ما لم يكن ليؤلفا .

وفي رثاء قاسم امين (٢) يرثي المصلح الاجتماعي معددا ما للرجل من
فضل على امته فيقول =

لقد فدح الخطيب في "قاسم"
اما يشفع الفضل في فاضل
فيا لك من زمن فاشم
عزير على "مصر" هذا المصاب
بمقدامها المصلح الحنسان
لك لاله من شائد للعلا
وفي يده معول الهادم
يدك القبيح وييني المليح
رجوعا الى سنة الراسم

xxxxxxxxxx

(١) الديوان ١ = ٣٤٨

(٢) = ٢ = ٢

وليكن القضاء فكنت القضاء
تزييل دجى التريب المسد لا ت
وكم ليلة بتها ســـــاهدا
تبالغ في البحث عن حقه
وتوقع حكمك عن حكمة
على المعتدى وعلى الآثم
بامضى والمع من صـــــام
وذوالشأن في غبطة النائم
كبحك الشحيح عن الخاتم
فما من هضم ولا هاضم

وفي رثائه للشاعر الكبير اسماعيل صبرى (١) يبدع في تصوير صبرى وتحليل
شعره بقول رائع جميل ، وان يكن قد اخذ عليه (٢) في مطلع القصيدة ذكره
للخمرة في معرض الرثاء حيث يقول =

شهب تبين فما تـــــوب
ارابت في كأس الســـــطلا
فكأنها حسب يـــــذوب
درا وقد صعدت تصوب ؟

لان مقام الرثاء يجمل عن ذكر الحبيب والكأس ، وليس لك ان تشبه
الشهاب حين يغيب بالحبيب حين يـــــذوب .

وينتقل الى الكلام على شعر صبرى فيقول ويبدع =
كنسيه الاخذ بالالباب
وكمدحه المدح الســـــذى
وكوصفه الوصف الســـــذى
يتناول الغرض البعيد اذا البعيد هو القريب
او يبرز الخلق الســـــوى
كل يصادف من هو
فكان ما تجرى خـــــوا
فليسكن النسيب
ابدا له ثوب قشيب
عن رؤية الســـــرايى ينوب
فللحياة به ديب
ه عنده ما يستطيب
طره به تجرى القلوب

(١) الديوان ٣ = ١٣

(٢) مبارك ، زكي الموازنة بين الشعراء ص . ٢٠

وبقصيدة تبلغ مئة وخمسة وأربعين بيتا يرثي سعد زغلول (١) ويكي فيه
بطلان أبطال الشرق ويعزى مصر والشرق اجمع في هذا المصاباة الاليم =

يا " مصر " خطبك خطب الشرق اجمعه على اختلاف بنيه والاسى عمم

" لبنان " مات به حزنا رواسخه وجف " بالغوطة " ، الصمصاف والرتم

وفي " السواد " عيون بالسواد جرت وفي " الحجاز " و " نجد " للجوى ضمم

ثم ياخذ في الكلام على سعد الصحفي والمحامي والقاضي والوزير والاديب

والخطيب والزعيم الاكبر ، ودفاعه عن مصر ونفيه وعودته .
(٢)

وفي رثاء احمد شوقي يصور وحشته بعد ان تولى زميلاءه حافظ وشوقي ،

وهو صادق في تصوير جزعه وياسه وقد اصبح وحيدا يتمنى لو ارتحل مع

الراحلين =

عجبا اتوحشني وانت ابزائي وضيا وجهك مالي ، سودائي ؟

لكنه حق - وان ابنت المنى - انا تفرقتنا لغير لقاء

جرحوا صميم القلب حين تحلوا ، الله في جرح بخير شفاء

الطيب محمود من عمرى مضى والمفتدى بالسروح من خلصائي

لا بل هما مني جناحا طائر رميا ولم يكن نافعى اخطائي

الصاحبان الاكرمان توليا فعلم بعد الصاحبين شوائى ؟

ثم يخاطب شوقي معترفا بامارتسه علي الشعر حافظ له العهد ، فهو ما

تعود ان يخون اصحابه =

مهلا امير الشعر غير مدائع ومعز دولته بخير مسرا

xxxxxxxxxxxx

(١) الديوان ٣ = ٢٦١

(٢) = ٤ = ١٢٦

يجلونبوغك كل يوم آية
كالشمس ما آبت ات بمجدد
عذراء من آياته العذراء
متنوع من زينة وضياء
الا لاقدان من النبغاء
لتهيؤ الاسباب في الاثناء
من عليه العلماء والحكام
ثم ينتقل الى وصف شعره فيقول =

من اي بحر دره متصيد
شعر سري مسرى النسيم بلطفه
ويكاد يلمس فيه مشهود الروى
عجبا لما صرفت فيه فنونه
فلكل لفظ رونق متجدد
يجلس الجمال به كابدع ما انجلت
ولرما راع الحقيقة رسمها

يقول ادهم في حديثه على رثاء مطران (١) "ولقد حاول مطران في كل
مراثيه المتأخرة ان يجيب عن هذا السؤال مظهرا ما ترك كل فقيد من اثر
في الحياة وما اضافه الى سجل الايام من اعمال . ومن هنا جاءت الناحية
الوصفية من شعر الرثاء عند مطران ، والعناية التامة بترجمة حياة
الفقيد في مراثيه المتأخرة وهذا واضح في كل من مراثيه لحافظ ابراهيم
وشبلي الشميل واحمد شوقي وسعد زغلول . وهي تبلغ غايتها وقمتها في مراثيه
لحافظ .

وننتقل بعد ذلك الى رثائه لحافظ (١) فبعد ان يصور موته وخسارة

الامة العربية فيه ينصرف الى تعداد مميزاته كشاعر واديب =

شاعر لم يباريه احد في ال	اخذ بالمتحب المستجاد
يحكم الصوغ في القلائد فما يأ	تي صناع بمثلها في القلاد
ناشر تنفث البراعة منسسه	نشوة الخمر في مجاج شهاد
لم يكن في مصايد الولوء الفا	خر يبغي فريدة لاصطيا د
في تراكيبه وفي مفردات اللفظ	حارت نفساسة الحساد
كان في سمعه رقيب عليه	يقظ من جهابذ النقساد
يقع الزين منه في موقع (م)	الزين وينبو بالشين نبو سداد
فالمعاني تتيه بين المعاني	بستي الحلبي والابراد
والمباني تعزبين المباني	بعتين الاسباب والالاتاد

وخالصة القول ان نظران في مرثيته هذه تناول عصر حافظ وسيرته وشاعريته وحلّل عناصر فنّه والغزوات التي اثرت في شعره . وصور مصاب الامة المصرية واللغة العربية فيه وبكاه بشعر جميل رائع .

والذي ينظر في رثاء مطران للبارودي وصبري وشوقي وحافظ يلمس فهمه الدقيق لشاعريتهم ومميزاتهم في القول والصناعة . ويخرج بشيء ظاهره ان مطران صاحب ملكة نقدية هائلة ، وبصيرة حادة في فنون القول . ومن اجدر من الشاعر الكبير بمعرفة القول البلخي وتلمس دقائق الصناعة . وكان مطران اذا رثى صحفيا اظهر مقدرته الصحفية وخدماته لوطنه

ومؤثره في الدفاع عنه ، واذا رثى بطلا استشهد في سبيل
وطنه بكى تضحيتيه وحقق على الموت في سبيل الاوطان . واذا
رثى اديبا او شاعرا اظهر مميزات ادبيه ومزاياه وخسارة امته في فقده .
ففي مثل هذا الرثاء يجب ان نبحث عن شعر يمس القلوب .

التهاني والحفلات

وما تبقى من شعر المناسبات عند مطران ينقسم بدوره ايضا
الى نوعين = نوع ركيك هزيل خالي من الروح الشعرية لا يرتفع
بالمناسبة الحقة الى اعلى بل ينساركها في الاسفاف .
ونوع آخر وان تناول المناسبات العابرة فقد يوفق الشاعر في صياغته
وفي الارتضاع بالمناسبة الحقة ويرقصك بها في شعر لا بأس به . فمطران
يفضل موهبته الشعرية وذوقه الفني يستطيع ان يجيد النظم ويروني
القارئ .

وحسب هذا التقسيم سنتناول شعر مطران في المناسبات بعد ان تناولنا
رثاءه .

ففي (زفاف الانسه نجلا سركيس) (١) يقول في مدح والى العروس ،
سليم سركيس =

وما " سليم " الا ابرّ اب	رى بنسبه بالخطة الفضلى
يجيد في كل ما يجي به	اكان قولا ماجا ام فعلا
" سليم سركيس " هل اعرفه ؟	جواب هذا لسائل = كلا
من يتصدى لان يعرفكم	سركيس مشى عليكم الجهدلا

لكن هذا اليم اجازلنا
"سركيس" في حلبة الكتابة ان
ايغاه المدح شاءه ام لا
جلي فلا فروانه جلى

فهل مثل هذا النظم يليق بشاعر كبير كطهران ؟ اين المعنى لبليغ ؟
واين الفتح المبين ؟ واين النظم الرائع ؟

وفي (الغرفة التجارية بالإسكندرية) (١) وهي القصيدة التي انشدها يوم
افتتاح صرحها الجديد عام ١٩٢٢ يصبح الشعر لغة التجارة =

ليس شيئاً عجيباً	صرح ويدعى بغرفته ؟
تناقض فيه سر	تجلو البداهة لطيفه
وما التواضع عجز	ان التواضع عصفه
صرح به كل غنم	لمن يقرب طرفه
في كل مطرح لحظ	من الصناعات طرفه
ومن عروض التجار	ت تحفة عند تحفه
النسج تبدى حلاه	والطيب يبذل عرفه
متانة فيسي روا *	وحسن ذوق وخفه

ويكمل بمثل هذا النسج فيمدح المليك والامير ووزير المالية ووزير
التجارة ورئيس غرفة التجارة . فالقصيدة كما رايت كسيفة سخيفة ليس
فيها معنى بليغ ولا موسيقى ولا نغم فليته تكلم نشرالكان ابقى للشعر
كرامته وراحنا وراح نفسه من هذا العذاب .

(٢)
وفي (بطلقة عاشقين) يتكلف الجنان فيفسد على نفسه القول =

لوان ما نتمنى	يكون منى بطاقة
اهدith جننة ورد	وما رضيت بطاقةه
لكنني من دماثني	نظمت هذى البطاقةه

ومثل ذلك قوله في (تهئية) (١) ألسمو الخديوي عباس الثاني
على اثر فتح السودان -

النيل عبدك والمياه جوارى بالجن والبركات فيه جوارى
امنته بمعاقل وضوارى وجعلته ملكا عزيز جوار
وقبه ينهج النهج القديم في بعض اشعاره فيقدم المقدمات الغزلية ،
مثل قوله في (عيد الجلوس الخديوي عام ١٩١٢) (٢)

مّرني بالننا فاحيانا	كيف لوزارنا وحيانا
رشاء والنفار شيمته	لا لشيء يصد احيانا
قد سلاعهده ونحن على	عهدنا لا نطبق سلوانا
نحن اهل الهوى نضام و لا	نسال العدل من تولانا
آمرات العيون تأمرنا	ونواهي الخصور تنهانا
يعذب الطعن في جوانحننا	اذ تكون القود مّرانا
ونبيح السيوف اكبدنا	اذ تكون الجفون اجفانا
ما لنا غير تلك رائحة	في زمان العزيز مولانا .

في رأى ادهم (٣) ان مطران قد اساء الى شاعريته الممتازة حيث اضطرته
الظروف الاجتماعية التي تكتنفه والملابسات الدنيوية التي تحيط به الى ان
ينظم كلاما ليس فيه من روح الشعر ما تتفق به ، وهول وجرد ديوانه
منه ، وخلص شعره من هذا المديح الضعيف الذي لا يدل على اية نفحة شعرية -
الا في بعض الاجزاء - لصان شعره من ان يجد فيه الناقدون موقعا للجرح
والمؤاخظة ، ولكنها رسالته الادبية اقرب للتعليم والكمال .
(٤)
ومن قوله في (قران) اميل زيدان بك والانسه روز كريمة العرحم المحامي

(١) الديوان ١ = ٤٤ (٢) الديوان ٢ = ٨٦ (٣) ادهم ص ٢٠٦

(٤) = ٢ = ٢٣٢ .

الكبير نقولا توما -

هو يوم اغر مبتسم عن وجوه بالبشر غمران

رضي المجد ان تزف به بنت " توما " الى ابن " زيدان "

هل في هذا القول ما يزيد علي ان يكون كلاما عاديا اودون الكلام العادي ؟

وفي (شكري) (١) لاعيان بلدة قلقيلية بفلسطين وقد اقاموا حفلة لاکرام الشاعر-

في المخلصين سلام	على بني " القليل "
الصائنين حماهم	بغسيرة قال وقيل
الكائدين عداهم	بكل فعل نبيل
الحاملين خفانا	عبء الوفاء الثقيل
البارزين السجايا	بكل وجه جميل
نرى " فلسطين " منهم	عزت بخير قبيل
داموا ودامت علالهم	فيها لجيـل فجيل

بيدا مطران ضعيفا ركيكا ، فما بعد هذه " القليل " عن موسيقى الشعر . وما هذه " القال والقيـل " . ولكن مطران ، وهو شاعر كبير ، لا يلبث ان يسف حتى يعود فينهض من جديد . فقله -

الحاملين خفانا عبء الوفاء الثقيل

رائع . فقد وفق في الجمع بين الخفيف والثقيل .

ومهما يكن من الامر فان شعر المناسبات عند مطران لا يخلو من شعر يوتفح بالمناسبة الى الارجح احيانا وقد يوفق فيه مطران كل التوفيق مما يدل على شاعريته الهائلة ومقدرته على سيق القول فاذا كان شعر

المناسبات شعرا هزيبلا في كل حال ، يحدو على يد مطران غير هزيل لانه يعرف كيف يخرج من حدود المناسبة السخيفة الى نظم ابیات من الشعر تعد من روائعه .

ويسرى ابو شادي (١) * انه وان كانت لمطران مناسبات شتى لقصائده العامة تتبعها للاوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر والشرق العربي ، الا ان جميع هذا الشعر زاخر بكل العناصر الرفيعة التي يتميز بها شعره كيفما كان عنوانه وموضوعه ومناسباته .

وقد يصح قول ابي شادي هذا اذا خلا من تعميمه لان ليس * جميع شعر مطران زاخر بكل العناصر الرفيعة التي يتميز بها شعره . * فلو اخذنا ابياته في (الهريسة) (٢) نرى انما قاله من شعر فيها لا يمكن ان يقال احسن منه في موضوعه وبهذا يكون قد اجاد اكثر ما يمكن في مثل هذه المناسبة .

اتت بلا وعد ويا حسنها	هريسة طابت لهـراس
ينبدر ان تطهى فاياها	من بهجة ايام اعـراس
لو قد رايت الشحم واللحم في	اية حال بين اضـراسي
سمعت من انشودة الحمد ما	تشده انياب قولـراس

والجمال في هذه الابيات يقع في قوله لسه = (اتت بلا وعد) و(ايامها

ايام اعـراس) و (انشودة الحمد) . وفي (تهنئة بزفاف) (٣) يقول =

تجرى على آمالك الاقدار	فكانهن مناك والاطار
ومن اصطفته عناية من ربه	تأتي الامور له كما يختار

(١) ابو شادي ، احمد زكي الاديب ١٢ عدد ١٠ (١٩٥٣) ص ٣٠ - ٤٠ .

(٢) الديوان = ١ = ٢٢ (٣) الديوان = ١ = ١٦٢ .

فهذا بيت رائع قد يساوى قصيدة بكاملها .
وفي " مغيب في البرزخ " (١) وهو يوثي ماري كندرجي يوفق في التمازج
بين حالات النهار وبين موت المرثية .

هل كان هذا البين في الفجر

فتلوت كوكبه على الاثر ؟

ام في الضحى فنفتحت اخضرما

نفحت ذابلة من الزهر ؟

ام في الهجيرة فانحلت كما

شرب الضرام وحيدة القطر ؟

ام في الزوال فمغربان معسا

للشمس في الدنيا وفي خدر ؟

ام في الظلام فزاده حلكا

سرقيت به الى سسر ؟

ام في تجلي البدر متمزجا

منك انسجى بكآبة البدر ؟

وفي (حفلة لاعانة الطلبة الغراء في الازهر الشريف) يستهل القول
بابيات تعد من اروع الشعر ساقتها المناسبة ، هن قصد او عن غير

قصد ، فجاءت على اجمل ما تكون =

فاح ربحانها ولاح الخزام

وجلست عن حليها الاكمام

كل ورد في غير " مصر " له عا

م وفي " مصر " ليس للورد عا

ما لاقابه وداع ، ولكن

(م) بواكيره سالم

بلد من حياته دعة السوا

دى ومن كبرياته الاهرام

فاض بالخير نيله فسقا

وتراى للازديان الغمام

رق فيه الشتاء حتى ليبد و

في ثناياه للرييح ابتسام

غردت صادحاته فرحات

وتناسست نواحيهن الحممام

سطعت شمسها فما يتغشى

نورها الصافي البهيج قمام

حيذا " مصر " في الرباع رباعا

لا يضاها المقام فيها انقام

فوصف مطران اللورد المصري وصف رائع ليس في ذلك شك . وعلى هذه

الابيات يعلق امين نخله ^(١) بحديث له على خليل مطران = "فيقول =

"قصر صاحب - ديوان الخليل - اشهد صاحبكم بورد مصر ، في قوله =

كل ورد ، في غير مصر ، له عام وفي مصر ، ليس للورد عام

مألقابه وداع ، ولكنن بواكيره سلام سلام .

فابى اهل مصر ، عندنا ، الا ان يكون قصره في هذه العطفات من

طريق واديهم ، والا ان يبتسوه له على شكل الورد القحابي ، وهو ورد

ارضهم الذى يسهجون بذكوره ، والذى هو مما يجتمع لهم من الزهرات

السبع ، في وقت معا ، على ما تظنن بذلك كتب اللوصاف ، والمقومين .

فجعلوا قصر الرجل مأثرى - باطنا من ياقوت ، ومظاهرا من ذهب

عين .

فتقول = "ايه لهذا القصر اللبناني ، في الحارة المصرية ! ثم ، يا عجا

للبنانيين ، هاهنا . يقيم المصريون قصر هذا البعلبكي على هيئة السابعة

من زهرات ارضهم ولا يقيمون هم ، قصر صاحبهم على هيئة ما في مسقط

راسه ، عندهم ، من سابعة عجائب الدنيا . . .

" ذلك ، وهو الذى يهتف في بعض اشعاره =

"ان المصير الى الثرى ، واخاله اندى ، وارنه ، في ثرى لبنان ،" (٢)

واجمل من قوله في ورد مصر قوله في مصر =

بلد من حياته دعة السوا دى ومن كبرياءه الاهرام

فقد اعيتطاع مطران ، ببسيت واحد من الشعر ان يصف مصر اجمل وصف واروعه .

(١) نخله ، امين ذات العماد - تحت الطبع - ص . ١٣٥ - ١٣٦ -

(٢) ديوان الخليل ٤ = ٢٥٨ .

فمطران شاعر كبير ، والشاعر الكبير يعرف كيف يظل كبيرا حتى
في أحط المناسبات .

يستهل قوله في عيد ^(١) بنيك مصر بهذه الابيات وقد مرت معنا في
الحديث عن حبه لمصر =

ما موقني في مصرف للمال ؟ انا شاعر ما للحساب ومالي ؟
لاشيء لي فيه ، وكل كتوزه من حيث تنفع مصر احسبها لي !
ان ايسرت مصر وفيه ضمانها اني ، اذن ، فرح برقة خالي .
فهبل اجمل من هذا القول الاروع ؟ وهل يحتاج هذا الى تدليل على ما فيه
من حب واخلاص لمصر ؟

وفي (تهنئة بالرتبة السامية لحضرة صاحب السعادة يوسف صيدناوي
باشا) ^(٢) يقول =

الجود خير وكل الخير فيه اذا لم يعد مغزاه اولم ينقلب سونا
والحرمان يغدر "شحابا" صاحبه بالعار ، طال بفا مكث ، او انصرفنا
فما زاد مطران على ان اخذ معن الشاعر القديم الذي قاله في بيت واحد
فاحسن واجاد فمظنه مطران في بيتين فونان يضيف شيئا =
بين تبذير وبخل رتبية وكلا الامر ان زاد قتيل .
يجب ان نلاحظ هنا ان شعر مطران قد اخلص من شعر الهجاء - وهو
احط شعر المناسبات - والفخر . فلم يكن له اعداء يثور عليهم
فيهمجؤهم ، ولم تكن طبيعته ومزاجه لتنسجم مع الهجاء ومرارته . والهجاء
ينضح من اناء البغض والحقد والحسد وقندان العاطفة الانسانية ، ونفسه
شاعرنا تترفع عن مثل هذه النقائص .

وإذا بحثنا في دواوينه لا نجد سوى أبيات معدودات دفع اليها مطران دفعا ،
دفعته غيرته وحببه وذلك قوله في " حكاية عاشقين " (١)

جزى الله اخوانا وشوا بي عندها فكانوا لسعدى حين تم عشارا
يسرون لي سرا ويبدون رأسة ، ا كانوا اذن ييغون عندي نارا؟
ثم ما تليق ان تنتصر طبيعته السمحة فيصفح عن وشائته فيقول =
فصفحا لكم عما اقترفتم احبثي وتدرون اني ما صفحت حذارا
ولكنه يعود ويودف ذلك بقوله =

توهمتكم حينما كبرارا بنبلكمم فالفيتكم كالمجرمين صغارا
ولم يغن مال من مهانة سعيكم اتشرون خلقا بالنضار نضارا ؟

ويخلو شعره كذلك من الفخر وهذا شيء طبيعي لان الخليل لما عرف عنه
من رقة الحاشية وفكران الذات ودماثة خلق ، لا يمكن ان يكون معتدا بنفسه
ساحبا ذليله الطويل على سائر الشعراء الادباء مغرورا بموهوبته الشعرية
بل على العكس فقد كان متواضعا يخجل من الاطراء ويتعد عن حب الظهور.

وليس له في شعره ما يخالف هذا القول سوى بيت يقولها في (عيد
الميلاد) فيسمح لنفسه ان يمتدحها ويصف كرمه واحسانه الى الناس فيقول =
(٢)

اعطي ولا اعطى واستوفي حقوقي ناقصه

ونيتي للخير فني

انا الذي يجدد

مداركا ومدركا

شركة خيرية

ساع صنوف السعي او

ولكنه ما يلبث ان يورد هذه الملاحظة على هامش الصفحة : " تسامح الشاعر في وصف نفسه كما وصف ، لانه حين نظمها كان يعدها لتطالعها والدته " فتأتي ملاحظته هذه فتكون اروع من قصيدته .

ومهما يكن من امر فهذا رأى سقته في شعر المناسبات عند الخليل وانا اتعنى لو خلا شعره من هذه الحشائش تثبت بين الزرع فتضعفه :

حدثني الاستاذ فؤاد صروف بانه واللجنة المشرفة على طبس ديوان الخليل طلبوا من الشاعر ان ينحوا شعر المناسبات ويكتفوا بجمع جزء واحد يحتوى على جميل شعره فابى واصر على ان يجمع كل شعره فهو يصور حياته وصدقاته للناس التي يحرص عليها ، وهكذا كان .

واني اميل الى ان اشفق على الشاعر الذي اجبر على التزام هذا النوع من الشعر فعلا به دواوينه - اجبرته :

- ١ - طبيعته الودودة وكثرة علاقاته مع الناس .
- ٢ - ظروفه الخاصة التي حتمت عليه ان يعيش في غربة عن بلده واهله فاذا هو مضطر لمصادقة الجميع والتقرب اليهم .
- ٣ - كونه مسيحيا الزمه ان يساير ولا يورط نفسه في مآزق حرجة تجعل الناس ينظرون اليه نظرة ليس فيها كثير من الرضى .
- ٤ - ووجود نفسه مسوقا ، من قصد او غير قصد ، الى مجارة كبار الشعراء امثال شوقي وحافظ الى تناول المواضيع التي يتناولونها من رثاء او تهاني او ترحيب حتى لا يشذ عنهم :

واتعنى ايضا لو كان الشاعر امتنع من جمع هذا الشعر واكتفى بديوان واحد بدلا من دواوينه الاربعة :

واختتم هذا الحديث عن مطران بالاعتذار الى روحه الخالدة ونفسه السمحة مرددا قول الناقد الفرنسي الشهير بوالسور :

" ما اسهل النقد وما اشق الفن ! "

الخلاصة

الخلاصة

ولقد آن لنا ان نربط اطراف الموضوع ونجمع فصوله ملخصين
ما جاء فيه من آراء .

فلنا ان العصر الذي سبق مطران كان عصر تحول في
تاريخ الشرق العربي ، عصر احيا التراث العربي القديم وانفتح
الادب العربي على ثقافات حديثة .

فقد ساعدت عوامل النهضة هذه على بعث الشعر الذي
كان قد انتهى الى ان يكون كلاما موزونا مقفى محشوا بالبديع والتضامين
والتشظير والمعارضات وحساب الجملي همه ان يمدح ويهني لا يدع
مناسبة تمرا لا ويسجلها ، وشعراء ذلك العصر لا يفهمون الشعر
الا انه تظريز على ثوب خلق .

الى ان جاء البارودي فكان هو الجسر الذي عبر عليه الشعر
العربي المعاصر من طور الركافة الى طور القسوة . فقد رجع البارودي
الى منابع الشعر العربي الصحيحة وانتخب منه اجود ما جادت به
عبقرية العرب القدامى وخاصة الشعر العباسي . وقد عرف
كيف يستفيد من اختباره في الحياة ودقة ملاحظته في
تصوير ما يجيش في خاطره .

وسار على طريقه الشعراء الذين جاءوا بعده امثال اسماعيل
صبري وشوقي وحافظ .

فكان صبرى اول شاعر بعد البارودى ، عبّر عن نفسه بشعر رومانتيكي امتاز بقوة الديباجة وصحة النسيج .

ثم جاء شوقي واكمل طريق الشعر الاصولي الذى بلغ عنده ارفع منزلة . فقد استطاع بفضل غنائيته وموسيقيته وموهبته الفذة ان يعيد للشعر العربي سابق مجده ورونقه وادخل عليه فنا جديدا ، لم يعرفه من قبل ، هو الشعر التمثيلي .

وحافظ الذى كان اقل ثقافة من شوقي سار مسيره في اقتفاء الشعر العباسي وفنونه . واستطاع ان يعبر عن آلام بني قومه ويصور محنتهم وعواطفهم وبرز في الرثاء ما شاء الله له .

×××

كان من حظ مطران انه ولد في لبنان سنة ١٨٧٢ ونشأ فيه زمن قوي فيه الحركة الفكرية ، وكانت المدنية الغربية ، وخاصة الافرنسية ، قد انتشرت بعجيء الارساليات الاجنبية الى هذى الديار . فاخذ مطران بالثقافتين ، تهيأت له ثقافة عربية لا بأس بها على يد استاذيه الشيخين اليازجيين ابراهيم و خليل . ودرس اللغة الافرنسية واتقنها ووقف على آدابها . وبدأ ينظم الشعر وهو طالب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، مقلدا الشعراء القدامى اول الامر وذلك ظاهرياً وائل شعره . فكان كلاسيكياً متجدداً .

ولكنه ما لبث ان همّ في الاخذ بيد الشعر والنهوض به والسير نحو الرومانتيكية تدفعه ثقافته الغربية وحاسيته وحببه الذي كان له اكبر الاثر في شعره الابداعي .

لم ينصرف مطران انصرافا تاما للشعر فقد اشتغل في الصحافة فتركها ثم تعاطى التجارة فربح ثم خسر ثروته فعاد الى الوظيفة ، وهوى التمثيل وعرب عددا كبيرا من المسرحيات العالمية لشكسبير وموليير وراسين وكورنيل وهيجو .

» وقد لعب مطران دورا هاما في تطور الشعر العربي ففهم القصيدة على انها وحدة لا تتجزأ بينما فهم الشعراء الذين عاصروه وسبقوه ان البيت هو وحدة القصيد . واستطاع ان يتحرر من القافية الموحدة وان حافظ على وحدة الوزن . وادخل القصص على فنون الشعر . ولكنه اكثر من شعر المناسبات الذي اساء الى شعره وخفض من مكانته .

ولو شئنا ان نكون في الحكم ذوى نصفة قلنا ان مطران هو نهاية الكلاسيكية المتجددة واول الشعراء الرومانتيكيين .»

×××

يرد فضل مطران الى انه اثر فيمن عاصره وجاء بعده من الشعراء . وكان هذا التأثر بالجديد الذي استحدثه مطران في

الشعر على وجهين^(١) الاول التاثر بشعر مطران بالذات • والاخر
التاثر بما تركه مطران في المحيط الادبي العربي • اما من الوجه الاول
فذلك يكون اما باحتذاء مطران في طريقته ونهجه احتذاء تاما كما هي
الحال مع خليل شيبوب ، واما التاثر بالطلاقة الفنية عند مطران
مع بعض التاثر باخيلته كما هي الحال مع احمد زكي ابوشادي والتاثر
بالطلاقة الفنية عند مطران دون ان يتجاوزها الى التاثر باخيلته
وطريقته في قرض الشعر كما هي مع فوزى المعلوف وابراهيم ناجي واي القاسم
الشابي •

غير ان عبد الرحمن شكرى يرد على ادهم^(٢) وينكر ان يكون
قد تاثر بمطران ويقول انه قد اطلع على الادب الاوربي من
مصادره ، فثقافته كانت انكليزية بينما كانت ثقافة مطران فرنسية ،
وانه قد اطلع على الادب الفرنسي مترجما الى الانكليزية وليس بواسطة
مطران ، وانه لم يعرف مطران ولم يجتمع به سوى مرتين ، وانه كان قد
نشر قسما من شعره قبل ان يصدر مطران ديوانه •

ومهما يكن من الامر فان مطران كان اول من ركب الثورة على

الاتباعية في الشعر العربي وحطم وحدة البيت وعيث بعمود

الشعر . فمهّد السبيل امام الشعراء الذين جاءوا بعده ، فمنهم

من تأثر بروحه ، ومنهم من تأثر بعبارة ، ومنهم من تأثر بالاشنيتين معا •

... / ...

١- ادهم ص ٢١٩

٢- شكرى مجيد الرحمن الرسالة م ٧ (١٩٣٩) عدد ٣٠٢

وان يكن بعضهم (١) انكر ان يكون قد تثر بمطران وادعى انه تثر بشعراء الغرب وادبائهم مباشرة وهذا ينطبق على المدرسة الانكليزية التي تشمل بالاضافة الى العقاد صاحبيه شكري والمازني .

ويعترف ابراهيم ناجي باثر مطران هذا فيقول : (٢)

" لقد كان الشاعر خليل مطران يكتب قصصه الشعرية "

" الجنين الشهيد " وغيرها حين كان حافظ وشوقي يقلدان البارودي

او يعارضان القدماء . وكنا نحن في صبا نقرأ شعر مطران كما نقرأ

شعر حافظ وشوقي وقد ترك الثلاثة في نفوسنا آثارا لا تحصى ، ولكنني

اعتقد ان اثر مطران علينا كان قويا واضحا ، فاذا كتبنا اليوم شعرا

نسميه فنا حديثا او جديدا ، فمن فضل ذلك الرجل . "

وقد اثر مطران في جماعة شعراء المهجر الذين تجرأوا

اكثر منه فيما بعد على ^{خليل} خطيم حده البيت والثانية والبحر .

وكذلك تثر فيه شعراء سوريا ولبنان وان يكن مدى

هذا التاثير متفاوت في الضعف والقوة . .

ويعترف ابو شادي ايضا باستاذية مطران فيقول :

" عرفت هذا الرجل (يعني مطران) واستاذيته منذ ثلاثين

سنة ، اذ تعهدني صغيرا وقيمت اهتدي بهديه ، واثره في شعري اثر

... / ...

(١) - العقاد : شعراء مصر ص ١٩٩ - ٢٠٠

(٢) - ناجي ، ابراهيم مقدمة " اطياف الربيع " لابي شادي

(٣) - ابو شادي ، احمد زكي انشاد الفجر ص ١٢٨

عميق لانه يرجع الى طفولتي الادبية ، ويصاحبني في جميع ادوار حياتي ، واذا كان استقلالي الادبي متجليا الان في اعمالي ، فهو في الوقت ذاته ، يمثل الاطراد الطبيعي للتعالم الفنية التي تشرتها نفسي الصبية من ذلك الاستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة ، الوفية ، ناظرة الى آثار الصبا والى معلمي الاول بحنان عميق .

وهو لا يدع مناسبة الا ويعترف باستاذية مطران هذه .

ويقول عبد المنعم خفاجي : (١)

" ان ابا شادي اخذ عن مطران احترام المذاهب الادبية المختلفة ،

واحترام النقد ، وكراهية الفردية ، وتقديس الشخصية الفنية الحرة ."

وكذلك يعترف الشاعر خليل شيبوب باستاذية مطران فيقول : (٢)

استاذي الاعلى ومرشدي الذي منذ الصبا قد حاطني ورعاني

فاذا نطقت فان ذلك لفظه منه اليه يساق بالشكران

ويعترف مندور^(٣) لخليل مطران انه " ادخل في الشعر العربي

الحديث اخيلة ونغمات واتجاهات لم يعهد لها الشعر التقليدي ، وبخاصة

تلك الحركة الدراماتيكية القوية التي تهتربها روائع قصائده

المطولة ."

... / ...

(١) - خفاجي ، عبد المنعم مع الشعراء المعاصرين ص ٢٢

(٢) - شيبوب ، خليل الكتاب الذهبي ص ٢٠٦

(٣) - مندور ، محمد الشعر المصري بعد شوقي ص ٥

وكذلك يعترف بشرف فارس بفضل مطران على الادباء والشعراء

فيقول: (١)

* قد علمنا نحن الكتاب كيف نشب بالفكرة من لفظ الى لفظ ،

ثم كيف نجرى باللفظ من فكرة الى فكرة . فادخل ما بين المبني والمعنى ،

وشد الوثاق بين المدلول والمفوض بسلك هش متصل .

* ثم علمنا نحن الشعراء ان اللفظ وساطة لا غاية وان الصورة

شرارة لا حكاية ، وان الحس يقتله الانتعال ، وان القصد بنيان متماسك لا حائط

مرفوع هنا وطاقة منقورة هناك وزخرفة ملقاة فيما بينهما . ثم علمنا ان الروح

للعبارة عصارة ، فعلى قدر الخلجات تكون انواع التعبير وقدر الخطرات

تأتي الوان التخويل . فارشدنا الى استخراج الدفائن الخاصة وصرفنا عن

ترداد الملتقطات ، وهدانا النزول الى اعماق الضمائر حتي ينطق كل منا

بحسب شعوره وهو حرق قد خلا لقرينته او استأنس بطبعه .*

ولكل خير كلام نختم به هذا البحث هو راى شوقي في مطران ، في

مقدمته للطبعة الاولى من " الشوقيات " ، وهو راى فيه صواب كثير ، على ما فيه

من اختصار كبير : * خليل مطران صاحب المنن على الادب العربي .*

ملحق

مختارات من شعر مطران

قلعة بعلبك

تذكار صبي

فاذا مر فهمى في الآثار
ينقضى والفتى به غير داري
فاذا بان عاش بالتذكار

هم فجر الحياة بالادابار
والصبي كالكرى نعيم ولكن
يختم المرء عيشه في صباه

...

بعد طول النوى ومع المزار
مقويات اواهل بالفخسار
رسم عهد عن اعينى متواري
مستحب في النفع والاضرار
لا افترار فيهن الا افتراي
لا هيا عن تبصر واعتبار
ما بها من مهابة ووقار
والهوى بيننا اليه جار
مرحاما له من استقراي
كل ترب في مخبأ متدري
حشا الشوق مؤذنا بالبدار
بنجار ففرقة فجوار
تد السعد مخنة الاكدار
جد سفر عادوا من الاسفار
قبسات الانداه والاسطار
وكلشم النوار للنوار
اطهر الحب في قلوب الصغار
فاغتدى حين شب جذوة نار
كل شى الى الردى والبوار
فدمار يعنى بدار دمار

ايه آثار " بعلبك " صلام
ووقيت العفاء من عرصات
ذكرينى طفولتى واعيدى
مستطاب الحالين صفوا وشجوا
يوم امشى على الطلول السواجى
نرقا بينهن غرا لعموا
مستقلا عظيمها مستخفا
يوم اخلو " بهند " نلهو ونزهو
كفراش الرياض اذ يتبارى
نلتقى تارة ونشرد اخرى
فاذا البعد طال طرفه عين
وعداد اللحاظ نصفو ونشقى
ليس في الدهر محض سعد ولكن
كلما نلتقى اعتقنا كأننا
قبسات على غاف تحاكى
واشتباك كضم غصن اخاه
قلبنا ظاهرو ليس خليا
كان ذاك الهوى سلاما ويردا
حبذا " هند " ذلك العهد لكن
هد عزمى النوى وقوى جسمى

...

خرب حارت البرية فيها
معجزات من البناء كبار
البستها الشمس تفويف در
وتحلت من الليالي بشاما
وسقاها الندى رشاش دموع
زادها الشيب حرمة وجلالا
رب شيب اتم حسنا واولى
معبد للاسرار قام ولكن
مثل القوم كل شي عجيب
صنعوا من جماده ثمرة يجنى
وضروبا من كل زهرانيق
وشهوسا مضيئة وشعاا
وطيورنا واهبا آيات
في جنان معلقات زوا
واسودا يخشى التحفز منها
عاهسات الوجوه غير غضاب
في عرائنها دخان مشاسر
تلك آياتهم وما برحت في
ضمها كلها بديع نظام
في مقام للحسن يعبد بعد العقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسما وابهن
فتنة السامعين والنظار
لاناس ملء الزمان كبار
وعقيق على رداء نضار
ت كتنقيط عنبر في بها ر
شربتها ظوامي الانوار
توجتها به يد الاعصار
واهن العنق صولة الجبار
صنعه كان اعظم الاسرار
فيه تمثيل حكمة واقتصاد
ولكن بالعقل والابصار
لم تفتها نضارة الازهار
باهرات لكتبا من حجار
خالدات الغد والابكار
بصنوف النجوم والانوار
ويروع السكوت كالتزار
باديات الانياب غير ضواري
وبالحاظها سيول شرار
كسل آن روائع السزوار
دق حتى كأنها في انتشار
ما تحج القلوب في الانظار

اهل " فينقيا " سلام عليكم
لكم الارض خالد بن عليها
خضتم البحر يم كان عصيا
وركبتم منه جوادا حرونا
ان تمادي عدوا بهم كبحوه
واذا ما طغى بهم اوشكوا ان
في صعب تخليد ذكر على الار
شيدوها للشمس دار صلاة
هم دعاة الفلاح في ذلك العصر واهل العمران في الامصار
نحتوا الراسيات تحت صخور
واجادوا الدمى فجاز عليهم
سجدوا للذي هم صنعوه
بعده هذا ، اغاية فترجى

يوم تنفى بقية الادهار
بعظيم الاعمال والآثار
لم يسخر لقوة من بخار
قلقا بالمرس المسفوار
واقالوه ان كبا من عثار
ياخذوا لاعبين بالاتمار
ضلمن خلدوه فوق البحار
واتم " الرومان " حلى الدار
هم دعاة الفلاح في ذلك العصر واهل العمران في الامصار
وابانوا دقائق الافكار
انها الامرات في الاقدار
سجدات الاجلال والاكبار
لتمام ، ام مطمع في اقتخار ؟

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

نظرت " هند " حسنهن فثارت ،
كل هذى الدمى التي عبدها

انت ابهى يا هند من ان تغارى
لك يا ربة الجمال جوارى

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

الاهرام

على اثر زيارة لاهرام سقارة

شاد فاعلى ، وبنى فوطدا
مستعبد امته في يومه
انى ارى عد الرمال ههنا
صفر الوجوه ناديا جباهم
محنية ظهورهم ، خرس الخطى
مجتمعين ابحرا ، منفوعين انهرا ،
اكل هذى الانفس الهلكى غدا
لا للعلى ، ولا له ، بل للعدى
مستعبد بنيه للعداى غدا
خلائقا تكثران تعددا
كالكلاب يابس يعلوه الندى
كالنمل دب مستكينا مخلدا
منحدريين صعدا
تبني لفان جدثا مخلدا ؟

+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*

يا ايها الموتى الم يسمعكم
قوموا انظروا السوقة فيما حولكم
قوموا انظروا العدو في دياركم
قوموا انظروا اجسادكم معروضة
بعث به يسألكم حساب ما
لم يغنكم منه البناء عاليا
وكان يغنيكم جميل الذكر لو
اخسطا من توهم القبر له
صوت العنادى صاعدا مرردا ؟
تدوس هامات الملوك همدا
يحكم فيها مستبدا ايـدا
في مشهد لمن يرم المشهدا
قدمتم من راح منا واغتدى
والارض نهبا والملوك اعيسدا
خفضتم اللحد وشدتم بالهدى
حرزا يقيه بالردى من الردى

+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*+*

مقتل بزرجمهر

اشتهر كسرى بالعدل وكان بلا نزاع عدل ما يكون الملك المطلق اليد في احكام
بلادهم . فان كان ما وصفناه في هذه القصيدة احدى جنايات مثله في العادلسين فما
حال الملوك الظالمين ؟

سجدوا لكسرى اذ بدا اجلالا	كسجودهم للشمس ان تتللا لا
يا امة الفرس العريفة في العلى	ماذا احال بك الاسود سخالا ؟
كنتم كبارا في الحروب اعزة	واليوم بتم صاغرين ضالا لا
عباد "كسرى" ما نحيه نفوسكم	ورقابكم والعرض والامسوالا
تستقبلون نعاله بوجوهكم	وتعفرون اذلة او كالا
التبر "كسرى" وحده في فارس	ويعد امة فارس ارنا لا
نسر العيال عليهم واعقهم	لهم ويزعمهم عليه عيالا
ان يؤتهم فضلا يمن وان يرم	نارا بيدهم بالعد وقتالا
وانا قضى يوما قضا عباد لا	ضرب الانام بعدله الامثالا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

يا يم قتل بزرجمهر" وقد اتوا	فيه يلبون النداء عجالا
متألمين ليشهدوا موت السدى	احيي البلاد عدالة ونوالا
يبدون بشرا والنفوس كظيمة	يجفلن بين ضلوعهم اجفالا
تجلوا سرتهم بروق مسرة	وقلوبهم تدمى بهن نصالا
وانا سمعت صياحهم ودويهم	لم تدره فرحا ولا اعوالا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

وسيلوح " كسرى " مشرفا من قصره
شبهحا " لارموز " العظيم مشلا
يزهوبه العرش الرفيع كأنه
وكان شرفته مقام عبادة
وكان لؤلؤة بقاءه سيفه

XX

ما كان " كسرى " اذ طغى في قومه
هم حكموه فاستبد تحكما
والجهل داه قد تقادم عهد
لولا الجهالة لم يكونوا كلهم
لكمن خفض الاكثرين جناحهم
واذا رايت الموح يسفل بعضه
نقص لفطرة كل حيي لانه

XX

واذا استوى كسرى واجلس دونه
صعدت اليه من الجماعة صيحة
واذا الوزير بزرجمهر يسوقه
وتروح حولهما الجموع وتختدى
سخط المليك عليه اشر نصيحة
" ابزرجمهر " حكيم فارس والورى
" كسرى " اتبغى كل فاشم
وتدق في موى الراعية عنقه
اين التفرد من مشورة صادق
ان تستطع فاشرب من الدم خمرة

قواده البسلا والاقيا لا
كادت تنزل قصره زلزالا
جلاده متهاديا مختالا
كالموج وهو مدافع يتتالى
فاقتص منه غواية وضلا لا
يطأ السجن ويحمل الاغلا ؟
حيا وتردى العادل المنفلا
ليموت موت المجرمين ماذا لا
والحكم اعدل ما يكون جدا لا
واجعل جماجم عابديك نعلا لا

وانذبح ودمروا استبح اعراضهم
فلانت "كسرى" ما ترى تحريمه
وليذكرن الدهر عدلك باهرا
لو كان في تلك النعاج مقام
لكن ارادت ما تريد مطيعة
واملا بلادهم اسي ونكالا
كان الحرام وما تحل حلالا
ولتحمدن خلائقا وفاعالا
لك ولم تجي ما جئت استفعالا
وتناولت منك الاذى افضالا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

ناداهم الجلال - هل من شافع
وادار "كسرى" في الجماعة طرفه
تسبي محاسنها القلوب وتنثني
بنت الوزير اتت لتشهد قتله
تفرى الصفوف خفية منظورة
باد محياها ، فاين قناعها ؟
لا عار عندهم كذلع نسائهم
"لبزرجمهر" ؟ فقال كل = لا . لا .
فراى فتاة كالصباح جمالا
عنها عيون الناظرين كلالا
وترى السفاه من الرشاد مدالا
فرى السفينة للحياب جبالا
وعلام شاة ان يزول فزالا ؟
استارهن ، ولو - فعلن ثكالي

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

فاشار "كسرى" ان يرى في امرها .
مولاي يعجب كيف لم تتقنمي .
انظر وقد قتل الحكيم ، فهل ترى
فارجع الى الملك العظيم وقل له =
وبقيت وحدك بعده رجلا فسد
ما كانت الحسناء ترفع سترها
فمضى الرسول الى الفتاة وقال =
قالت له = اتعجبا وسؤالا ؟
الا رسوما حوله وظلالا ؟
مات النصيح وعشت انعم بالا
وارع النساء ودير الاطفالا
لوان في هذى الجموع رجالا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

اننى اقمت على التعللة بالمنى
ان يشف هذا الجسم طيب هوائها
او يمك الخوبا حسن مقامها
عبث طوافي في البلاد وعلسة
متفرد بصبايتي ، متفرد
شاك الى البحر اضطراب خواطري
تاو على صخر اصم وليت لي
ينتابها موج كموج مكارهسي
والبحر خفاق الجوانب ضائق
تغشى البرية كدرة وكأنها
والافق معتكر قريح جفنه
يا للغروب وما به من عبرة
اولين نزعا للنهار وصرعة
اوليس طمسا لليقين ومبعثا
اوليس محوا للوجود الى مدى
حتى يكون النور تجديدا لها
في غربة قالوا = تكون دوائسي
ايطف النيران طيب هواه ؟
هل مسكة في البعد للحوبا ؟
في علة منفاى لا ستشفا
بكآبتي ، متفرد بعنائسي
فيجيني برياحه الهوجاء
قلبا كهذى الصخرة الصماء
ويفتها كالسقم في اعضائسي
كعدا كصدري ساعة الامساء
صعدت الى عيني من احشائسي
يغضي على الغمرات والاقذا
للمستهام ! وعبرة للسرائي !
للمسربين ماتم الاضواء ؟
للسك بين غلائل الظلما ؟
وابادة لمعالم الاشياء ؟
ويكون شبه البعث عود ذكاء

ولقد ذكرتك والنهار مودع
وخواطري تبد وتجاه نواظري
والدمع من جفني يسيل مشعشعا
والشمس في شفق يسيل نضارة
مرت خلال غمامتين تحذرا
فكان اخر دمعة للكسون قد
وكانني آنست يومي زائلا

والقلب بين مهابة ورجاء
كلمى كدامية السحاب ازائي
بسنى الشعاع الغارب المتراي
فوق العقيق على ذرى سوداء
وتقطرت كالدمعة الحمراء
مزجت بأخر ادمعي لرنائي
فأريت في المرأة كيف مسائي



فتاة الجبل الاسود
في حادثة جرت قبيل استقلال ذلك الجبل

طغت امة الجبل الاسود على حكم فاتحها الايد
وهبت منيخات اطوادها نواشز كالابل الشرر
وابلى النساء بلا الرجاء ل لدى كل معتوك اريد
نساء لدان القدود لـها خدود كزهر الرياض الندى
تنظم مرحسناها جنة على ذلك الجبل الاجرد

××××××××××××××××××

ويوم كان شعاع الصبيل ح كساه مطارف من عسجد
تفرقت الترك فيه عصا ثب كل فريق على مرصد
يسدون كل شعاب الجبا ل على النازلين اوالصعد
اسود تراقب امثالها ولا يلتقون على موعد
وكان عداهم على بؤسهم وطول جهادهم المجهد
يوافونهم بغتات اللصو ص ويومون بالنار والجلمد
ويفترون تجاه الصفو ف ويجتمعون على المنرد
ويمتنعون بكل خفي عصى على امهر الرود
واى رأى شاردا يقتنصه واى رأى واردا يــــمطد
ويلتقون جناح الخميس اذا العون اعبي على المنجد
منامهم جايمين وقونفا ولا يهجعون على مرقــــد
وما منهم للعدى مرشد سوى غادر ساء من مرشد

اذالم يقدم الى مهلسك
ويعتسف الترك في كل صو
اضلّ بحيلته المهتدي
بفهذا يروح وذا يغتدي

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

وما الترك الا شيوخ الحرو
اذا القحوها الدماء فلا
سواء على المجد ايّا تكن
ولكنّ قوما يذودون عن
وتعصمهم ثلّمخات الجبا
ويدفعهم حبا ووطنهم
لوا الموت مدّ اليهم يدا
ب ومرتضموها من المولد
نتاج سوى الفخر والسوء د
عواقب اقدامهم تمجسد
حقيقتهم من يد المعتدي
ل وكل مضيق بها موصد
ويجمعهم شرف المقصد
لردوه عنهم كليل اليد

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

وكان من الترك جمع القليل على رأس منحدر اصلد
كثير الثلم كأنّ الفتي
وقد نصبوا فوقه مدفععا
وحفوا كاشبال ليك به
نفاجأهم هابط كالقضا
فتى كالصباح باشراقه
يدل سناه وسيميا وه
ترد سواطع انوار ه
اقب الترائب غض الروا
لهيب الحروب على وجنتيه والنقع في شعره الاسود
اذا زلّ يهوى على مجيرد
يهز السراسخ ان يوعد
وهم في دعاب وهم في د
في شكل غض الصبي امر د
له لفته الرشاء الافيد
على شرف الجاه والمحند
سليم النواظر كالارمد
دف يختال عرغن اميد

وفي محجريه بريق السيو
فأكبر كلهم أنسفة
وظنوه مستنفرًا هاربا
ولم يحسبوا أن ذاجرة
تبين هلكا فلم يخشسه
فأنفخ نار سدا سيه
وضارب بالسيف يمى ويسرى فأين يصب مغمدا - يغمدا
سقى الصخر من دمهم فارتوى
فما لبثوا ن احاطوا به
ولولا اتقاء الخيانة فيه لكان الالدي له يفتدى
فلما احتواه مقر الامير مقودا وما هو بالقصيد
اشارة وما كاد يرنو اليه ، بأن يقتلوه غداة الغد
فأقصى الفتى عنه حرأسه
وابرز نهدي فتاة كسعا
كحتي لجين بقفلى عقيق وكزوين في رصد مرصد
نكبر مما رآه الامير وهلل اشهاد ذاك الندي
وراعهم ذاك التوا ما
ووثبها عندما اطلقا
كوثب صغار المها الظامنا
ن وطوقا هما من دم الاكبد
بعزم الى ظاهر المجسد
ت نفرن خفا فالى مورد

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وارخت ضفائرها فارتومت
تحيط دجاها بشمس عسرا
الى منكبيها من المعقد
ها سقام فحالت الى فرقد

وقالت = امهجة انثى تفي
تفانوا فما خاس نبي وقعة
يرى العز في نصر سلطانه
ومن خلق الترك ان يورد وا
فدونكم قتلة حلت
بثارات صرعاكم الهمد ؟
فتى من مسود ولا سيد
والا فني موت مستشهد
سيوفهم مهج الختود
تدى من دمائكم ما تدى

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

فاصغى الامير الى قولها
واعظم نفس الفتاة وبأ
وحسنا بمشركة داعيا
ابى عزة قتل انثى تـذو
نقال = انقلوها الى مأمن
لتعلم انما باخلاقنا
فان اخرجت قال للما كتيبن وهم
لها الله نبي الغيد من غادة !
اتهلك شعبا غزت داره
خليق بنا ان نود القلى
فما بلد تغديه النما
ولم يستفز ولم يحسد
سا بها في الصناديد لم يعهد
الى الشرك من يره يحسد
د زياد المدافع لا المعتدى
واوصوا بها نطس العتود
ننزّه عن تهمة الحسد
وفي الصيد من بطل اصيد !
ثقال الجيوش فلم يخسد
ودادا ومن يصطنع يسود د
كهذا الغداء بمستعبد

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

رثيًّا

للمغفور له

الوزير الفارس الشاعر محمود باثنا سامي البارودي

مصائبك حثيا عرا جعفرًا وخطبك ميتا عرا قيصرًا
رزئناك لم يغن منك البيبا ن ولم يعصم الجاه ان تقبرا
وهذي النهاية عقيب النهي وذاك الثراء لهذا الثرى
وغياية مجدك في العالمين اذا عرفوا الفضل ان تشكرا
وأخر باسك ان يعتدى عليك دفينًا وان يفترى
ايهتك عنها قميص المـرو ءة تحت البلى منع ان تسترا ؟
وتتوى العروءة في دارهم وترضى العروءة ان تذكر ا ؟
كذا انكشف الدهر للناس فيك عن قاهر عزان يتسهرها
حلیم تراكا باقسباله ضروب دراكا متى ادبرا
لامر صفا لك حين صفا وكدر وردك ان كدر ا
يقول باحدائه الولد عظاما ت لمن هم بالزهو= اطرق كرى

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

حياك زمانا بجاه الملوك ك ويطش الاساطين مستوزرا
وفخر الغزاة قروم السرا يا وفكر الهداة نجوم السرى
وعزم يكون على امسة قنما وفي امة نيترًا
فكنت كما تبغسي عزة وكنت كما ترتضى مظهرًا
وكنت معا فارسا شاعرا وكنت معا ند سا قسورا
جميع المزايا فما للينيا ن وما للغيك وما للقري ↑ !
نظيرك مبتكرا مبدعًا شها با سنيا ندى مطرا

نظمت المعالي نظم المعاني
وطعن السنان كنفث اليراع
وضم الجيوش كنفث القريش
وسهل القتال كطرس بسسه
بنقط الجماعم اعجبا مه
وتفويفه بنعمال الجييا
فيا غا زيا ذاك اعجازه
اتلك من الكلم التذاكييا
شقاق آياتك الناد ييا
ام الصافيات شواني الورا
ام الجاليات بين لنا
ام المطربات يشنننا
ام المرسلات هدى لنا
فهل كان افرس منك فنتي ؟
كلا المفخرين يراعا وسينا
فتاج عصاك وتاج عالا

نفتح الكلام كفتح القري
وكلهما بالنهس حبرا
وتقسيمه اشطرا اشطرا
يسطر باسك ما سطرنا
واهماله جويه مقننا
د وتدبيجه بدم احمرنا
ويا ناظما ذاك ما صورنا
ت تسيل النفوس بها انهرا ؟
ت رحيقا من الانس او كوشرا ؟
م بما تحتها من زلال جرى ؟
من الخيب كل ضمير سري ؟
بشد والهزار وتمد بكرا
م حقائق مودعة جوهرنا
وهل كان منك فتى اشعرنا ؟
دعا تاجه لك مستأثرا
ك وكان الاحق بان يوءثرا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

فلما رقيت الى المنتهيس
رماك الزمان باحداثه
ابان المحبين وآل عنك
واسكت انراسك الماهلات
واخرس من قال = لله انست ؟
وسكن روع الفلا مجفلات

وكدت تجاوز ما قد را
مجيشة فانبرت وانسبوي
واقصى الموالي والعسكرا
واصمت صمصامك الابسترا
وابكم حولك من كبسترا
وامن شامخها اصعرا

ونفس كرب الظبا لا فتات
والوى عليك فادمى واصلى
وتوح ايلها اصورا
وصال وطل وما اقصرا

xxxxxxxxxxxxxxxx

رمى بك في السجن من حالق
واشخن جرحا فاقصاك عن
اليف الجناة طريح العرا
ثرى مصر مجتبا مزدري
وزادك ضيما فحجب عن
عيونك ضوء الضحى مسفرا
وجاز النكال فاردى ابنتيك كما
ولكن ابى لك ذاك الابسا
وتدمية الجفن مستعبرا ؟
وتهوين نفس لدى خصمها
بلا طائل غير ان تصفرا ؟
فلم تنتقصك الرزايا ولكن
اعادتك محنتها اكبرا
ورد بياض المشيب ثنا
عك اجلى بها وقد طهرا
فما كان سجنك الا قرارا
وقد تعب الجد ان يسهرا
ولا النفى الا خلا اعدت
به زمن الادب الازهرا
ولا الشكل الا لتأسى اسما
ك وتبكي بكا ليوث الشرى
ولا الغض عما تراه العيسو
ن الا وقد ساء ان ينظرا
فلا بأس بالطرف ان يحسرا
اذا وسع الكون فكر امرى
على الشمس ان تهدى المبصرين
وليس على الشمس ان تبصرا

xxxxxxxxxxxxxxxx

نيا جسم " محمود " بت في سكون
ويا فكرة كم نشدت العلى
ويا عين " سام " اهني بالكرى
بلغت مداها فماذا ترى ؟
اطل على هذه الكائنا
ت من حيث انت باسمى الذرى
انتظر غير فضا رحيب
تحاكي النجوم به العشيرا ؟

وتسمع غير شبيهه الجفيف
لما اصطك منها وما كورا ؟
فقل صامتا واشر ما اتتا
لمن تاه في الارض واستكبرا
علام تباذخ هذى الجبال ؟
وفيم تشامخ هذا السورى ؟



حق الوطن

وحق الاخوان

هي المراثية التي انشدها الناظم على ضريح
المغفور له مصطفى كامل باشا في حفلة الاربعين

اعلى مكانتك الاله وشرنا
اليم فزت باجر ما اسلفته
فانعم بطيب جواره يا مصطفى
خيرا، وكل واجد ما اسلفنا
وجزيت من فاني الوجود بخالد
ومن الاسى الماضي بعقيل الصفا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

اعظم بيومك في الزمان ومن له
يوم الملائكة الكرام تنزلوا
بك واصفا ذاك الجلال فيوصفا ؟ !
حانين حولك في السرب وعكفا
سريا يجوز بك الدراري، موجفا
والارض مائدة عليك تأسفا
يذرى الرجال به للمدام نرفنا
ساروا بطيف ناحل او انحفا
فلك يظلمه اللواء، مرفنا
آثاره من رفعة لا تقتفى
ملق على الابصار سترا اغدنا
خطب الان بروعه صم الصفا
من دمهم ان خانهم فتكفنا
بعد الفقيد فتى بهم فتوقنا
هو خير من والى واوفى من ونى
سعت الخوادر حاسرات والاسى
ولئن سفرن ولم يخلن فانه
فزع الشباب الى الشيوخ بثأرهم
ومن الغضاضة ان دعادي العلى
جزع النصارى واليهود لمسلم

بكوا المرجى في خلاف عارض
واشد رزء المسلمين وحسز نهم
من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم
ليزيل ذاك العارض المتكشفا
لما مضيت ولست فيهم مخلفا
يعلى لهم صوتا وينشر مصحفا ؟



من يبىء الاسلام من تهم العدى
بيدى لأعين جاهليه فضله
ويشو من غضب الغضاب لمجده
لكن من اقلام صرحك حولسه
ولعل حرا لا يدين به انبرى
قف ايها الناعي عليه جموده
ان يعتر الشمس الكسوف هنيهة
وهل الكسوف سوى تعرّض حائل
لم تنزل الا اديان الاها ديا
بشعار حيّ على الفلاح وما بها
ويكل امر موجب اصلا حهم
قد كان للاسلام عهد با هسر
ملاء البلاد انارة وحضارة
فالخير كل الخير فيه مقبلا
يدعو البقاء الى التكاثر بالقوى
والخلق جسم ان الم بيعضه

ويرد نقد الناقدين مزيفا؟
ويؤيل ما يلد التناكر من جفا
هما تعيد له المقام الاشرفا
سما تهز لكل خطب معظفا
ليذود عنه خصمه المتعسفا
فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا
ايكون منقصة لها ان تكسفا؟
يثني اشعتها الى ان يكسفا؟
للعالمين ورا دعا ومثقفا
ان قصر الاقوام عنه ناخلفا
ان خالفوه فما استحال ولا انتفى
لنا به هذا الرقي مسلفا
ومنى الساحة عوده مستانفا
والشركل الشران يتخلفا
بين العناصر اويهيين ويضعفا
سقم ولم يتلاف عم واتلجفا



" مصر " العزيزة قد ذكوت لك اسمها
وكأنني بالقبر اصبح منبرا
" مصر " التي لم تحظ من نجباؤها
" مصر " التي لم تبغ الا نفسها
" مصر " التي فسلت يداك جراحها
" مصر " التي كاذحت لذّ عاداتها
" مصر " التي سقت الجيوش منا قبا
" مصر " التي احببتها الحب الذي
حتى مضيت كما ابتغيت موء لسفا
امنية اعيت خصالك دونها
وهي التي لو قسمت لنا بها

واري ترابك من حين قد هفا
وكأنني بك موشك ان تهتفا
باعز منك ، ولم تعزبا حصفا
في الحاليتين ملاينا ومعنفا
بصبيب دمك جاريا مستنزفا
متصدرا لرماتها مستهدفا
ومن لتكفيها المغير المجحفا
بلغ الفداء نزاهة وتعنفا
من شملها ما لم يكن ليولفا
لو لم يضافرها رداك فيسعفا
شعب يعز بنفسه مستقصفا



من كان اجراً منك يوم كريبه
من كان اقدر منك تصريفا لما
من كان اطهر منك خلقا جا معا
من كان اسمح منك مناعا لما
من كان اصدق منك لا متنصلا

بالحق ، لا شكسا ولا متصلفا ؟
يعني الحكيم مدبرا ومصرفنا ؟
فيه مهيب الطبع والمستظرفنا ؟
تهوى ومعطاء لغيرك مسرفنا ؟
ما تقول ولا تعاهد مخلفنا ؟



يا من تعى تلك الفضائل والعلی
لا لا وحقك يا شهيد وفائه
ما انت بالرجل الذي يمسي وقد

اغدت معالمهن قاعا صنفا ؟
ورجائه كذب النعى وارجفا
ملي الوجود به ويصبح قد عفا

انى اراك ولا تزال كعهدنا
ثابر على تلك العزائم ذائدا
اصدر صحائفك التي تحيي بها
تجرى بها الالفهار وهي دوا فسق
وتكاد اسطرها تهب نوا طقا
فاذا حنوت على الحمى متحبا
وكأنما الالفاظ مما خفت
تستام من اثوابها اروا حها
قم للخطابة في المجامع وامتك
اعد القديم من الممالك والقوى
شدد عزائمنا وقاتل ضعفنا
ما هذه الآيات يرمي لفظها
ما ذلك الترضيع ليس مرصعا؟
وحي باهجية اذا ما اطلقت
تحيي حرارتها ويهدى نورها
تالله ما انت الخطيب وانما
عن نطقه تقع الصروف مواعظا
بك في جهادك او اشد واشعفا
عن " مصر " تضرب في البلاد مطونا
نضو الطريق وتدفع المتخلفنا
هما وتوشك ان تطم فتجرنا
ويكاد يعزف كل حرف معزنا
فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
نقش المداد رسومها وتخفنا
وتعاف تحلية لثلا تكثنا
تلك النفوس مروعا ومسنفا
ذكرى وعرفنا الحياة لنعرفنا
حتى نبئت ولا نرى متخوفنا
شرا، وتهوى الشهب فيها احرفنا؟
ما ذلك التفويف ليس مفوقنا؟
هبطت رواسب عنه ، والمغزى طفا
متاهل الاشراق او متخطنا
وقف القضاء من المنصة موقنا
وكأمره امر الزمان مصرنا

يا حبذا لو كل ذلك لم ينزل
والان نحن لدى ثراك نحججه
نثني، وهل يوفي ثناؤك حقته ؟
ماذا يعيذك من شبابك نظمنا
ويعيضمك وكنت جوهرة الحسى
يا اخلص الخلصاء ابكي بعده
هذا مثالك لاح يوعانا وقد
جاد الهلال برسمة تاجا له
لكنه حلم مضى مستطرفا
متلهتبين تشوقا وتنسوتا
وبأى الفاظ المحامد يكتفى ؟
نيك الرثاء منسقا ومصفا ؟
صوغ الكلام مرصعا ومزخرفا ؟
كبكاء " مصر " تحرقا وتلهفنا !
كشف الجوى عنه الحجاب فاشرفا
وكسته نا سجة الظهارة مطرفنا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

يا من رماء عداته بتسطرف
كهواك للاوطان فليكن الهوى
يجرى على قدر المطالب نا ميا
انشأت من " مصر " الشتات بنضله
احدثت فيها امة اندى يسدا
عرفت اهليها حقيقة قدرهم
نفحات روحك خامرت ارواحهم
حصن اشم تساندت اجزاه
فارقد رقادك ان ريك قد محسا
حققت آمال الهدى متطرفنا
لا مفترى فيه ولا متكلسنا
ويجل في مجراه عن ان يصدنا
" مصر " الفتاة حمى يعزنا
للصالحات وبالعظام اكلنا
وكفاهم من قدرهم ان يعرنا
فهم مرامك ساء دهر اوصنا
علماء وامنة النهى ان ينسنا
بك ذنب " مصر " كما رجوت وقد عفا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

مقاطعة

نظمت لما بدىء اضطهاد الاحرار وسلط قانون المطبوعات على الافكار

واقتلوا احرارها حرًا نحرًا	شردوا اخيارها بحرا وبرًا
اخر الدهر ويبقى الشر شرًا	انما الصالح يبقى صالحًا
يمنع الايدي ان تنقش صخرًا	كسروا الاقلام هل تكسيرها
يمنع الاعين ان تنظر شزرا	قطعوا الايدي هل تقطيعها
يمنع الانفاس ان تصعد زفرا	اطفئوا الاعين هل اطفأوها
ربه منجنا منكم فكلوا	اقدموا الانفاس هذا جرمكم

الاسد الباكي

- اصل العنوان "ساعة ياس" ولكن اجماع القراء بعد نشر القصيدة اطلق عليها اسم "الاسد الباكي".
قالها الشاعر ، وقد اعتكف في مصر الجديدة حين تأسيسها واسمها آنئذ "عين شمس" ، وبث بها
حزنا دويا نان قد انتابه .

دعوتك استثنى اليك فواننى على غير علم منك انك لى آسى
نان ترنى والحزن ملء جوانحي اداريه فليقررك بشرى وايناسى
وكم في فوادى من جراح تخينة يحجبها برداى عن اعين الناس
الى "عين شمس" قد لجأت وحاجتي طلاقة جولم يدنس بارجاس
اسرى همومى بانفرادى آمنا مكايده واش او نعائم دسام
يخالون انى في متاع حبالها واى متاع في جوار لد يماس
ارى روضة لسكنها روضة الردى واصغى وما في مسمعى غير وسواس
وانظر من حولي مشاة وركبا على مزجيات من دخان وانفاس
كأنى في رؤيا ييزف الاس بها طوائف جن في مواكب اغراس

+ + +

وما "عين شمس" غير ما ارتجل النى بقفر جد يب من مبان واغراس
بنوها فاعلوها وما هو غير ان جرت احرف مرسومة فوق قرطاس
بذات ارم ذات العمام كأنها من القاع شدتها النجوم بامراس
كفئها ليال نزرة فتجددت ثوابت اركان رواسخ آساس
وفالط فيها البعث ما خالط الحلى بها من ضروب محدثات واجناس

+ + +

هناك ابيح الشجون نفسا منيعة
يعرب الاخوان في خطراتهم
أهمن اليهم ما اهش تلتظنا
ذروني وانجوا من شظايا تصيبكم
فاتي على ما نلاني من مساءة
ذروني لا يملك وجيفي قلوبكم
فتالله لولا ذلك الطيف والهوى
ذروني احسن الخمر غير منفر
فرتت كاس عن شغامي رد دوما
ذروني انكس هامتي غير متق
فبي حرة بكر ضلوعي سياجها
اعيد اليها كل حين نواظري

على الضيم منيما يفلز الضيم من باسي
اولئك عوادى ولبسوا بجلاسي
وفي النفس ما فيها من الحزن والياس
انذا لم اطرق صبورا فاطلقت انفاسي
لأرحم صحبي ان يلم بضم باسي
انذا مر ذاك الطيف واد كر الناسي
لمسعد لم يملك الدهر اتعاسي
عن الورد منيما نفرة الطائر الحاسي
وقد قتل الدمع السلافة في الكاس
ملازمة رواد وشبهسة جواس
أراش عليها سيمه معدت قاس
واخفن من عطف على جرحها راسي

+ + +

يكاد يهت المجد مالا ابته
أنا الألم الساجي لبعده مزافري
انا الاسد الباكي ، انا جبل الاسي
فيا منتضى حبي الى منتضى المنى
دعوتك استشفني اليك فوافني
من السقم العواد والسأم الراسي
انا الامل الداجي ولم يخب نبراسي
انا الرمس يمضي داميا فوق ارماس
ونعمة فكري فوق شقوة احساسي
على غير علم منك اني لى آسي

من غريب

الى عصفورة مختربة

نظمت في جنيف بقرب تماثيل جان جات روسو . وقد رأى الشاعر على شجرة طائرا
يشبه ان يكون مصرية .

هي خطورة فكر للناظم الذي يرسل مثلها في موعد من كل عام تحية الى فريد عزيز
في عالم الغيب . وقد جعل مدارها في هذه القصيدة تعلق عصفورة اشتبهت عليه ببيان تكسون
مجلوبتمن مصر للاتجار او قاطعة من نواطع الاطيوار .

طيبته في مسمعي

يا من شكت العن مسى

لجراحة المتوجع

شكواك الطف بلمس

بكل قلب مولع

ما أعلق الشدو والرخيم

+ + +

بك بين هذى الأرح ؟

بنت " الكنانة " ما رمى

ذاك الأمان الأمان ؟

فيم اغتربت وكنت في

جلبا بنير تطوع ؟

أحملت محمل سلعة جلبا بنير

الى الفضاء الأوسع

ففررت من قفص الكفيل

لسريك المستمتع

وبودك الحدود القريب

سف وملجأ المتفرج

في " مصر " مصرخة اللبيب

"مصر" السّماء الصّحو، "مصر" -م- الدّو، "مصر" المشبح
"مصر" التي ماريح سا كذا بريح زفزا
-ميشالمراعى والندى للمرتوى والمرعى
حيث السواتى الحانيا ت على الطيور الرّضح
حيث الحرارة ما توا ل ربيها يتروع؟

+ + +

أم انت من تلك الجوا لا تعرفين من التّوما
تشبين من مترنج ينداية صحت على
لى في الفصول الاربح واثوب فكر في التّوجه
ن سوى المكان المرع وضاء رأى عن د لا
ابدا الى مترنج لة ابرة او مبيع
طلب الاحب الانفع ل عند خير مؤرّ
واختيار المنجع تخشين سوء الموقع
م

+ * +

عجب لذي قلب يحى الشرب ما في الشرب من

اشتاتة في مجمع		تنضم حين جلالة
م للزحيل المزج		من غير مباد قد
سرب السفين المقلح		فانذا علا ازرى على
تلگوء المقلح وتضعض	م -	آلات آلاف بندير
وبلا ازير تخلع		وبلا هزير تثلقل
م محطلم ومصدع		وبلا اصطدام في الزحاح
كالعارض المتشبع		ان تلتئم فمرورها
ش بقادة وبتبع		او تغترق فوسى الجيو
لف في الدريق المشرع		كل يسير ولا يخاف
والراى غير موزع		كل يجارى رايه
زمام فلك طيع		كل كرتان يدير

+ + +

الوادى الى الوادى ارجصى	م -	باليمن ياغريدة
فك رققات الادمع		انى لا اسمع في غنا
كشجى بحلق مودع		ويروعنى شجن به
في جمال ابرع	م	تلك البراعة ما استتعت

+ + +

ة معترق ومضلع جسم كحرق للحيا

الوانه يد مبدع	بغشاه ثوب د بجت
ر الاخضر المتجمع	المتن يزدهر ازدها
يزهى باحمر مشبه	والصدر فيما دونه
ر بحلية لهم تصنع	والجيد زين من النضا
موشم ومبجع	دع كل نقش في الخلال
بريشها المتنوع	ودع القوام تستقل
نظرا بها يتخفس	آيات خلق من يجل
سم الضخير الاضرح	اعظم بها في ذلك الج
ثمر هنالك مونغ	لولا الحراك لخيّل من
ر الطبع او يتطبع	حلوا الشوائب ان يجا
كالجوهر المتطلع	يرنو بفائضتى سنى
سدل البرقع	يسهو بغاشيتين تنسد لان
وجه حديد المقطع	متناول الخدين في
الظلام الأسفح	منقاره كقلامتين من

+ + +

نت لفدة المتنوع	اخت الشراوى الخضرحا
وعداك قيدي نانزى	بك نزعنى نحو الحمى
واستوفزى واستجمعى	لقى الوداع تأهبا
اند وثبت لتطلعى	لله وثبتك البديعة
كطابلا بكف مشعشع	حيث الفضى متساكب
حرض المرضع	والريح تحرض آخر التغمات

والذبح مباد الزوء
وتعطف الأفنان - (-
ر مشيح بالاذرع
شبه تفصف في اضلع

+ + +

خضت الضياء على غوا
تتصاعد بين وما الشها
يرى جناحك الميا
وتراخ رائحة النيا
ولشكفة الالوان حولك
مزقت استار السني
جم الخلايا في حوا
انزلت هولاء في قراء
انظرت عن كتب الی
هي وقعة في الجویب
هبت خلائفه علی
في اسد غاب تستطي
يجددن حريا كالکما
يكررن او يفررن
يرمين بالرجم الدقا
رب موجه المتدفع
بالمستطار باسرع
وي بالشعاع السطح
ر لوهجك المتفرع
كالنصال الثس
عن عالم متفتح
شى النور خاني الموضع
وفي الذرائر اجمع
ملاء هناك مرقع
ن هبائه المتلح
ذاك المخير المفزع
روني ذباب وقع
ة وكلا لرماة الرکم
بين تفرود وتجمع
ق وبالنجوم الظلح

+ + +

في المجال الاربع	تيني بفارتك السنية
ح وما مفاخر " تبج " ؟	ماشان " كسرى " في الفتو
بذاك المنوع	م لا مجد يبلغ مجدك الاسنى
تحير خصمك المتضعع	لا صفواروح من
يل ركنه المتزعزع	لا سلم ابلج من ثنا
في ان تراع ، نورعى	ام الاثير جمالنا
والامن بعد تفزع	وتتم آية حسننا
ببلائك المتوقع	فاننا مضيت ولم تصب
" تورع المتورع	بل جزك بالحسنى وسا
لك توبة المتسرع	ثابت الى فرح ، كذ
ساطع في مسطح	فسد يدها كخبازدر
لات البروق اللعج	والجو تملأه نسا

+ + +

مشتاق شطر المرح	سبرى وولى صدرك ال
وشرعت اعدب مشروء	حتى اذا ما جئته
رعلى ارتقاص الأفرع	وشدوت ماشا " السرو
لك في العراء مضيع	عوجى ببستان هـنا
والنور بادى المدمع	صفصافه متناوح
كالكنز في المستودع	لى في ثراه د فينة

تغنى الأزاهر قبرها
كانت مثالا للمحا
فتحولت لطفا الى
طيف يشف به البلى
فاذا السماء قراره
تولى له ان جئته
اتحسني هذا الثرى
هذا حزين من نوء
عدت الدواى جسمه
نمضى بأحزن ما يكو
ونوى الصريح اضرة
عن اعين المستطلع
سن في مثال اروع
طيف ارقى وابدع
عن رفعة وتمتع
والنجم بعض اليرمح
يا ايها هذا البلع
نبضان قلب موجع ؟
د محبك المتفجع
عن قرب هذا الضجع
ن اخو الأسي وباجزع
كنواك يوم المصرع

+ + +

يهد نعم الشفيعة انت لى
من لى بصوت مثل صو
ينهى الى تاوى الجنا
ان الذى ابكيه وهو
برعلى رغم الفرا
كم زرتني يقظة
يدهو الى تنزلا
عند الملايك ! ناشفى
تك مبلغ لتضرى ؟
ن فيمستجيب وقد دعى
من التعميم بعرتح
ق بعبداه المتخضع
والم بي في مبيج
عن عرشه المترقع

رجدا فحدث مطمعي	وكم التمسست لصوته
بحروضه المتقطع	قطع الغيوب وجائني
نادعيا لا يتمتع	بذا الوفاء وفاؤه
وصدى حنيني رجمي	بهتاف لوعتي اهتفي
بضميري المتسمع ا	حتى يجيب ، فأنصتي

حفلة لاعانة الطلبة الخرياء

في الازهر الشريف

شودها كبراء رجال الدولة وعلماءها وسراتها وأدباؤها بدار الاوبرا عام ١٩١٥

ناج ريحانها ولاح الخزام
كل ورد في غير "مصر" لغنا
ما لأعقابها وداع، ولكن
بلد من حباثة دعة الوا
فاد بالخير نيله فسقاء
رق فيه الشتاء حتى ليبدو
فردت صاداته فرحات
سقطت شمسها فما يتخشى
حبذا "مصر" في الربيع ربا
شمل السعد اهلبها وكفتم
ملى الخانقان قتلا وثكلا
لم يوعها هزيم رعد ولا ايما
تغنم العيش في رخاء وامن
ايها الناعمون ان تشكروا الله
باشروا الخير يدنع الشر عنكم
كل ضرب من الجميل جميل
وجلت عن حلقها الأكام
م وفي مصر ليس للورد عام
بواكيره سلام سلام
دى ومن كبرياءه "الاهرام"
وتراعى للزديان الضام
في ثناياه للربيع ابتسام
وتناست نواحيه من الحمام
نورها الثماني البيرج قمام
لا بضاهى المقام فيها مقام
ما كفت اصغياها الأيام
وحماها على الصروف حرام
ض برق ولم يضرها صدام
ويغول الشعوب موت زوام
كما ينبغى له لم تضاموا
انما الخير عصمة وسلام
غير ان العزيز فيه التمام

هل سوا في الفضل ما يتقضى
اعطاء به تربي نفوس
للندي موقع الندی نانا لم
رب سئل تقشع العارض المظلم
وكتيب سقاء من زاد سفر
أكمل الجود ما به كثر الصفة ني - م -
معه نفعه وما يستدام ؟
كحطام و ~~كحطام~~ به ترم عظام ؟
تصلح الارض فالجنى لا يرام
ل عنه كما يمر الجهم
رشح ماء ، نبش فيه الثمام
امة وقل الطغام

+ + +

طالب العلم اجدر الناس بالحسن م -
من يعاونه بالحطام يحقق
من يقلده نعمة يوم عسر
من يبدد عنه الغيا هب يطالغ
من يمهّد له السبيل يهيئ ثمرة
در في المجد در فتیان مجد
قد يمارون بالكلام ابا
فمن الحال ما تراه ، ومنها
وكمال الكرام ان يستشفوا
للنبيين معشر كلوهم
ما على العلم لا ولا طالبيه
هم امانتي كل شعبه ومنهم
هكذا تستغل احسانها الأقوا
لم تقم امة بسوقة جهل
انما ما ابتغى الصالح الانام
في غد قدر ما افاد الحطام
فعلي قومه له الانعام
كوكبا تمتدى به الاحلام
وانما بنا الظلم
كلهم نابه الفؤاد عصام
وبهم غير ما يبين الكلام
ما تحسن الظنون والافهام
من حجاب ما لا يبتث الكرام
والنبيون قصر ايتام
من نصير فضاضة او نام
يستعد الهداة والاعلام
م فيهم فتسعد الأقسام
انما الأمة الرجاء العظام

رثاء .

المرحم اسماعيل صبرى باشا .

شهب تبين فما تـأوب
أرايت في كـأس الطلى
هو ذاك في لـج الدجى
لا فرق بين كـيـرها
فكأنها حـب يـذوب
دررا وقد صعدت تصوب
طفو الدرارى والرسوب
وصغيرها فيما ينوب
كل الى أجل وعقبى
كل طالعة وقـوب

.....

اليوم نجم من نجم الشعر أدركتـه الغروب .

وثبت به في أوجه الـ
لقي الحقيقة شاعر
أوفى على عدن - وما
كم بات يشهدا وقد
يا خطب - اسماعيل صبرى
جزع الحى لنعيه وبكاه
أى صاحبى لقد قضى
فعرى قلا دتنا - وكا
انى لأذكر والأسى
عهدا به ضمت فـوا
اذ بعضنا من غير ما
وبغير قرين بيننا
الشعر ألفنا فما اختلف
والفن يأبى أن تفـرقه
مستشرف لا السلم
يضنى به الضو الهلا
لودام ذاك العهد . . . لكن هل ليم رض عقيب ؟

.....

- يا " مصر " قام العذر ان
وعلى فقيده كالذى
مات الأديب وانسه
مات المحامي عن ذمها
مات الأبي وتحت ليعن قوله الرأى الصليب .
مات الذى تدعوه دا عية الولاء فيستجيب .
مات الذى كان مشهد يذم ولا المغيب .
مات الذى ما كان في أخلاقه شىء يريب .
مات الذى منظومه لأولى النهى سحر خلوب .
الضارب الأمثال ليعن له بروعتها ضرب .
هل في الجديد كقوله المأثور والمعنى جليب .
آهان لوعرف الشباب وآه لوقدر المشيب .

.....

- شعر على الأيام يبر
وكأنما في أذن قسا
كل المعاني معجب
ناهيك بالألفاظ ممسكا
كالدركم في العقو
ديباجة كادق مسا
فيها حل جد القوا
آيات حسن كلها
في رقة انسمات بالعبيق الذي لها هبوب .
تستافها راد الضحى
في بهجة الزهرات با
فالحظ يشرب والنسدى
ويه معروداه الطروب .
رثه يغني عندليب .
ما شاء والمبنى الحد عجيب .
جود اللبى اللبيب .
د وللشعاع به وثوب .
نسجت شمال أو جنوب .
تن وشيها واش لعوب .
صفو وليس بها مشوب .
ويظلك الوادى الخصيب .
كرهن مدرار سكوب .
مشمولة والكم كوب .

.....

كسبيه الأخاذ بـــــــــــــــــ الألباب فليكن النسيب .
وكمدحه المدح الذي أبدا له ثوب قشيب .
وكوصفه الوصف الذي عن رؤية الراي ينوب .
يتناول الغرض البعيـــــــــــــــــد اذا البعيد هو القريب .
أو يبرز الخلق السوى فللحياة به دبيب .
كل يصادف من هواه عنده ما يستطيع .
فكأن ما تجرى خـــــــــــــــــوا طرء به تجرى القلوب .

.....

لله - صبرى - وهو للغمــــــــــــــــة التي اتوكت غضوب .
بالرفق " ينقد " ما يزيــــــــــــــــف المخطئون ولا " يعيب " .
في رأيه " اللغة البلا د - أجل هو الرأى المصيب .
يودى الفصيح من اللغات اذا غفا عنه الرقيب .

.....

أفديك ، فارقت الحيا ة وغيرك الجزع الكتيب .
جارت عليك فضا ق غفي سعة بها الذرع الرحيب .
تلك الحياة وما بها الا لأهل الخبث طيب .
كم بت في سهد وأنــــــــــــــــت لغاية شقت طلب .
جواب آفاق المعــــــــــــــــا رف والأسى فيما تجوب .
حتى تحصل ما تحصــــــــــــــــل من فنون لا تثيب .
وجزا كدك ذلك الـــــــــــــــــدا الدوى به تثوب .

.....

الكاتب العربي مهمــــــــــــــــأ يدهه فله الذهوب .
ان لم يصب مالا وكيــــــــــــــــف وتلك بيئته يصيب .
فالفضل منقصة لــــــــــــــــه وخلاله الحسنى عيوب .
ويعر بالعيش الكريم ومــــــــــــــــا له منه نصيب .
فاذا قنى مالا كمــــــــــــــــا يقنى لعقباة الحسيب .
حذر المهانات التــــــــــــــــى متقدموه بها أصيبوا .
أفنى بمجهوديه قوــــــــــــــــة وأرداه اللغوب .

.....

- عدد ورا ليك وأنت ميسر — تذاك بأسهم الغريب .
ولقد تراهم ساخرا — منهم وأجمعهم نخيب .
خالوا رداك أباحة — خابوا ومثلهم يخيب .

.....

- فانهب أبا الشعراء فخر — رك ليس ضائره الذهوب .
أما بنوك فعند ظ — ن النبيل أبرار ندوب .
نم عنهم ومقامك الع — الي وجانبك المهيب .
لك في النهى بعد النوى — شفق ولكن لا يخيب .
-

الشاعر

يوقع على وتره الأخير لحن الرضى
وسكينة النفس .

أخني عليه علوسني ما	ماذا يريد الشعر مني ؟
أيام من أدبي وفني	هل كان ما ذهبت به ال
لي لم توافق حسن ظني	أحسنت ظني والليبا
رجعت من سوق عرضت بضاعتي فيها بغبن	ورجعت من سوق عرضت بضاعتي فيها بغبن
أم كان ذنبي لا تسلي له	أفكان ذلك ذنبي
رفعت بعين العصر شأني	خمدت بي النار التي
هي شعلة كانت تثير قريحتي وتثير ذهني	هي شعلة كانت تثير قريحتي وتثير ذهني
أيام لي طرب وقلب في موقع السهم المرن	أيام لي طرب وقلب في موقع السهم المرن
ثم بعدها ، لاتندبني أ	لا تندبني للعظا
ليف الشباب ارفق بوهني	يا من يحلني تكا
عمروه من صحبي قدعني	زمني تولى والأولسى
دى وانقض عهد التغني	ولى الربيع وجف عو
وعدمت لذات التنفي	وعدمت لذات البروى
وادی المخیلة أو كآني	اني ختمت العيش في
من دائب يلقى وبينني ،	فاذا بدت لك همة
فعديره خوف التشبه بالرحى من غير طحن	فعديره خوف التشبه بالرحى من غير طحن
ويكد كد النحل وهو لغيرها تسعى وتجنني	ويكد كد النحل وهو لغيرها تسعى وتجنني
للآخرين وان عدتني	أرضى بأن تقضى مني
يسمو اليه بغير حزن	أخلي مكاني للذى
ولني وان يك تحت ضبني	ولقد أ هس لمن يطا
لتكفينا وتغنى	ان الحقيقة ، حين نبلغها ،
وفيها كل حسن	فيها الجلال بكل معناها ،
أنا نعد لها ونقني	تتشابه التركات في
أسماءنا منا ستغنى	فاذا تولينا فهل
ذهبت ، فما الأسماء تغني ؟	ان نبق والأرواح قد

- لولا لم يكن في الذكر لـ
- أعقاب نفع لم يشقني .
- أما الجزاء فاني أسـ
- توفيت منه فوق وزني .
- في الحاضر استسلفت ما
- سيقوله التالون عني .
-

فهرس العراجـع

١٧ - خفاجي عبد المنعم : مع الشعراء المعاصرين ، القاهرة المطبعة المنيرية (١٩٥٦)

١٨ - خوري ، رثيف : الطفلة ، منشورات دار الكشوف (١٩٤٩)

١٩ - الدرويش ، علي : الاشعار بحميد الاشعار ، (١٢٧٠) هـ .

٢٠ - الراقعي عبد الرحمن : شعراء وطنية مكتبة النهضة المصرية (١٩٥٤)

٢١ - " " " : مصطفى كامل ، الطبعة الاولى ، (١٩٣٩) مطبعة الشرق .

٢٢ - الزحلاوي ، حبيب : الشاعر خليل مطران ، الكتاب الذهبي (مطبعة الهلال) (١٩٤٨)

ص : ٢٥٧ - ٢٥٨

٢٣ - زيدان ، جرجي : تاريخ مصر الحديث (جزئين) الطبعة الثانية ، مطبعة الهلال (١٩١١)

٢٤ - الساعاتي ، محمود صفوت : ديوان الساعاتي ، مطبعة المعارف بمصر (١٩١١)

٢٥ - السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف : خليل مطران الرجل والشاعر ، مطبعة المقتطف والمقطم

(١٩٤٩)

٢٦ - سرقيس ، حنا : خليل مطران واخلاقه ، الكتاب الذهبي ص ٢٧١

٢٧ - السندوبي ، حسن : الشعراء الثلاثة ، شوقي مطران حافظ ، مطبعة المكتبة التجارية

القاهرة (١٩٢٢)

٢٨ - شكري ، عبد الرحمن : الرسالة م ٧٠ (١٩٣٩) عدد ٣٠٢

٢٩ - شللي بارسلي Shelley, Percy Bysahe - Complete poetical works.

Bost. Houghten
Mifflin, 1901

٣٠ - شهاب الدين ، محمد : الديوان ، (١٢٧٧) هـ . مصر

٣١ - شوقي ، احمد : الشعراء الثلاثة للسندوبي ، مطبعة المكتبة التجارية ، القاهرة (١٩٢٢)

٣٢ - " " : الشوقيات ، (اربعة اجزاء) مطبعة الاستقامة بالقاهرة (١٩٥٠ - ١٩٥٣)

٣٣ - شيبوب ، خليل : الكتاب الذهبي .

٣٤ - شيخو ، الاب لويس : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، مطبعة الآباء اليسوعيين

(١٩٣٦) بيروت

- ٣٥ - صبرى ، اسماعيل : ديوان اسماعيل صبرى ، نشر احمد الزين ، مطبعة التاليف والترجمة والنشر (١٩٣٨) القاهرة
- ٣٦ - صبرى ، محمد : اسماعيل صبرى ، (١٩٢٣) مصر
- ٣٧ - ضيف ، شوقي : شوقي شاعر العصر الحديث ، دار المعارف بمصر (١٩٥٣)
- ٣٨ - الطاهر ، احمد : حافظ ابراهيم ، معهد الدراسات العربية العالية (١٩٥٤)
- ٣٩ - طه ، حسين : حافظ وشوقي ، الطبعة الثانية ، (١٩٥٣) مكتبة الخانجي - بالقاهرة
- ٤٠ - عباس ، احسان : فن الشعر ، دار بيروت للطباعة والنشر (١٩٥٥)
- ٤١ - عبد المطلب ، محمد : ديوان عبد المطلب ، مطبعة الاعتماد
- ٤٢ - عبيد ، احمد : ذكرى الشعراء ، المكتبة العربية في دمشق
- ٤٣ - " " : مشاهير شعراء العصر ، المكتبة العربية في دمشق (١٩٢٢)
- ٤٤ - العريض ، ابراهيم : الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث ، منشورات صوت اليخريين (١٩٥٥)
- ٤٥ - العزيزى ، روكس زايد : خليل مطران وشعره ، المجلة الجديدة ، مايو (١٩٣٧) عدد ٥ س ٦
- ٤٦ - العقاد ، والمازني : الديوان ، الطبعة الثانية ، مكتبة السعادة بمصر (١٩٢١)
- ٤٧ - العقاد ، عباس محمود : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، مطبعة حجازى بالقاهرة ٩٣٧
- ٤٨ - عوض ، لويس : بروميتوس طليقا لشلي . مكتبة النهضة المصرية (١٩٤٧)
- ٤٩ - الغضبان ، عادل : خليل مطران الحلیم الغضوب ، الرسالة سنة ٣ عدد ٥ (١٩٥٧) بيروت
- ٥٠ - " " : الكتاب ، ابريل (١٩٤٧) ص ٨٣٨
- ٥١ - فاخورى ، حنا : تاريخ الادب العربي ، طبعة ثانية (١٩٥٣) المطبعة البولسية
- ٥٢ - فارس ، بشر : الادب مجلد ٨ عدد ٨ (١٩٤٩) ص ٢٠
- ٥٣ - فلسطين ، وديع : الرسالة س ٣ عدد ٥ (١٩٥٧) بيروت
- ٥٤ - مبارك ، زكي : الكتاب الذهبي ص ٢٦٠
- ٥٥ - " " : الموازنة بين الشعراء ، مطبعة المقتطف والمقطم ، مصر
- ٥٦ - مجلة الزهور ج : ٨ السنة ٤ ك ١٠ (١٩١٣)
- ٥٧ - محفوظ احمد : حياة شوقي ، القاهرة مطبعة مصر

- ٥٨ - مطران ، خليل : ديوان الخليل ٤ اجزاء ، مطبعة دارالهلل (١٩٤٩) مصر
- ٥٩ - * * : اهم حادث اشر في حياتي ، الهلال يناير (١٩٣٠) ص ٢٢٠
- ٦٠ - * * : الكتاب الذهبي ص ٢٦٧
- ٦١ - * * : حديث مع شاعر القطرين ، الهلال م ٢٦٠ (١٩٢٨) ص ١٠٢٤
- ٦٢ - * * : مجلة الطريق ، م ٤٠ عدد ١٤ ص ٣
- ٦٣ - معلوف ، شفيق : العصابة الاندلسية ، م ١٠٠ (١٩٤٩) ص ٣٣٩
- ٦٤ - المقتطف ، يونيو (١٩٣٩) هامش ص ٨٧
- ٦٥ - المقدسي ، انيس الخوري : العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ، منشورات الجامعة الاميركية في بيروت
- ٦٦ - المكشوف ، (رأى لا نوفيل ليترار) عدد ١٢٩ ص ٤
- ٦٧ - مندور ، محمد : الشعر المصري بعد شوقي ، معهد الدراسات العربية العالمية (١٩٥٥)
- ٦٨ - * * : محاضرات عن خليل مطران ، معهد الدراسات العربية العالمية (١٩٥٤)
- ٦٩ - * * : مسرحيات شوقي * * * (١٩٥٥)
- ٧٠ - موسيه ، الفرد ده ، Musset, Alfred de: Poesies - Paris, Hachette, 1949.
- ٧١ - ناجي ، ابراهيم : اطياف الربيع ، لابي شادي .
- ٧٢ - نخلة ، الاب روفائيل ، المشرق ٤٦ ، (١٩٥٢) ص ٦١٧
- ٧٣ - * * : امين : ذات العماد - تحت الطبع
- ٧٤ - نعيمة ، مخائيل : الرسالة سنة ٣ عدد ٥ (١٩٥٧)
- ٧٥ - * * : الغربال - مصر